حسر اللثام

عن

نكبات الشام

وفيه مجمل اخبار الحرب الاهليّة المعروفة بحوادث
سنة ١٨٦٠ مع تمهيد في وصف البلاد
الجغرافي والسياسي

الطبعة الاولى

طبع في مصر سنة ١٨٩٥

مقدّمة

اما بعد فلما كانت حوادث الحرب الاهليَّة التي دارت رحاها في بلاد الشام سنة ١٨٦٠ من اهم ما جرى في البلاد الشرقيَّة في هذا العصر وكان الذين شاهدوا بعضها او سمعوا بها يُعَدُّون الآن بالالوف ولم يقم من بينهم واحد لنشر حكاية هذه الحرب بالتفصيل في كتاب كما نشرها الافرنج في كتبهم وجرائدهم رأينا بعد الاستعانة بالله عزَّ وجلَّ ان نجمع من رواية الثقات وكتابات الادباء ونتيجة المباحث الشخصيَّة والمشاهدة العيانيَّة ما يكفي لسرد وقائع السنة المذكورة وايضاح ما حدث فيها من المصائب والاهوال خدمةً للتاريخ وحرصاً على الحقائق من الضياع • وليس لنا في نشر هذا الكتاب غاية غير كتابة تاريخ هذه الحوادث الخطيرة ولهذا لطفنا عبارتهُ ما امكن وتحاشينا نشر الآراء السياسيَّة فيهِ واجتنبنا القاء اللوم على احد الناس ما خلا الذين اثبت التحقيق انهم ساعدوا على ارتكاب الفظائع وامرت الدولة العثمانيَّة باعدامهم او نفيهم ساعة اتضاح الامر •

فعسى ان تلقى هذه الخدمة الصغيرة من الناس قبولاً ويأتي
هذا الكتاب بالفائدة المطلوبة والله المسؤُول ان
يحسن لنا الاجر انهُ المحسن
الكريم

جغرافية الشام

تمهيد

لما كان ذكر الحوادث التي سنأتي على بيانها لا يتم ولا يتضح للقارئ بدون ان يتمهد لهُ العلم بالبلاد التي حدثت فيها تلك الحوادث رأينا ان ناتي على خلاصة ما يهم القارئ من وصف بلاد الشام الجغرافي وايضاح مواقع مدنها وقراها التي حصلت فيها الحروب والاهوال وذكر طرفٍ من احوال الاهالي وعقائدهم وعوائدهم وغير ذلك مما كان سبباً للحرب فنقول :

كانت سوريَّة او بلاد الشام من عهدٍ بعيد مقرّاً للحضارة ومركزاً للعز وصفاء العيش وقامت فيها الدول الكثيرة ونمت طوائفها نموّاً واسعاً وعظمت متاجرها الى حدٍّ لم يروَ عن غيرها من البلدان في التاريخ القديم وامتاز اهلها من عهد نشأتهم بحدَّة الذهن وتوقدهِ واتساع المدارك وسمو العزم وصحة البدن ونحو ذلك مما نشأ عما خصت بهِ هذه البلاد الطيبة من جمال الموقع وما فيها من عذب الماء ورقيق الهواء وكثرة المناظر البهيَّة وتنوع الاشكال الزاهرة الشهيَّة

﴿ موقع الشام وحدودها ﴾

وموقع الشام الجغرافي في الطرف الغربي من قارة اسيا على شطوط البحر المتوسط وهي بين ٣٠َ ٣٤ْ و٣٠َ ٣٧ْ من الطول الشرقي و ١٠َ ٣١ْ و ٣٠َ ٤٣ْ من العرض الشمالي يحدها من الشمال بلاد الاناضول ومن الشرق البادية وبلاد الجزيرة ومن الجنوب القطر المصري وبلاد العرب ومن الغرب البحر المتوسط . وموقعها من اجمل مواقع الارض واكثرها اهمية فهي الصلة الطبيعية بين الغرب والشرق

﴿ اقسام الشام واسماؤها ﴾

وقد قسم القدماء هذه البلاد الى قسمين الاول سورية وهو القسم الشمالي آخره عند بدء بلاد الاناضول واوله من ناحية الجنوب جبل الشيخ . واما القسم الثاني فهو بلاد فلسطين وموقعه ما بين جبل الشيخ في الشمال وحدود البلاد المصرية في الجنوب وهو القسم الذي استوطنهُ الاسرائيليون وملكوا معظمهُ في ايام الكليم موسى وخليفته يشوع بن نون . وظلت هذه البلاد تعرف بهذين الاسمين يعني سورية وفلسطين حتى ملكها الرومان واطلقوا على القسمين اسم سورية ثم فتحها العرب في بدء نهضتهم واطلقوا عليها اسم الشام واختلفوا في سبب تسميتها بهذا الاسم ولم تزل البلاد تعرف بالاسم الروماني عند الافرنج والاسم العربي عند العرب الى هذا اليوم

﴿ المساحة وعدد السكان ﴾

وليست بلاد الشام على شهرتها من البلدان الواسعة فهي لا تزيد عن خمسين الف ميلٍ مربع في مساحتها ولكن سكانها اليوم اقل مما كانوا في ايام عزها السابق يوم كانت فيها ممالك آرام وفينيقية واسرائيل واشور وغيرها زاهية زاهرة . فقد صار عدد السكان اليوم في كل بلاد الشام مليونين من النفوس بعد ان كان لا يقل عن عشرة اضعاف هذا القدر القليل وذلك لاسباب جمة اهمها كثرة الحروب وتغلب الدول الفاتحة على البلاد وظلم الفاتحين وعبثهم بالاموال والارواح مما سنعود الى ذكرهِ

﴿ طوائف الشام ﴾

ويمتاز اهل الشام عن بقيَّة اهل الارض بكثرة اديانهم فليس في المسكونة بلاد صغيرة مثل هذه تضم العدد العديد الذي سنذكرهُ من طوائفها وفيها اديان خاصة بها لا وجود لها في سواها من البلدان ولعل ذلك من اكبر اسباب انحطاطها وشبوب الحروب الاهلية فيها وسببهُ الاول كثرة الامم التي تغلبت عليها في الازمان السالفة . واما الطوائف الحالية فاشهرها المسلمون وهم انواع ثلثة اشهرهم السنيَّة ويليهم الشيعيَّة ويعرفون في بلاد الشام باسم المتاولة . ثم النصارى وهم فرق عديدة منها الروم الارثوذكس والروم الكاثوليك واللاتين والسريان والموارنة والبروتستانت وليس في الارض كلها اناس من طائفة الروم الكاثوليك والموارنة الاَّ في بلاد الشام والبلدان التي يتردد عليها اهل

الشام مثل مصر واميركا وغيرها · ومن هذه الطوائف اليهود وهم اليوم طائفة قويَّة في متصرفيَّة القدس الشريف ومنهم عائلات كثيرة في كل انحاء البلاد · ومنها طائفة السمرة وهم اقل طوائف الشام عددًا يقطنون انحاء نابلس في متصرفيَّة القدس واصلهم من اهل اشور ارسلهم احد ملوكها ليعمروا البلاد بدل اليهود الذين سباهم ويدينون اليوم بدين اسرائيل ولكنهم لا يعتبرون غير كتب موسى الخمسة ولهم تاريخ غريب · ومنها الدروز وهي طائفة باسلة يسكن افرادها جبال حوران على حدود البلاد الشرقيَّة وجبل لبنان وبعض المدن ولا يزيد عدد افراد هذه الطائفة عن تسعين الفًا من النفوس وديانتهم سرّيَّة · ومن الطوائف الشاميَّة طائفة النصيريَّة والاسماعيليَّة واهلها من اصحاب الاديان السرّيَّة ايضًا ومعظمهم يقطنون الجبال التي تلي طرابلس واللاذقيَّة · ومن غريب امر هذه الطوائف ان بينها اربعة هي طوائف الدروز والاسماعيليَّة والسمرة والنصيريَّة لا وجود لها في غير بلاد الشام وهذا من الغرابة بمكان

﴿ المسلمون ﴾

واما تعداد النفوس فلا يُعرَف بالتدقيق ولكن الاحصاء الاخير الذي عوَّلت عليهِ الدولة العليَّة يظهر منهُ ان عدد المسلمين في بلاد الشام يزيد عن مليون منهم حوالي مائة الف من العربان الذين لا يقيمون في ارضٍ معلومة ولم يزالوا على حال اجدادهم من البداوة وحب الغزو والتنقل وهم كثار في كل ناحية وبنوع اخص في اطراف

البلاد الشرقيَّة ونواحي الحولة على حدود فلسطين من ناحية الشمال ولكن عددهم قليل في بلاد النصيريَّة والارياف الشماليَّة ولا وجود لهم في جبل حوران موطن الدروز الذي مرَّ ذكرهُ ولا في كسروان وهو موطن الطائفة المارونيَّة . ويبلغ عدد المسلمين الذين على الطريقة الشيعيَّة او المتاولة حوالي ٧٠ الفاً من النفوس معظمهم في بلاد بعلبك في أطراف البلاد من ناحية الشرق ووراء طرف لبنان الجنوبي وفي بلاد الشقيف وبلاد بشارة وانحاء مدينة صور وكل هذه في جنوبي ولاية بيروت وشمالي متصرفيَّة القدس وعددهم قليل جدًّا في المدن المعروفة

﴿ المسيحيون ﴾

واما المسيحيون فيبلغ عددهم حوالي تسعماية الف نفس او يزيد منهم ٢٧٠٠٠٠ من الموارنة و ٢٥٠٠٠٠ من الروم الارثوذكس و ٥٠٠٠٠ من الروم الكاثوليك و ٣٥٠٠٠ من بقية الطوائف التي عددناها . واهم الاماكن التي يسكنها المسيحيون جبل لبنان وفي بعض مدنهِ مثل دير القمر وزحلة وغيرها لا يسكن الدروز . وكسروان مقاطعة خاصة بالطائفة المارونيَّة لا يسكنها سواهم من العالمين . ويكثر النصارى في مدينة بيروت وهم الفريق الاكبر من اهلها وعددهم ليس بقليل في كل المدن البحريَّة مثل طرابلس وصيدا وصور ويافا والداخليَّة مثل دمشق وحلب وانطاكية وغيرها وقلَّ ان يخلو مكان في سوريَّة من بعض طوائف المسيحيين

﴿ الاسرائيليون ﴾

واما الطوائف الاخرى فاشهرها الطائفة الاسرائيليَّة واهلها يقربون اليوم من ماية الف في عددهم اكثرهم في الاراضي المقدسة مثل القدس الشريف ونواحيها وهم يزيدون عدداً يوماً بعد يوم لكثرة الذين يهاجرون الى هذه البلاد منهم ولاعتقادهم ان هذه البلاد ستعود اليهم بعد حين ويساعدهم اكابرهم على شراء الاراضي وتعمير القرى والمدن وقد صارت القدس ونواحي جبل الكرمل والناصرة جلها من املاكهم وصاروا هم اصحاب النفوذ فيها واكثرهم غرباء نزحوا الى بلاد الشام في هذه السنوات الاخيرة وينتظر ان يزيد عددهم زيادة كبرى في الاعوام القادمة. وطائفة السمرة التي اتينا على ذكرها وهي من اغرب طوائف الارض تعد في جملة اليهود ولا يزيد عدد نفوسها عن ستين ولعلها اصغر طوائف الارض

﴿ الدروز ﴾

واما طائفة الدروز فتمتاز بميلها الى الحرب ولافرادها خصال كثيرة تحمد ومعظم الدروز كما قدمنا في حوران ولبنان ووادي التيم واقليم البلان ويندر ان تخلو منهم مدينة او ولاية في الشام واما في غير الشام فلا اثر لهم الاَّ ان يكون من بعض افرادهم الذين يرحلون في طلب الرزق وعدد الدروز بالتقريب نحو ٩٠ الف نفس. وسنعود الى ذكرهم ونأتي على طرفٍ من تاريخهم في ما يجيء

﴿ الطوائف الاخرى ﴾

واما النصيريَّة والاسماعيليَّة فيمتازون بديانتهم الباطنيَّة وعوائدهم المستهجنة وهم يقربون من ثلثين الفًا عددًا معظمهم في الجبال الواقعة بين حماه واللاذقيَّة · ومن غريب الامر ان في عكا طائفة صغيرة اسمها طائفة البابيين ليس لها وجود في غير مدينة عكا من بلاد الشام · واما الطوائف الاخرى فقد تقدم الكلام عنها

﴿ المناظر الطبيعيَّة ﴾

وفي بلاد الشام جبال كثيرة اشهرها جبل لبنان وهو سلسلة تمتد من طرابلس الى نهر الليطاني ويعد من الجبال المشهورة بجمال المناظر وطيب الهواء · ويليهِ الى الشمال سلسلة جبال اللكام والى الجنوب جبل الشيخ وما يليهِ من سلسلة جبل لبنان الشرقي · وفي البلاد سهول كثيرة شهيرة في خصبها منها سهول حمص والشام ووادي الفرات ومرج ابن عامر والبقاع وسهول عكا وحوران · وانهارها كثيرة ولكنها كلها صغيرة لا تصلح لسير السفن ولا يعول عليها في ري الاراضي كما يعول على النيل في مصر ومن اشهر هذه الانهر نهر حلب وهو فرع من الفرات يسقي مدينة حلب ونهر العاصي وهو يسقي مدينتي حمص وحماه ونهر ابراهيم ونهر الكلب الذي يسقي بيروت ونهر الدامور ونهر الاولى يسقي مدينة صيداء ونهر الليطاني وبردى وهو يسقي مدينة دمشق ونهر الاردن وهو شهير لهُ ذكر في الكتب المقدسة

وفيها من البحيرات ما يستحق الذكر منها بحيرة انطاكية على مقربة من مدينة انطاكية في شمال البلاد وبحيرات اخرى صغيرة على مقربة من حمص وحماه وبحيرة الحولة وبحيرة طبريَّة وبحيرة لوط وهي في شمالي الاراضي المقدسة

﴿ الحاصلات والحيوانات والمعادن ﴾

وتربة سوريَّة جيدة خصبة وارضها حمراء اللون وبيضاء وسوداء ويغلب فيها اللون الاول . واشتهر عن بلاد الشام كثرة الفاكهة على اشكالها والحاصلات من الحبوب على انواعها وقلَّ ان توجد بلاد في الارض ينمو فيها من اشكال النبات ما ينمو في هذه البلاد ولفاكهتها شهرة تضرب بها الامثال . وحيواناتها الاليفة والبريَّة كثيرة وهي مثل التي توجد في القطر المصري تقريباً . وفيها من المعادن الفضة والرصاص والذهب والفحم والحديد والنحاس والحُمَّر واغلب هذه الكنوز لا تستخرج الآن من قلب الارض لان التصريح بذلك من الامور الصعبة وروح الاشتراك بين الافراد على القيام بالاعمال التجاريَّة الكبيرة غير معروف الى الآن في بلاد الشرق

﴿ المصنوعات ﴾

ومصنوعات الشام ليست بقليلة ولكنها مثل سائر صنائع المشرق تصنع باليد ولم تدخل المعامل الكبرى والآلات البخاريَّة فيها الى الآن واشهرها تربية دود الحرير وهم يربونهُ في لبنان وغيرهِ بالاعتناء الزائد ويبعثون بهِ الى معامل فرانسا وغيرها لينسج حريراً ويعود اليهم

ويتوقف على صناعة الحرير وتربية دوده معاش عائلات كثيرة في بلاد الشام وهو اهم فرع من فروع تجارتها الآن. وتصنع فيها الاقمشة القطنيَّة من نوع «الديما» الشهيرة المعروفة بين الافرنج باسم الشام وتسمى «غزلية» في هذه البلاد وقد تفنن اهل بعض المدن مثل الزوق ودمشق وغيرهما في عمل المنسوجات الحريريَّة المقصبة وعليها الرسوم المختلفة نسجاً لا طبعاً واهدى بعضهم الى قداسة البابا وجلالة ملكة الانكليز وغيرها من الامراء والملوك هدايا من هذا النوع وعليها رسومهم فاعجبوا باتقانها وشهدوا بجمالها . واشتهر اهل دمشق في ترصيع الادوات الخشبيَّة بالعاج وعرق اللؤلوء وفي تركيب الجواهر على الذهب ولهم في ذلك ذوق تضرب بهِ الامثال وقد كان في هذه المدينة القديمة صناعات اخرى مثل عمل القيشاني والسيوف الدمشقيَّة ضاعت ولم يبقَ لها وجود الاَّ في الآثار القديمة

﴿ المعارف ﴾

ومعارف الشام تذكر في بعض الانحاء وقليلة لا تذكر في انحاء أُخرى فحيث يكثر الاجانب والمرسلون تكثر المدارس والكتب وحيث يقل عددهم تقل المعارف وليس للحكومة من المدارس الاَّ الشيء القليل وهي قاصرة على اولاد المسلمين. وقد نهضت مدينة بيروت وقرى لبنان ومدينة طرابلس ودمشق نهضةً تذكر وتشكر في الاعوام الاخيرة ودخل الشبان والشابات والصبيان والبنات مدارس الافرنج على اشكالها فنبغ منهم الافراد وانتشر المتعلمون في كل اقصاء البلاد ونزح

فريق كبير منهم الى القطر المصري واميركا واوروبا. والسوريون اليوم اصحاب القلم في كل البلدان العربيَّة فهم يحررون كل جريدة عربيَّة تذكر في القطر المصري وغيرهِ من الديار العربيَّة وليس في بلاد الشام واحد من المؤلفين او اصحاب الجرائد غير سوري الاصل وهذا يدل على ذكاء السوريين واقدامهم وميلهم الى الارتقاء وهمتهم فلو أُطلق لهم العنان وأُعطيت الحريَّة لاقلامهم لملأُوا البلاد بالمؤلفات النفيسة والكتابات المفيدة على اشكالها

﴿ المدارس ﴾

واما المدارس في بلاد الشام فكلها للاجانب ما خلا الشيء القليل منها واشهرها المدرسة الكليَّة للمرسلين الاميركيين في بيروت ومدرسة القديس يوسف للمرسلين الكاثوليك اليسوعيين والمدرسة البطريركيَّة لطائفة الروم الكاثوليك ومدرسة الحكمة لنيافة المطران يوسف الدبس رئيس الطائفة المارونيَّة في بيروت والمدرسة الرشديَّة للحكومة المحليَّة. ومدارس البنات كثيرة اشهرها مدرسة الاميركان ومدرسة الانكليز ومدرسة الراهبات العازريات ومدرسة الراهبات البروسيات الانجيليَّة وغيرها وكل هذه المدارس في بيروت وهي مركز العلوم والمعارف في بلاد الشام. وفي البلاد مدارس اخرى اشهرها في جبل لبنان كمدرسة عين طوره ومدرسة قرنة شهوان ومدرسة عين ورقة ومدارس برمانا والشوير وعين زحلتا وغيرها والثلاث الاخيرة للانكليز. وفي القدس الشريف مدارس كثيرة للانكليز والالمان وقلَّ ان تخلو

اليوم بلدة معروفة من مدرسة للانكليز او للفرنساويين وفضل المرسلين من طائفتي الكاثوليك والبروتستانت كثير على هذه البلاد

﴿ المهاجرة ﴾

واكثر سهول سوريا وجبالها آهلة بالسكان ولكن قلة وسائط النقل وحالة البلاد الادارية تمنع من زيادة السكان وقد نقلل عددهم بما ياتيهِ الحكام من سوء التدبير والظلم مما يضطر الناس الى الرحيل والمهاجرة ويقدرون ان عدد الذين هاجروا الى اميركا وسواها من اهل لبنان في مدة ١٥ سنة من هذا التاريخ لا يقل عن مايتي الف نسمة وهو اكبر الادلة على حاجة البلاد الى الاصلاح

﴿ ولايات الشام واقسامها ﴾

واما اقسام الشام الادارية على حسب نظام حكومتها الحالي فهو ان البلاد مقسومة الى خمس ولايات اولها ولاية حلب وهي القسم الشمالي من البلاد والثانية ولاية بيروت وهي السواحل البحرية المعروفة وما يليها في داخلية البلاد من اللاذقية شمالاً الى حيفا جنوباً . والثالثة ولاية الشام او سورية وقاعدتها مدينة دمشق وهي تشمل داخلية البلاد وشرقيها . والرابعة متصرفية القدس وهي تشمل جميع البلدان الواقعة بين حدود ولاية بيروت وحدود القطر المصري . والخامسة متصرفية لبنان وامرها معروف ولهذه المتصرفية نظام خاص واستقلال اداري ولها والٍ تعينهُ الدول مع الباب العالي كل عشر سنين وموقعها في اواسط بلاد الشام بين ولايتي سورية وبيروت . وجميع الولايات

الشاميَّة تابعة في امورها العسكريَّة الى مشير العرضي الهمايوني الخامس من فرق الجيش العثماني ومركزهُ في دمشق

وتقسم الولاية الى متصرفيات والمتصرفيَّة الى قائمقاميات والقائمقاميَّة الى مديريات في كل بلاد الدولة العثمانيَّة · وفي كل قرية من قرى لبنان شيخ يسمونهُ شيخ الصلح واكثر المشايخ يرثون الوظيفة وراثة ولهم الاولويَّة في مصالح الحكومة وفي كل مديريَّة او ما فوقها مجلس للادارة ومجلس للجنايات يرأس الاول الحاكم الاداري والثاني القاضي والاعضاء ينتخبون انتخاباً من بين الاهالي وفي كل ولاية مجلس للاستئناف في مسائل الجنايات والحقوق ولكن استئناف المسائل التجاريَّة في كل بلاد الشام يرجع الى بيروت ما خلا ولاية حلب

✻ المدن البحريَّة ✻

واما المدن المعروفة في بلاد الشام فكثيرة بعضها في داخليَّة البلاد والبعض الآخر على شاطىء البحر المتوسط مثل مرسين في الشمال وهي مينا ولاية اطنه ولها موقع حسن وفيها سكة من الحديد تصل الى ادنه وهي اول سكة من هذا النوع ظهرت في بلاد الشام ولها مركز تجاري ولهذا تمر عليها بواخر الشركات التجاريَّة وتقف فيها يوماً كاملاً واكثر اهلها يعرفون العربيَّة والتركيَّة لقربهم من الولايات التركيَّة · وتليها الى ناحية الجنوب على شاطىء البحر اسكندرونة وهي مدينة صغيرة لها ميناء بديع ترمي فيهِ البواخر ولهذه المدينة الصغيرة اهميَّة كبرى لانها مينا حلب وما يليها تمرّ فيها البضائع الصادرة والواردة ولهجة اهلها

تقرب من لهجة حلب في الكلام . وتليها اللاذقية الى جنوبيها وهي مركز متصرفيَّة باسمها وتعرف بكثرة النصيريَّة فيها وهم يقطنون الجبال التي تلي هذه المدينة كما مرَّ ولها شهرة قديمة . وطرابلس وهي من اجمل المدن البحريَّة منظرًا ولها مقام كبير لانها الثانية في مدن السواحل السوريَّة بعد بيروت ولها تجارة واسعة ولاهلها شهرة في الجد والاقدام وميناؤها جميل امين يضرب المثل في جمال مناظرهِ والروائح الذكيَّة التي تتضوع من حدائقهِ وهي متصرفيَّة من ولاية بيروت . وتليها بيروت الى جهة الجنوب منها وهي اشهر مدائن الشام واهمها واعظمها لانها مركز تجارة البلاد برمتها ومركز العلوم والمعارف فيها وقد نمت في السنوات الاخيرة نموًّا سريعًا فادخلت اليها معظم ادوات التمدن الحديث وانشأت المدارس العالية التي لا نظير لها في الشرق وتجددت فيها الشوارع والحدائق والبنايات الجميلة وكثر عدد سكانها حتى صار نيف ومائة وعشرون الفًا . وفي بيروت من المطابع الكبرى عدد كبير فهي تطبع الكتب لكل بلاد الشام ولسائر المشرق . وجرائد الشام عن بكرة ابيها تطبع في هذه المدينة الزاهرة ما خلا ثلاثة هي طرابلس في المدينة التي تسمى باسمها والفرات في حلب وسوريَّة في دمشق والجريدتين الاخيرتين من جرائد الولايات الرسميَّة . واكثر اهل بيروت من النصارى من طائفة الروم الارثوذكس وفيها عدد كبير من كل الطوائف الاخرى ويقرب المسلمون فيها من ثلاثة اثمان عدد اهلها وهي مركز الولاية التي تسمى باسمها وشهرتها تغني عن الاسهاب في مثل هذا الفصل الموجز . وتلي بيروت الى جهة الجنوب مدينة صيدا وكانت

في سابق الزمان عاصمة الفينيقيين ولها شهرة بعيدة وظلت على شهرتها الى اواسط هذا القرن حين كانت عاصمة البلاد السوريَّة يقيم فيها الولاة وعمال الدولة العثمانيَّة · وهي صغيرة الآن لا يزيد عدد سكانها عن عشرة آلاف نفس معظمهم من المسلمين وهي شهيرة بآثارها وبساتينها وقدميتها · ومثلها مدينة صور وهي تليها الى ناحية الجنوب وفيها عدد كبير من المتاولة واحوالها متأخرة · وعكا وهي بلدة حصينة حدثت فيها المعارك الهائلة ولها شهرة تاريخيَّة من قديم الزمان الى الآن وهي مركز متصرفيَّة· وحيفا وهي مركز قائمقاميَّة لها شهرة في هذه الايام بالمستعمرة الالمانيَّة الكبيرة التي عمرت قراها وصيرتها من اهم الانحاء الشاميَّة · ويافا وهي مشهورة برداءة مينائها وكثرة الامواج فيه ولها مركز خطير لانها مينا القدس الشريف تمر فيها الابضعة وينزل اليها المسافرون الوفاً ممن يعرج عليها في طريقه الى المدن الاخرى او يزور القدس عن طريقها · ولهذه المدينة شهرة كبرى بالفاكهة التي تزرع فيها وتباع في مدائن مصر والشام وهي اول اسكلة سوريَّة تقف عليها البواخر الذاهبة من القطر المصري وفيها سكة حديديَّة انشئت حديثاً تسير بها الى القدس الشريف· وآخر السواحل الشاميَّة المعروفة غزة وهي على مقربة من الحدود المصريَّة وليس لها اهميَّة بين المدائن

✱ مدن الداخليَّة ✱

هذه اهم السواحل السوريَّة · واما مدن الداخليَّة فكثيرة منها انطاكية وهي التي بناها ملوك الدولة السلوقية التي حكمت البلاد من

بعد الاسكندر ذي القرنين وظلت هي المدينة الاولى في البلاد وعاصمة الملك الى ايام الفتح الاسلامي وكانت من اعظم مدائن الشرق واهمها في العلوم والمتاجر والمقام السياسي فتوالت عليها النكبات ودمرتها الزلازل مرارًا حتى انحطت وصارت الى حالها الحاضرة وليس لها اليوم ذكر بين المدائن الشهيرة . ومنها حلب وهي مدينة شهيرة كبيرة لها تجارة واسعة ولاهلها خبرة في صناعة النسج وهي مركز ولاية باسمها و يبلغ عدد سكانها نيف ومائة الف نفس معظمهم يتكلمون العربيَّة والتركيَّة واكثرهم من المسلمين. وفي نواحي حلب سهول واسعة و بقاع خصبة يقطنها العرب الرحل وهي لو زُرعت واُتقنت لجاءت بالحاصلات الكثيرة . ومن هذه المدائن حمص وحماه وهما مدينتان قديمتان في السهول التي يمر بها نهر العاصي ولاهل المدينتين شهرة في نسج الاشياء القطنيَّة . ومنها دمشق الفيحاء وهي اشهر من ان تذكر واكبر مدائن الشام واكثرها نزهةً وخضرةً وحسنًا واقدمها عمرًا واكثرها فخرًا يزيد عدد سكانها اليوم عن مائة وخمسين الفًا سبعة اعشارهم من المسلمين . ولاهل هذه المدينة العظيمة شهرة بعيدة في الرقة والانس وفي الاقدام على الاعمال الكبيرة ولهم علم خاص بصناعة الحرير والحلي وهم ميالون الى الحظ والطرب اكثر من كل قوم سواهم ولا عجب فمدينتهم اشهر مدائن الارض بجمال بساتينها ومزارعها ومائها العذب وهوائها الطيب ومنظرها الغريب ورخص اسباب العيش وتوفر دواعي الراحة والرخاء وكثرة الفاكهة وغير هذا مما يجعل لهذه المدينة المقام الاول بين مدن الارض المعروفة بالبهاء والزهاء . ودمشق اقدم مدن

العالم الباقية الى اليوم وقد تقلبت عليها الاحوال اشكالاً والواناً ولعلها لم تصل الى درجة من العز تضاهي درجتها ايام كانت مركز الخلافة الاسلامية في عهد الدولة العربيَّة الاموية الباقية آثارها فيها الى هذا اليوم . وتمتاز دمشق الفيحاء على بقيَّة المدائن الشاميَّة بجمال اهلها وحسن مناظرهم كما انها تمتاز بجمال غوطتها التي تضرب بها الامثال وهي محيطة بها من كل جانب كانما المدينة جزيرة يحيط بها بحر من الاشجار والبساتين والازهار والرياحين . وفيها مركز ولاية سوريَّة ومركز العرضي الهمايوني الخامس الذي ترجع اليهِ الامور العسكريَّة من كل الولايات الشاميَّة . ومنها يخرج الحج الشامي كل عام باحتفال عظيم ولها تجارة واسعة بالحبوب والغلال والفاكهة وبالمصنوعات الحريريَّة والمصوغات والحلي والادوات المرصعة وغير هذا مما يختص بها دون سواها وتتصل بينها وبين بيروت سكة بسيطة للعربات تجرها الخيل والقوم اليوم يعملون في مد الخط الحديدي بين المدينتين فاذا تمَّ ذلك صارت دمشق الى درجة رفيعة في المتاجر وتحسنت شؤونها ووفرت ثروتها . وليس في دمشق الشام مطبعة ولا جريدة ما خلا واحدة للولاية مرَّ ذكرها ومدارسها بسيطة فهي مثل بقيَّة مدائن الشام تعول على بيروت في كل الامور العلميَّة والتجاريَّة ولو شئنا التطويل في وصف هذه المدينة لضاق بنا المقام ولكن يكفي بعد الذي قلناهُ ان نوضح لغرض هذه الرسالة ان دمشق في اواسط البلاد التي حدثت فيها المذابح في سنة ستين ولهذا لجأ اليها الفارون من قرى حاصبيا وراشيا وغيرهما وحصل فيها بعد ذلك مذبحة هائلة سنأتي على ذكرها في حينها

ومن مدائن الشام في داخليَّة البلاد القدس الشريف ولها شهرة تغني عن الاطناب فهي مهبط الوحي ومسكن الانبياء الصالحين ومدفن سيدنا المسيح ومن تقدمهُ من رجال الله الاخيار ومركز الحرم الشريف وقبر سيدنا ابراهيم وآثار هيكل سليمان وهي اشهر مدن الارض الدينيَّة يعتبرها المسلمون والنصارى واليهود مدينةً مقدسة ويحجون اليها من اقصى الانحاء . وقد كانت في سابق العهد عاصمة المملكة اليهوديَّة كما لا يخفى ومرت عليها ايام رأت فيها من العز والرخاء والمجد والعظمة ما لم ترَهُ مدينة سواها في ايام الملك سليمان الحكيم وتوالت فيها الحوادث الشهيرة الهامة من مثل قيام الانبياء وانتشاب الحروب حتى كان ما كان من خرابها على يد الامبراطور تيطس الروماني بعد التاريخ المسيحي بسبعين سنة ومن ذلك الوقت انحطت هذه المدينة العظيمة وتشتت اهلها في كل اقطار المسكونة ولم تقم لها ولا لهم قائمة من ذلك الحين . على ان الاسرائيليين لم يزالوا يؤملون و يعتقدون ان القدس او اورشليم ستعود اليهم وتصير مرةً اخرى عاصمة مملكتهم وهم يحترمونها لانها مركز عزهم السابق ومدفن آبائهم واجدادهم . والمسيحيون يعتبرونها المدينة المقدسة لما فيها من عجائب الله ولقيام النبيين وموت المسيح فيها وعندهم الكنائس الكبيرة الكثيرة فيها لكل الطوائف منها واحدة يعز نظيرها في الوجود اسمها كنيسة القيامة يزعمون ان قبر سيدنا المسيح فيها وهو الذي يتقاطر الحجاج كل سنة الوفاً لمشاهدتهِ والتبرك بمرآهُ . والقدس مركز متصرفيَّة كبرى تقرب من الولاية في ضخامتها واهميتها ولهذا يعدها

البعض من الولايات الشاميَّة واكثر سكانها اليوم من الاسرائيليين وبينهم عدد يذكر من المسلمين والنصارى من كل طائفة ومذهب . واشتهر اهل القدس بصناعة الخشب المخروط والسبح وتنسيق الزهور اليابسة وغير هذا مما هو مشهور ومأثور

ومن هذه المدن الداخليَّة نابلس وهي في لواء القدس الشريف اشتهرت بصنع الصابون النابلسي المعروف وفيها طائفة السمرة التي مرَّ ذكرها . ومنها طبريا وصفد والناصرة موطن سيدنا المسيح وكلها في متصرفيَّة القدس ولها شهرة في الآثار وجمال المناظر الطبيعيَّة وذكر ما حدث في ايام الانبياء

واما مدن لبنان وقراهُ الشهيرة فكلها في داخل البلاد من اشهرها مدينة زحلة وهي على اطراف الجبل من ناحية الشرق مبنيَّة بين جبلين كبيرين يمرّ في واديها نهر صغير تستقي البلدة ومزارعها منهُ ولهذه المدينة مركز حصين ولاهلها بأس في الحروب واقدام كبير على الاعمال وهم لا يقلون عن ١٢ الف نفس عدًّا وقد نزح منهم في السنوات الاخيرة عدد كبير الى ولايات اميركا المتحدة وانشأوا فيها المحلات التجاريَّة وقاموا بالاعمال الكبيرة حتى انهم بنوا مدينة في ولاية نيويورك سموها زحلة باسم بلدتهم الاصليَّة واكثرهم من اصحاب البنية القويَّة والصحة الجيدة وقد كان لهم في الحروب التي سنأتي على ذكرها اعمال تذكر وتشكر . ومنها دير القمر وهي من اشهر مدن لبنان كانت قبل حروب سنة ١٨٦٠ مدينة شهيرة لها صناعة تعرف بها في نسج الاقمشة ومتاجر واسعة ولكن المصائب التي دهمتها في تلك

السنة والاهوال التي حدثت فيها تركت اكثر من نصفها خراباً واضطرت اهلها الى الرحيل ومنهم اناس اليوم في كل مدائن الشام واكثر مدائن مصروفي اوروبا واميركا وهي الثانية في عدد السكان بين مدن لبنان وموقعها في اواسطهِ بلحف جبل تحيط بها القرى من كل جانب . ولاهلها شهرة في الذكاء والشجاعة وكلهم اليوم من النصارى وبينهم نفر قليل من المسلمين . واما الدروز فقد منعوا من السكن فيها بعد الذي حدث في سنة الهول التي نحن في صددها . وقد اصاب هذه البلدة من نكبات سنة ١٨٦٠ اكثر مما اصاب كل بلدةٍ سواها تقريباً وكان لاهلها دخل كبير في كل تلك الحروب . ومن الاماكن التي اشتهرت بالحرب بيت مري وهي قرية صغيرة تشرف على بيروت من شرقيها ولها موقع جميل وفيها ماءٌ عذب زلال وهواءٌ طيب مثل اكثر قرى لبنان او كلها . ومنها حاصبيا وهي مدينة وادي التيم وتابعة لولاية سورية . وراشيا وهي بين حاصبيا ودمشق وهما البلدتان اللتان ذاقتا المرَّ من مذابح تلك السنة المشومة وغير هذه سيأتي ذكرها في حينهِ

فصل

في حكومة الشام قبل حوادث سنة ١٨٦٠

نرى من الواجب ايضاح حالة الشام وحكومتها في الاعوام التي سبقت الحوادث الشهيرة لما لها من العلاقة الكبرى بالحروب والمذابح التي سوف نرويها فنقول بالاختصار ان البلاد كانت كما هي اليوم تابعة للدولة العثمانيَّة يحكمها العمال من الاتراك واشراف البلاد باسم السلاطين العظام الذين شادوا لهذه السلطنة صروح المجد والفخار واحسنوا معاملة رعاياهم حتى اجتذبوا اليهم القلوب وصيروا مملكتهم اقوى ممالك الارض ولا غرو فبالعدل تقوى الممالك

مقاصد السلاطين العظام

وكان سلاطين آل عثمان العظام الذين اسَّسوا هذه الدولة يريدون ان يعيش الناس في ظلهم آمنين مستريحين فاتخذوا العدل لهم شعارًا وجعلوا مراعاة العوائد والعقائد منارًا وابقوا لكل امةٍ حكموها الخيار في المحافظة على لغتها وتقاليدها ودينها فضمنوا بذلك رضاء الاهالي من كل جنس ومذهب عن دولتهم وحب هؤلاء الاقوام لحكومتهم وتسليم الافراد والجماعات لارادتهم حتى دانت لهم الرقاب وخضعت لهيبتهم الطوائف٠ بمثل هذا قامت سلطنة آل عثمان واتسع

نطاقها وازداد سوددها وعظمت قوتها ورسخ قدمها في البلدان الكثيرة التي ملكتها ببسالة سلاطينها وقوادها

وقد عادت هذه السياسة القويمة الناجمة عن نيّات حميدة وسرائر طاهرة عادلةٍ بجميع ما قصد منها بحيث لم يمضِ الوقت القصير على العرش العثماني الاّ واضحت رايتهُ الهلاليَّة تخفق في جهات كثيرة من الارض تظلل بظلها امماً كثيرةً رتعت في بحبوحة العدل والامن والطمأنينة مع انها كانت سبباً لالقاء الرعب والخوف في قلب كل عدوٍ يحاول ان يأتي امرًا نكرًا لفساد في سريرتهِ او مطامع في نفسهِ

وحافظ السلاطين العثمانيون العظام في كل ادوارهم على قواعد هذه السياسة التي اوجبتها عليهم عدالة مبادئهم وسمو مداركهم وحبهم لراحة رعاياهم. وكانوا آونةً بعد اخرى يأتون بالادلة الحسيَّة الظاهرة على استمرارهم في اعتبار هذه المبادئ الحسنة فان ساكن الجنان السلطان محمد الفاتح عند ما فتح القسطنطينيَّة استدعى البطريرك بيساديوس اليهِ وسلمهُ بيدهِ الشريفة التاج وعصا البطريركيَّة الرعويَّة وطيَّبَ خاطرهُ واقرهُ على جميع ما كان لهُ من الحقوق والامتيازات وسياسة رعيتهِ الروحيَّة ايام الدولة الرومانيَّة وسلمهُ فرماناً سلطانياً صار بذلك قاعدة لكل فرمان من هذا النوع صدر بعدهُ و رخص لهُ بممارسة طقوسهِ وعوائدهِ الدينيَّة بكل حريَّة ومنع عنهُ كل معارضة بذلك. وقد منح هذا السلطان العظيم مثل هذه المنح الجليلة لجميع الطوائف الاخرى في ممالكهِ الواسعة فكان كلٌّ يمارس دينهُ وعوائدهُ ولغتهُ على ما يريد. وقد كان خلفاؤُهُ من السلاطين العظام يسيرون

على هذه المبادئ ويزيدون على هذه المنح والامتيازات كما اقتضت الاحوال ودليل ذلك ما صدر في مدة كلٍّ منهم من الفرامانات لرؤساء الملل ومحافظة اولئك السلاطين العظام على ما في تلك الفرمانات من الانعامات والامتيازات

وسهرَ اولئك السلاطين العظام على راحة الرعيَّة على اختلاف عقائدها ونكلوا بكل معتدٍ على حقوقها وشرائعها مهما كان مقامهُ ورتبتهُ فان ساكن الجنان السلطان محمود الثاني لما رأى الاختلال الواقع من الجنود التي كانت تؤلف من الانكشاريَّة وغيرهم وما كان يصلُ بالرعيَّة من شرها وتعديها على المسلمين وغير المسلمين خصوصاً وما ظهر من عصيانها من وقتٍ الى آخر حتى صارت آلة تسلب امن المملكة بعد ان كانت الآلة الوحيدة لحفظ النظام الداخلي والامن الخارجي عمل على ابادتها منعاً لشرها وتمكن من ذلك فاباد تلك الزمر العاتية عن آخرها وانشأ نظاماً عسكريًا جليلاً حسب النظام الاوروبي فكان من نتائج عملهِ هذا الاقتصاص من المجرمين وحفظ راحة صنوف الرعايا في الداخل وتجديد سطوة المملكة في الخارج . وساكن الجنان السلطان عبد المجيد رأى ان نظامات المملكة الداخليَّة قد شابها الخلل ولم يعد بها الكفاءة لضمان الحقوق لجميع اصناف تبعتهِ فعمد الى اصلاح هذا الخلل بوضع نظاماتٍ جديدة دعاها بالتنظيمات الخيريَّة واصدر فرماناً سلطانيًا بها . وكان من خصائص هذه التنظيمات التي صارت بدء عصرٍ جديد للمالك العثمانيَّة ان يتساوى جميع افراد الرعيَّة من اي مذهبٍ وجنسٍ ورتبة في جميع الحقوق الوطنيَّة . نعم ان

هذا العصر الجديد لم يغير طباع بعض الظالمين كاحمد باشا الذي كان واليًا على سوريَّة سنة ١٨٦٠ الاَّ ان رغبة هذا السلطان المجيد ورجال دولتهِ الامناء في مصلحة الرعيَّة وخير المملكة قد اخرجت هذه المقاصد الخيريَّة من حيز القوة الى حيز الفعل واقتصت ممن قاومها وابدى التعدي على الرعيَّة كما اقتصت من احمد باشا الذي سنأتي على ذكر اعمالهِ وجعلتهُ هو ومن جرى مجراهُ يريد بالرعيَّة شرًّا وفسادًا ويعمل على تفريق كلمتها والقاء الشقاق والعداء بين جامعتها

فيظهر مما تقدم ان الفتن والمذابح التي ورد ذكرها في تاريخ الشام لم تكن بقصد احدٍ من السلاطين او رجال دولتهم الامناء بل من العمال الاردياء ومن تعدي الفئات التي ابادها السلطان محمود الثاني كما تقدم وممن كان يقتدي بها من الاهالي · وكان بُعد المسافات وضعف وسائط الاتصال في تلك الازمنة من اعظم ما ساعد اولئك المعتدين على اجراء ما كانوا يجرونهُ من الاعمال المغايرة لرضاء سلاطينهم وولاة امورهم ومع ذلك فهم لم ينجوا من القصاص الصارم عند ما بلغ خبر فعلهم اذان السلطان كما عوقب احمد باشا وغيرهُ

⁂ الايالات ⁂

وكانت البلاد اربعة اقسام اداريَّة تسمى ايالات الاولى ايالة حلب والثانية ايالة دمشق كانت تتناول اواسط البلاد مما يلي الشرق والثالثة ايالة صيدا او بيروت وكانت تتناول اواسط البلاد مما يلي الغرب · والرابعة ايالة القدس الشريف · وكان لكل ايالة والٍ مستقل

يخابر الباب العالي رأساً في امور ايالتهِ الاَّ ان الايالات الاربع كانت خاضعة لسلطة واحدة عسكريَّة يقيم رئيسها في دمشق الشام ويسمونهُ مشير العرضي الهمايوني الخامس وعلى هذا المشير ادارة الشؤُون العسكريَّة في سوريا كلها (ولم يزل هذا النظام الى اليوم) وعليهِ ان يقدم القوات اللازمة عند اللزوم لكل والٍ طلب منهُ ذلك لاجل تقرير الامن في البلاد وحفظ نظامها

وكان رجال العسكريَّة في ذلك الوقت (الاَّ القليل منهم) من ضباط كبار وانفار صغار خليطاً من ولايات الدولة في اوربا واسيا الصغرى وكان العرب بينهم قليلاً لان نظام العسكريَّة لم يكن نافذاً فيهم

﴿ المتسلميَّات ﴾

وقسمت كل ايالة اقساماً كل قسم منها عبارة عن مدينة ونواحيها وسميت هذه الاقسام متسلميَّات . وكان لكل قسم حاكم يسمونهُ متسلماً يعينهُ الباب العالي رأساً او والي الايالة ومرجع اموره في متسلميتهِ الى والي الايالة التابع لها . وكان لعظماء الاهالي نفوذ كبير لدى المتسلمين حتى انهم كانوا يعارضونهم في كثير من الامور ويساعدونهم على اجراء ما لهم رغبة او غايات خصوصيَّة فيهِ واما المتسلمون فكانوا يسعون وراء منفعة انفسهم اولاً لا يهمهم خربت البلاد او عمرت ولم يكن لهم قانون يجرون عليهِ ويؤاخذون على مخالفتهِ ولكنهم ساروا بحسب الاهواء والاميال وكثيراً ما سعوا في تفريق الرعية حتى يساعدهم الانقسام على نوال ما يبتغون

﴿ حكام الجبال ﴾

اما الجبال وبعض اقسام البلاد فكان يحكمها بعض الامراء والبكوات والمشايخ تولوا شؤونها منذ زمن طويل وكانت لهم اقطاعاً يحكمونها على ما يرون ويرجعون في الاحكام الى الايالة التابعين لها . واشتهر عن هؤلاء الحكام الاستبداد والجور وكثيراً ما كانت تقوم الحروب بينهم ولطالما هبَّ بعضهم الى الثورة وجرد سيفهُ لمحاربة جنود الدولة . وكان بعض حكام الايالات يستعينون بهم على ايالة أخرى او على مشايخ اياالتهم ولهذا ساد الاضطراب والانقسام الدائم وكانت امنيَّة القوافل والمسافرين في الطرقات مسلوبة الاَّ اذا ادوا ضريبة لكل حاكم يمرون في بلادهِ وللعرب سكان البوادي ضرائب على البلاد يسمونها خاوات اذا تأخر الاهالي عن دفعها حمل عليهم البدو ونهبوهم ونكلوا بهم وتعذر سلوك الطرق على المسافرين حتى انهم كانوا يتألفون جماعات مسلحة اذا راموا السفر الى احدى المدن او الى جهة من جهات البلاد ليمكن لهم دفع النوازل ورد المهاجمين والمعتدين وان يكن العدد الوافر منهم لم ينجُ من الجور والاعتداء . وكان المسافر في تلك الازمنة كمن يقتحم خطراً عظيماً لانهُ فضلاً عن اخطار الطرق كان اوباش المدن شرًّا عظيماً على أولئك الغرباء الذين يأتونها من المقاطعات وخصوصاً من المسيحيين الذين كانوا يصادفون انواع الاعتداء والخسف اينما ساروا وكان اهالي لبنان مع ما هم عليهِ من شدة البأس

في تلك الايام يحسبون الذي يسافر منهم الى احدى المدن نابغة في الجسارة والاقدام

الاموال الاميريّة

ولم تكن الحكومة في تلك الايام تسأل حكام المقاطعات في اغلب الاحيان الأ اداء الاموال الاميريّة المضروبة على بلادهم فكانوا يجمعونها من بلادهم اضعافًا بحسب ما يبدو لهم فيظلمون او يرحمون على ما يريدون ويبتغون والناس يحتملون ذلك ولا يجسرون على الشكوى او ابداء المعارضة لحاكمهم في بيان تظلمهم فاذا اقدم واحد على ذنب التظلم للحاكم او لالهِ وعرف بهِ الحاكم جوزي واهلهُ بالدمار وقلع الآثار . وكان اذا حارب احد هؤلاء الحكام حاكمًا آخر او عصى الحكومة او انتصر لحليف لهُ يلتزم رجال الاهالي عند سماع نداء الحرب ان يتجندوا تحت راية حاكمهم على نفقة انفسهم ولا يمكن لاحدهم ان يتقاعد عن ذلك والأ فيصير عرضةً لكل ويلٍ وبلاء . وكثيرًا ما ساق العسف بعض هؤلاء الحكام الى مجاوزة حدود الادب والشهامة بالاعتداء على اعراض الرعيّة وهتكها

حالة المدن

ولم تكن حالة المدن افضل من حالة الارياف ولكنها كانت اكثر تعاسة واشدَّ شقاء ولا سيما في اوائل هذا القرن حيث بلغ الاختلال

حدهُ في البلاد وحل الويل فيها وعمّ البلاء وزاد الشقاء اذ صارت هذه المدن مرسحاً للاعتداء والجور وميداناً للخصومات والثورات المتواصلة وكثرت العصابات لا رداع لها ولا وازع وجعلت شأنها تنفيذ مآربها بالقوة لا بالحق غير ناظرة الى ما سوى النفع الخاص ولا عاملة بغير القسوة الهائلة والجهل الكثير

﴿ قسّم تملك ﴾

واما سبب هذا الاختلال فهو السياسة السيئة التي اتبعها الولاة لغايةٍ في النفس يقصدون منها بلوغ مآربهم ونيل مقصدهم · هؤلاء جعلوا شعارهم المثل القائل « قسم تملك » فكانوا يسيرون على هذه الخطة الدنيئة ويسعون في تقوية فئةٍ على أُخرى من الناس فينالون مآربهم من الطرفين · وقد بلغوا مرادهم في بادىء الامر الّا ان سياستهم اضرت بهم في آخر الايام فصارت البلاد الى الهمجية والاختلال وفقدت اسباب الراحة وباتت دائرة نفوذ الولاة ضيقة حتى انحصرت في بعض الضعفاء وآل الذمة

ثم ان تقسيم الاهالي على انفسهم اوجب على كل قسم ان يكون ذا قوة يستند عليها للثبات امام خصمهِ او للتغلب عليهِ فلهذا ولما يوجبهُ الانقسام من تباين الغاية والمطامع سيما بين اهالي الوطن الواحد صار للقوة المقام الاول فتشدد اصحابها وتمادوا في القحة حتى صاروا ضربة على الاهالي وعلى انفسهم ايضاً · وقد اوجبت سياسة الضعف هذا الاختلال العظيم في وجاقات الجند فصاروا الى العداء والتنافر وعدم الطاعة لولاة

الامور (الاَّ اذا كان لهم غرض في الطاعة) ومن ثم جاروا بالرعيَّة وزادوا الاحوال تعاسة وشرًّا ففقد كل نظام و باتت البلاد في حالة الفوضى بلا ادارة تجعل الناس في مأمنٍ على انفسهم واعراضهم واموالهم وانحصرت السطوة والنفوذ في اصحاب الغايات والجهال الذين لايعرفون الاَّ الغلظة والتوحش ويفتخرون بالشر واقتراف الكبائر . وقد كان في البلاد قوم من آل العلم والوجاهة غير راضين عن تلك الحالة المختلة وعارفين مخالفتها للشرائع باسرها الاَّ انهُ لعدم الحظ لم يكن لهم من الوسائط والقوة ما يردُّ هذا التيار المندفع الذي كان ينشأُ عنهُ كل يوم ويل جديد ومخاوف عديدة توجب القلق والاضطراب . وهذه الاحوال المختلة جعلت الناس عرضة للاخطار المستمرة لا سيما الذين كان التجار يطمعون بمالهم فاضطروا الى تجنيد قوة خصوصيَّة تصونهم وعمد اصحاب المنازل والمقامات الى انفاق المال على رجال من الاشداء كانوا يذودون عنهم ويصونون حرمتهم

※ امور الولاة ※

اما الحكومة فكانت بيد والي الايالة وكتخدائيهِ او كاتم سره وكان هؤلاء على استبداد في الامور التي يقدرون على اجرائها وكثيرًا ما كان الوالي يصادر الناس في اموالهم وخصوصًا آل الذمة ويأمر بقتل عمرو وزيد ويغدر ببكر وعبيد وتنفذ احكامهُ بدون ذنب يرجع الحاكم اليهِ ولا شرع يعول عليهِ . وتحكى حكايات كثيرة تدل على هذا الجور منها ان احد الولاة كان مارًّا في احد اسواق

دمشق وكانت الاسواق في ذلك العهد ضيقة فمرَّ رجل ومعهُ دابة محملة عنبًا فمست الدابة الوالي فامر بقطع رأس الرجل فقطع في الحال . وامثال هذه الحكاية اكثر من ان تعد

﴿ ديوان الايالة ﴾

وكان في مركز كل ايالة ديوان يؤلف من بعض علماء المسلمين والوجهاء يرئسهُ الوالي من شأنهِ النظر في امر الاموال الاميريَّة ومال الجزية وغير ذلك . ولم يكن لهذا المجلس نظام او اوقات للاجتماع ولكنهُ كان يجتمع عندما يريد الوالي او اذا حدث ما يوجب انعقادهُ

وكان الحكم في فصل المشاكل الجنائية التي تقع بين بعض الناس وتصل للحكام منوطًا في اغلب الاحيان بالقضا باشي ومركزهُ في باب سراي الوالي ثم بالتفكجي باشية وهم رؤساء القرهقولات في المدن وكان هؤلاء القوم أميين جهالاً يحكمون بحسب اهوائهم وافكارهم ونقودهم الرشوة ولم يكن لهم قانون يعرف او نظام يوصف

واما الاحكام الحقوقيَّة وما شاكلها فالذي كان يسلم من تداخل الوالي واحكامهِ كان يحال على الاحكام الشرعيَّة . واما مسائل الاحوال الشخصيَّة فكانت منوطة بكل طائفة تحكم بها بحسب قواعد دينها

﴿ اسباب القلاقل ﴾

واما الثورات التي كانت تحدث والاعتداءات التي كانت تقع على الذميين وآل السكينة من المسلمين فكان اكثرها من الجند ذلك لان القوة الجندية بالاجمال كانت مؤلفة من رجال جهلاء تمادوا في القحة

والفجور اذ لم يردعهم نظام ولم تردعم قوة . وكان الجنود ثلاثة اقسام رئيسية منها اثنان وطنيان وهما الانكشاريَّة والقبيقول وقسم دخيل وهو جنود مأجورون كان يحضرهم الولاة معهم لحرس خصوصي لهم و يؤَّلف هذا القسم من طوائف واجناس مختلفة كالارناؤُود والمغاربة والموصلة والتكارنة والترك والدلاة وغير ذلك وكان العداء بين الاقسام الثلاثة قائمًا على قدم وساق وقد نشأ عنهُ حروب كثيرة بين هذه الاقسام المتضاغنة فتسبب عن ذلك مخاوف كثيرة ولحق بالاهالي اضرار عظيمة حيث كانت تنهب الدكاكين وتقفل الاسواق وتعطل الاشغال و يتعذر على ابناء السبيل الخروج من بيوتهم . وكم من مرة اضحت بعض المدن وخصوصاً الشام وحلب مطعمًا للنار من جراء ذلك ولم ينصرف المشكل الاَّ بمداخلة الولاة او بعض الاعيان ولكن ليعود الشر بعد وقت قصير عند ما يحدث لهُ موجب صغير وما ذلك الاَّ لعدم مقاصة المجرم وقلع جرثومة العداء ولطالما نهض القوم على الولاة انفسهم وقتلوهم وعساكرهم كما جرى في دمشق سنة ١٨٣١ لسليم باشا حيث قتل هو ومعظم عساكرهِ لاجل ضريبة جزئية فرضها على الدكاكين والمخازن والبساتين. وقد كان الاعتداء على العرض والقتل مما يحدث في كل يوم

ولاجل تكرار هذه الاحوال الشنيعة كنت ترى شوارع المدن وحاراتها كثيرة الابواب العظيمة تقفل آن الثورات وقاية لمن ورائها من السكان او لاجل ان يقيم الثائرون وراؤُها متاريسهم لصد اعدائهم . اما خانات التجارة فلم يكن الثائرون يدخلونها وقيل ان ذلك

احتراماً لها الاَّ ان هذا قول ضعيف والمرجح ان لم يكن احترامها وعدم الاعتداء عليها الاَّ لكونها قويَّة ولانها كانت ذات ابواب حديديَّة متينة جدًّا ولانهُ كان يحرسها قوة كافية من الحراس لرد المهاجمين عنها ولان اكثر التجار كان لهم اعتبار عند رؤساء الجند لكثرة ما يقدمونهُ لهم من الهدايا والهبات

﴿ الوجاقات ﴾

وكان كل قسم من العسكر يسمى وجاقاً الاَّ ان اكبر هذه الوجاقات واكثرها رجالاً وقوة ونفوذاً كان وجاق الانكشاريَّة ثم وجاق القبيقول وكانت اكثر مدن الشام تقسم عسكريًّا قسمين قسم انكشاري وقسم قبيقولي ورؤساء هذه الوجاقات يسمون اغاوات . وكان رجال كل قسم يتشمون على يديهم بشارة وجاقهم واكثر اجتماعهم في القهاوي وجرت العادة ان يرسم فوق وجاق كل قهوة اشارة الوجاق الذي يجتمع رجالهُ فيها ولم يكن لهم نظام عسكري في ذلك الوقت الاَّ ان رجال كل حارة كانوا يخضعون لآغا الوجاق الحالّ فيها والجميع يخضعون لكبير الوجاق المنتخب من بين الاغوات لامتيازهِ بالجسارة وصداقة الوالي او لغير هذا ولم يكن لحدَث او امرأة شابة جميلة المرور امام القهاوي التي يجتمع فيها العساكر خيفة ان يضحوا فريسة اولئك الجهال

ولما كان نفوذ هذين الوجاقين بالغاً حدًّا عظيماً ويدها على الاهالي ثقيلة كثر المنتمون لها من الرجال والمنضمون اليهما اما لغاية سلوك

مسلكها او بغية الصيانة من الاعتداء من آل الوجاق نفسهِ او للاستعانة بهِ على الغير عند الحاجة وقد انضم اليها وخصوصاً الى الانكشارية كثيرون من اصحاب الوجاهة و بعضٌ من الذميين للغاية المذكورة . ولما كثر عدد رجال هذين الوجاقين صار معظمهم ينفقون على انفسهم من جيوبهم فلذلك اضطروا الى العمل مثل سائر الناس فكان يذهب الرجل منهم الى عملهِ متقلداً سلاحهُ ليسهل عليهِ الانضمام الى رجال وجاقهِ عند اللزوم . او يفعل ذلك للدفاع عن نفسهِ اذا عرض لهُ عارض في طريقهِ . اما العطل من هؤلاء الرجال فكان شأنهم الجلوس في القهاوي ومعاقرة الخمرة ومصادرة الناس والاعتداء على اولادهم وحريمهم بحسب ما كانت تصورهُ لهم بنت الحان في رؤوسهم او ما تطلبهُ شهواتهم القبيحة وكثيراً ما كانوا يطلقون بنادقهم او يعملون سيوفهم بمارٍّ على غير سببٍ ولا يسألون عما فعلوا . ومع ذلك فكان يوجد فيهم عدد عديد من آل الشهامة والمروءة يدافعون عن الاعراض و ينتصرون للضعيف و يحفظون الذمام و يجيرون المستجير

﴿ فئة المعترين ﴾

ثم ان عدم وجود حاكم قادر ينصف المظلوم من ظالمهِ و يقتص من المعتدين ويضمن للرعيَّة الصيانة اوجب ظهور القوة الافرادية فلذلك كثر في تلك الايام الرجال الجبابرة الاشداء من المسلمين والذميين غير المنتمين لحزب عسكري والمتكلين على قوتهم ونشاطهم .

وكان لهؤلاء الرجال الذين يسمونهم معترين اعتبارًا واحترامًا عند آل الوجاقات وبقية الناس . ومما يحسن ذكرهُ ان هؤلاء المعترين كانوا اصحاب شهامة ومروءة عظيمتين يحكى عنهم حكايات كثيرة صادقة نورد شيئًا منها على سبيل الفكاهة. يحكى ان رجلاً من الوجهاء بين المسيحيين مرت امرأتهُ وهي خارجة من الحمام باحدى الحواري فصدف ان احد رجال الانكشارية مرَّ من هنالك فراقت في عينيهِ وتأثرها حتى عرف بيتها ورجع فتربص لزوجها حتى رجع من اشغالهِ فقال لهُ استعد ايها الرجل لعشاء ومسكر وقل لامرأتك ان تحضر لاني سآتي بعد ساعة لعندكم ففهم الرجل مقصد الانكشاري وما صمم عليهِ من هتك عرضهِ فكبر عليهِ الامر وكان لهُ صاحب مسلم من المعترين فذهب اليهِ وقص عليهِ خبرهُ فقال لهُ اذهب لبيتك ولا تخف واعد للرجل العشاء والشراب وانا ساتبعك فذهب الرجل الى بيتهِ حزينًا ليعمل ما طُلب منهُ صاغرًا وبعد القليل حضر الانكشاري فاقتبلهُ بوجهٍ باشٍ فاخذ هذا بمعاقرة الخمرة وطلب المرأة لتسقيهُ فلم يسعها الأ الحضور وهي مرتجفة وجلة . ثم حضر المعتر بسلاحهِ واختفى في البيت وقال لصاحبهِ انهُ عند ما يتعشى الرجل ويبلغ بهِ المسكر حدهُ اخبرني ففعل صاحب البيت فنهض المعتر من كمينهِ وهجم على الانكشاري قائلاً اتعلم ان هذا بيت صاحبي وتعتدي عليهِ ثم ضربهُ بسيفهِ وقطع رأسهُ اما الرجل وامرأتهُ فخشيا عاقبة الامر واتفقا على مبارحة المدينة فرحلا عنها ولم يرجعا اليها . وامثال هذه القصة كثيرة لا محل لايرادها الآن

﴿ التعصب الديني ﴾

وكان التعصب الديني آخذاً مركزاً عظيماً عند الناس في ذلك الحين كما ذكرنا حتى تجاوز القوم شرائط الدين وعدوا كل من كان خارجاً عن مذهبهم كافراً يجوز الاعتداء عليهِ لا اثم في اذلالهِ ناسين بان كل دين لا يجيز الاَّ رعاية الذمي والذود عنهُ والمحافظة على حقوقهِ ومعاملتهِ بالحسنى وكان العدد الكبير من العلماء الاعلام وآل التعقل يعلمون ذلك ولم يمكن لهم ردع المعتدين في زمن عمت فيهِ الفوضى وصار الحكم للهمجيَّة . وقد اوجب هذا التعصب على آل الذمة الانضمام في السكنى ليقدروا على ممارسة دينهم وتخف وطأَة الغير عنهم فيخف ويلهم نوعاً ولم تزل كل طائفة في اكثر مدن سوريا تسكن في حيٍّ خاص بها دون سواها

﴿ حالة النصارى ﴾

وكان النصارى عرضة للاهانة والذل اكثر من كل اهل الطوائف الاخرى يسيء معاملتهم كل واحدٍ ما خلا اهل العلم والعقلاء ممن كانوا يذودون عنهم ويحمونهم واذ لم يكن لهم تخرج من ذلك الفوهُ كما الف مذلوهم اذلالهم . فكان النصراني حيثما توجه ينعت بالكفر ويشتم صليبهُ ويهان ويحتقر وتقلب عمتهُ ويصفع الى غير ذلك وان سار في محلة المسلمين تبعهُ الصبيان قائلين لهُ « نصراني كلب عواني . دقوله بالصرامي . قالت امهُ فينه . ضربه تقلع عينه » وامثال هذه من القبائح فكان يحتمل كل ذلك صابراً على بلواهُ لا يفوه ببنت شفة ولا يقدر

على غير الاستجارة بتعقل مسلم اذا صدفهُ فيحاول هذا ابعاد الصبيان عنهُ فان اطاعوهُ كان بهِ او لا فيضطر ان يتركهُ وشأنهُ آسفاً من هذا العداء . وكان المسلم اذا مرَّ بمسيحيٍّ يقول لهُ اشمل اي سر عن اليسار فيلبي هذا الامر صاغرًا واذا كثر المارّة ما بين ذاهبٍ وآيبٍ كثر شقاؤُهُ ولم يعلم المسيحي كيف يسير فيدعى حينئذٍ الى الطورقة فيطورق اي يسير في الطاروق (الطاروق منخفض في وسط السكة يبلغ اقل من شبر انخفاضاً وعرضهُ من ذراع ونصف الى ذراعين وعلى جانبيهِ رصيفان للمارة و يسير في الطاروق البهائم محملة وغير محملة وفي الشتاء تجتمع فيهِ مياه الامطار وفي الصيف الاقذار) وهناك يصادف العناء الاكبر من البهائم واصحابها هذا الحيوان يدفعهُ وذاك يزحمهُ والسائق يوكزهُ والآخر يلكمهُ فلا يجد لهُ مخرجاً من هذا الشقاء الاَّ بوصولهِ لمحلهِ او بخلو الرصيف من المارة فيصعد اليهِ . وكثيرًا ما كان اصحاب الدكاكين في الاسواق يسخرونهُ لقضاء ما يلزمهم من الاشغال او يستعملون اهانتهُ واسطة لاذهاب مللهم وتفريج كربهم فكان احد اصحاب الدكاكين يناديهِ تعال يا معلم فيأتي فيقول لهُ تقدم فيفعل فيصفعهُ و يكلفهُ ان يذهب و يحضر لهُ حاجةً او ان يلبسهُ مركوبهُ او يرفعهُ لهُ من امام دكانهِ او ان يساعدهُ في ترتيب دكانهِ وغير ذلك وان كان يريد المزاح معهُ فاما ان يهمس في اذنهِ شاتماً اباهُ او يقول لهُ امرًا آخر او انهُ يتناول عمتهُ عن رأسهِ و يصفعهُ و يرمي العمة الى جارهِ ويقول لهُ اذهب وخذها منهُ فيذهب ليأخذها فيصادف من الثاني ما صادف من الاول الى ان

يقدر الله لهُ وجود واحد يشتغل في بيعهِ وشرائهِ فيسلمهُ العمة او يكون من اهل الصلاح والانسانيَّة فيدفعها اليهِ و يصرفهُ لعلمهِ بان معاملة الذمي هذه لا تجوز (وقد كان كثيرون من الاسلام ينكرون على اخوانهم هذه الافعال الغير الجائزة) وكان المضطهد المسكين يظهر البشاشة والرضا و يسلم ذاتهُ للعذاب والويل . وكثيرًا ما كان يأتي ولدٌ او شابٌ من وراء النصراني و يقلب لهُ عمتهُ و ياتي آخر فيدحرجها ثم آخر فيبعدها وكلما قصد صاحبها ان يتناولها يصفع و يرفس وكانت العمة كبيرة مستديرة محكمة الربط قويَّة الشد لحفظ ما يضعونهُ ضمنها من الاوراق التي يضطر الى وضع ورقة خراجهِ فيها ليبرزها حالاً عند الاقتضاء ولم يكن يمكن للمسيحي تركها لان اوراقهُ داخلها ومنها ورقة خراجهِ التي اذا سار بدونها عرض نفسهُ للخطر والاهانة الكبرى

✻ السخرة ✻

وكان القانون يحتم على الذمي ان يحمل على كتفهِ حيثما توجه كيسًا يسمونهُ كيس الحاجة لا يخرج من بيتهِ بدونهِ والغاية من هذا الكيس ان يضع فيهِ ما يسخرهُ المسلمون بحملهِ من خضار او غير ذلك. وصدف كثيرًا ان الرجل النصراني كان يستمر مسخرًا يومهُ بطولهِ مع انهُ من اصحاب العائلات يعيش بسعيهِ اليومي فتضطرهُ السخرة الى المبيت وعيالهُ بلا طعام او يستمد مساعدة جيرانهِ . ولما كان القوم لا ينفرون من النصراني نفورهم من اليهودي كان نصيب النصراني من التسخير اكثر وويلهُ اشد. ولكثرة تكرار هذه الامور التي لا تطاق

صار الناس يحسبونها بسيطةً وكانوا عند ما يجتمعون في سهراتهم يسألون بعضهم بعضاً من نوع التباسط ان كم مرة شتمت وصفعت وكم حمل حملت فيقول هذا كذا وذاك كذلك ومن دلائل اعتيادهم الذل وحسبانهم بانهم خلقوا لهُ وان كانوا يشعرون بثقلهِ هذه الحكاية وهي انهُ كان في اوائل هذا العصر شاب نصراني في دمشق من بيت كبير محسوباً من الظرفاء ومحبي البسط واصحاب الصوت الجميل فخطر لهُ ان يحيي ليلة طرب مع بعض خلانهِ فدعاهم الى سردابٍ تحت الارض ليقضوا ليلتهم فيهِ ولا يسمع صوتهم خارج الدار (لانهُ كان يحظر على النصارى الغناء الاَّ باذن خصوصي من الوالي والحاشية والاغاوات وشيخ الحارة) فقضوا معظم ليلهم في سرور وقد نسوا ما صادفوهُ في ذلك النهار وحسبوهُ كانهُ لم يكن . ولما لاح الفجر ذهبوا الى حمام فاستحموا وخرجوا قاصدين احد المطاعم وكان ذلك اليوم يوم حضور الحج من الحجاز فمرَّ بهم ولد من المسلمين وهم ياكلون وقلب عمة الشاب الذي ذكرناهُ فنزلت في المقلاة فاخذ صاحب الدكان من النار عوداً مشتعلاً و بدا يضرب النصارى بهِ ويشتمهم و يقول لهم عطلتم نهاري يا كفار فاجتمع الناس على صياحهِ فمنهم من شاركهُ بالشتم ومنهم من ساعدهُ بالضرب الى ان مرَّ شيخ فصرف الجمع وقال لصاحب الدكان اتصرف يومك يا رجل وهو موسم بهؤلاء الجماعة فاحبسهم بدكانك وبعد انتهاء الفرجة تقاضاهم اضرارك ففعل الرجل ذلك وسرَّ اصحابنا بهذا الرأي وعند انتهاء الفرجة اعاد المسلم الكرة على سجنائهِ وغرم كلاً منهم جملة مالٍ وصرفهم باسوإ حال

﴿ اموال الذميين ﴾

اما اموال الذميين فكانت مطمعاً للحكام وغيرهم فمن جهة كانت الحكومة تنتزفها بزيادة مال الخراج الزيادة الفاحشة وبطلب القروض وما اشبه ذلك ومن جهة ثانية بالمصادرات وانتحال الاسباب فكان الحاكم اذا سمع بذي غني عمل على سلب مالهِ فيستدعيهِ ويطلب منهُ قدراً كبيراً من المال على سبيل المساعدة ربما فاق ثروتهُ فياخذهُ منهُ فوراً او اقساطاً او يزجهُ في السجن ويتظاهر بانهُ يريد قتلهُ مدعياً بانهُ خالف الحكومة ومن خالف الحكومة حسب عاصياً ومشاقاً وحل دمهُ ومالهُ وعرضهُ فيسمع اهلهُ وذويهِ فيأتون بفدائهِ بما تصل اليهِ ايديهم من الوسائط والمال ولذلك صار شأن الغني من النصارى التظاهر بالفقر والمسكنة فكان لا يلبس الأَ ابسط الاردية واذا عمل ثوباً جديداً وضع عليهِ رقعاً كثيرة ليظهر الفقر الأَ ان ذلك ظهر للحكام فصاروا يرسلون الجواسيس من قبلهم لمعرفة اصحاب اليسار وصار هؤلاء الجواسيس شراً عظيماً على الناس فاق شر الحكام اذ كان الحكام لا يصادرون الأَ اصحاب الثروة اما هؤلاء فلاجل نفعهم الذاتي وطمعهم بالارتشاء صاروا يتعرضون للجميع موسرين وغير موسرين ولا يتركون المرء الأَ بتغريمهِ ما يصل اليهِ جهدهم هذا غير وشاياتهم وتعمدهم كل واحد بالاذى لدى الحكام. وكان للحكام وسائل كثيرة غير التي ذكرت لانتزاف مال الذمي منها ادعاء احد الجند عليهِ بارتكاب ذنب فيؤتى بهِ ويغرَّم وان عجز عن اداء الغرامة

اضطرت البطركخانة الى الدفع عنهُ والأَ حل بهِ النكال او سيق الى الشنق ما لم يسعدهُ الحظ بشفاعة احد آل الوجاهة من المسلمين . حكي انهُ قبل احتلال ابرهيم باشا دمشق ببضعة اعوام كان الخفراء ليلاً في حارة النصارى فمروا بثلاثة شبان بيدهم المصابيح يودعون جيرانًا لهم رجالاً ونساء واولادًا كانوا عندهم فتقدم احد الخفراء وقبض على الشبان المذكورين قبضًا شنيعًا فاتى والدهم وتداخل بالامر ودفع للرجل مبلغًا ليطلق سراح اولادهِ وابان لهُ واقعة الحال فاخذ الخفير المبلغ بعد ان تظاهر بالرضا في الافراج عنهم ثم ساقهم ليلاً الى دار الوالي فزجوا في السجن حتى الصباح ولما علم الوالي انهم من الموسرين ساقهم الى سجن القلعة (وكان من العادة ان الذي يسجن في القلعة تنتهي حياتهُ بالخنق) فعلم اهلهم بذلك واخذوا يسعون حالاً في خلاصهم وتوسطت البطركخانة وبعض اصحاب النفوذ من المسلمين فلم يفرج عنهم الأَ بعد التعب الشديد ودفع مبلغ باهظ من المال . والحكايات التي تحكى كهذه لا تعد ولا تعدد لو شئنا سرد بعض الشيء منها لملأْنا المجلدات الضخمة ولكنا نكتفي بهذا القليل لضيق المقام ورغبتنا في التقدم الى ذكر حوادث الحروب الهامة والمذابح الهائلة

﴿ الضرائب الاخرى ﴾

وفضلاً عن ضرائب الحكام كان على النصراني ضرائب اخرى للاهالي من الوجوه والمعارف من المسلمين والمتكيس بكيسهم من اغاوات الانكشارية وغيرهم وكان يقدم هذه الضرائب في اوقات معينة وغير

معينة كهدايا في الاعياد واستعطاف الخاطر و يقوم بذلك عن طيب نفس ليأمن على عرضهِ وحياتهِ ومالهِ ويكون لهُ نصير عند الملمات هذا فضلاً عما كان يغرمهُ صغار الانكشاريَّة وغيرهم من طوائف الجند من المغارم النقديَّة وما كان يصادفهُ من هذه الفئات من الاعتداء العظيم والمخاوف الدائمة فان هؤلاء القوم كانوا يطرقون ابواب النصارى ليلاً وهم سكارى آتين باوعية يطلبون املائها عرقًا فان املاها المطروق بابهُ تخلص من شرهم وان لم يكن عندهُ ارضاهم بالدرهم وان لم يكن لا هذا ولا ذاك الحقوا بهِ انواع الاهانة والشر الذي لا يطاق او حرقوا بيتهُ او دخلوهُ وانتهبوا ما بهِ وهتكوا الاعراض وقد جرى ذلك مرارًا عديدة ولم ينتهِ الشر الأ بتوسط احد المسلمين من المعتبرين او اصحاب الوجاهة

﴿ الحياة المرَّة ﴾

وخلاصة الامر ان الحياة كانت مرَّة صعبة على الذين رزئوا بحكم الوحوش الضارية الذين سولت لهم النفس انهُ يجوز لهم تعذيب من لم يتبع رأيهم في الدين وكان اكثر التعدي الذي يصل بآل الذمة من الجند وعمال الحكومة فاذا سلم الواحد من هؤلاء المتوحشين لم يسلم من انذال الاهالي وارذال المسلمين ولطالما اضطرَّ الناس الى ترك دينهم واعتناق الاسلام تخلصًا من كل هذه المصائب وفات القوم ان الاديان لا تقوم بالاكراه وانها تنهى عنهُ وتأمر بالحسنى والمعروف تنكر على الناس الظلم والاستبداد ولكنهُ روح سرى في اهل هاتيك

الايام وهو الذي كان يشتد ويهب آونة بعد أخرى فيبعث النفوس الامارة بالسوء على الحرب وسفك الدماء وتحدث من جراء ذلك الويلات الهائلة التي سوف ناتي على ذكرها

وكان هؤلاء الجهال يحظرون على اهل الذمة العيش بما تقتضيه وسائطهم وسعيهم ويمنعونهم من التردي بالاردية التي يستعملها المسلمون ولا يصرحون لواحدٍ منهم بركوب المطايا غير شخص البطريرك وحدث من جراء ذلك امور تتمزق منها الاكباد و يتفطر لامثالها الفؤاد من ظلم وشتم واهانة وهتك اعراض وسلب مالٍ وشنق اناس ابرياء لا ذنب لهم غير ادعاء بعض الانذال عليهم بتعديهم الحد المفروض لهم . ومن غريب الامر انهم كانوا يعتبرون كل هذا الجور وهذه الامور من آيات الدين والدين بريءٌ منها ولولا ان يقوم في كل عصر رجال عرفوا بالعلم والاستقامة و يعملوا على انقاذ الذميين من هذه المصائب الحمراء لكان العيش لا يطاق ولا يذاق وهو مع ذلك كان لا يمكن للذي في صدرهِ شيءٌ من المروءة فجعل الناس يلجأون الى احد امرين اما الالتجاء الى وجيه او محارب من المسلمين واما الرحيل عن البلدة التي يسكنونها والاقامة في قرى لبنان او سواها حيث لم يكثر التعصب الى هذا الحد

﴿ منشور درويش باشا ﴾

والعجب ان الحكام كانوا يظنون ان ظلم اهل الذمة والتضييق عليهم واجب ويطالبونهم بالمحافظة على القوانين الوحشية التي ذكرنا

بعضها وهذا نص منشور ارسلهُ درويش باشا والي دمشق الى جماعة المسلمين في ١٩ رمضان سنة ١٢٣٦ بهذا الشأن مع ان هذا الباشا يعد من اعدل وارحم الولاة الذين ولوا دمشق في ذلك الزمن . وهذا هو بحروفهِ

« صدر مرسومنا هذا المطاع الى مشايخ واختياريَّة اهالي قرية صيدنايا المسلمين ليجروا بحسبهِ ويعتمدوهُ فالبادي هو ان النصارى عندكم عمال يقلدوا الاسلام في ملابسهم وعمائمهم ونعالهم وتعدوا درجاتهم وخالفوها فهذا ضد رضانا ولا يعطى بهِ رخصة فبناءً على ذلك ارسلنا لكم مرسومنا هذا لاجل ان تحذروهم وتنذروهم من عواقب ذلك المراد حالاً وتنبهوا عليهم الأ يلبسوا ملبوس ازرق وعمامة سوداء ونعال سود ولا تدعوهم يقلدوا الاسلام بادنى شيءٍ لا نساءً ولا رجالاً وان بلغنا ان واحد تعدى الحدود المذكورة فما لهُ لا يغني عن حالهِ وخطيتهُ في عنقهِ ونطلع من حقكم وحقهِ فبناءً على ذلك ارسلنا لكم مرسومنا هذا من ديوان الشام على يد رافعهِ فخر اقرانهِ جندي باشي ارقداشي محمد اغا فبوصولهِ تعملوا بموجبهِ وتحاشوا مخالفتهُ اعلموهُ واعتمدوهُ والحذر من الخلاف في ١٩ رمضان سنة ١٢٣٦ » الختم

محمد درويش

ولهذا كان النصارى في حالة مكربة من الفقر ولم يمكن لهم معاطاة الاشغال التجاريَّة او الفلاحة وكان جل معاشهم من الصناعة وبعضهم يدير انوال نسج في المدن الصناعية كدمشق وحلب وحمص بمشاركة المسلمين وتحت حمايتهم . ورخص الاسعار في تلك الايام ساعدهم

على القيام باودهم وتحمل تلك المغارم الثقيلة التي كانت تعرض لهم كل يوم تقريباً. اما حالتهم من حيث المعارف فكانت متأخرة جداً لانهم كانوا اميين جهلاء لا يعرفون القراءة البسيطة والذي يحسن القراءة بينهم يحسب عالمًا كبيراً وكان لبعضهم معرفة بالطب اخذوهُ بالارث وتعلموهُ بالمزاولة والاختبار حتى نبغ بعضهم فيهِ

ايام ابرهيم باشا

وظلَّ الحال على هذا المنوال والناس يظلمون وليس من منصف ويقتلون وليس من مشفق حتى صارت البلاد على شفا الخراب التام وكثرت فيها الثورات والقلاقل وكان عدد الذين يقتلون بلا ذنب ولا اثم كل يوم يعد بالمئات والحكومة تشجع الاوباش والاوغاد على هذه الامور او لا تقوى على ردهم عنها حتى منَّ الله بالفرج على البلاد الشامية بدخول ابرهيم باشا ابن محمد علي باشا والي مصر اليها فما لبث ان وصل حتى أمن الناس في الحال على ارواحهم واموالهم وعدل في قضاياهم ونظم امورهم وسهل طرق المعيشة والراحة عليهم وكان ذلك في اواسط عام ١٨٣١ ويعد حكم ابرهيم باشا في الشام بدء عصر التنوير والاصلاح فقد كان الذمي قبل ايامهِ لا يعد نفسهُ من الادميين فلما انتشرت راية العدل وعم الامن وتساوى الناس امام الحاكم وظهرت القوة التي كانت كامنة في الصدور خطا النصارى الخطوات الواسعة في ميدان الحضارة ونشطوا الى القيام بالاعمال الكبيرة ولم يزل اهل الشام يتحدثون بابرهيم باشا وايامهِ الى هذا الحين . وسنعود الى ذكر ايامهِ وحكمهِ

﴿ نطق شريف ﴾

الأَ ان ابرهيم باشا القائد الباسل والحاكم العادل لم يظل مدة طويلة في بلاد الشام لان دولة الاتراك استعانت عليهِ بدولة الانكليز فاخرجتاهُ من الشام وما يليها واضطرتاهُ الى الرجوع الى مصر فعاد عنها وعادت الاحكام الى العثمانيين الأَ انهم كانوا قد هبوا من رقادهم واشترطت انكلترا عليهم ان يصلحوا اداراتهم و يعدلوا في احكامهم وكلفت وكيلها السياسي في دمشق (الجنرال وود) بمراقبة اعمالهم والسيطرة على عمالهم . ولما انتهت الدولة التركيَّة من حرب القرم وعقدت محالفة باريز الشهيرة سنة ١٨٥٦ واهم بنودها اصلاح حال المسيحيين في البلاد العثمانيَّة نشر السلطان عبد المجيد نطقهُ المشهور الذي رفع عن عاتق الذميين ظلم الايام القديمة وقد رأينا ان ننقل هذا النطق الشريف بحروفهِ هنا لاهميتهِ الكبرى وفائدتهِ التاريخيَّة وهذه صورتهُ

لا يخفى انهُ منذ ابتداء ظهور دولتنا العلية كانت الاحكام القرآنية الجليلة والقوانين الشرعية المنيفة في غاية المراعاة الكاملة ولذلك كانت قوَّة سلطنتنا السنية وثبوتها مع راحة جميع الرعايا ورفاهيتهم وعمار البلاد في غاية ما يكون من الكمال . ولكن منذ مائة وخمسين سنة لم يعد انقياد كما يجب ولا امتثال لا للشرع الشريف ولا للقوانين المنيفة لسبب ما طرأ عليها من الحوادث الكثيرة . ولهذا قد تحولت تلك القوَّة الى ضعف والراحة الى التعب والعمار الى الدثار . وايَّة مملكة لا تقوم بحفظ القوانين الشرعية تأول الى الاضمحلال . ومنذ جلوس سلطنتنا على تخت الخلافة اتجهت افكارنا الخيرية خاصة الى عمار البلاد وراحة العباد . فنظرًا الى مواقع ممالك دولتنا العلية واراضيها المخصبة وقابلية اهلها واستعدادهم اذا اخذ في

عمل الوسائط اللازمة يشاهد سرعة حصول المقصود بتوفيق الله تعالى في برهة خمس أو عشر سنين

فاعتمادًا على عون الله تعالى واستمدادًا بروحانية نبينا (صلعم) قد شوهد من الامور المهمة اللازمة وضع قوانين جديدة لحسن ادارة دولتنا العلية وممالكنا المحروسة • ونتيجة خلاصة هذه القوانين هي عبارة عن امنية الحياة وصيانة العرض وحفظ شرف الانسان وامواله وتعيين مال الويركو وطريقة اخذ العساكر ومدة استخدامهم • فلا يوجد في الدنيا شيء افضل من الحياة والعرض والشرف

فالانسان اذا نظر لهذه الامور وكانت على خلاف رضاهُ ييئس من الحياة ويبادر الى حفظ حياته وشرفه باعمال يؤذي بها الدولة والبلاد

وبخلاف هذا اذا كان مطمئنًا على حياته وعرضه وشرفه لا يحيد عن طريق الاستقامة ويكون مجتهدًا في حسن الخدمة للدولة والملة

واذا كان الانسان غير مطمئن على ماله فيتأخر عن الاهتمام في كل ما يأول لنجاح الدولة وعمار البلاد بخلاف ما اذا كان مطمئنًا عليه فيكون مهتمًا في اعماله ومجتهدًا في توسيعها وتتضاعف عندهُ الغيرة للدولة والملة وحب الوطن ويبذل نفسهُ دونها • فهذا الامر يجعلهُ ان يكون مستعدًا لكل فعلٍ حميد • واما ترتيب مال الويركو (اي المطالب الاميرية) فهو من اهم الامور لكون الدولة يقتضي لها نفقات كثيرة لتجهيز العساكر • وللدول ان تأخذ النفقات من الاهالي لصيانة المملكة

وقد امرنا برفع الحجز عن بيع كل صنفٍ من البضائع والمحصولات بيد شخص واحد الامر الذي كان الاقدمون يعتقدون انهُ اصل كل سعادة • وتفرض الاموال الاميرية على كل انسان بحسب قدرته بالمال والاملاك • وان لا يطلب منهُ شيء خلافهُ

ومن الامور المهمة ايضًا وضع قوانين لتعيين مصاريف عساكرنا البرية والبحرية • ومن حيث ان صيانة البلاد امر واجب وفرض لازم فعلى الاهالي ان ينتدبوا انفارًا للعسكرية • فقد امرنا بوضع قوانين في كيفية اخذ الانفار على قدر امكان كل مكان ومدة اقامتهم في سلك العسكرية اربع سنين او خمس • لانهُ اذا اخذ انفار اكثر من طاقة الاماكن او مكثوا مدة حياتهم في العسكرية يكون ذلك

ظلماً وضرراً على العباد والبلاد ويصير الانفار ييأسون من حياتهم اذا مكثوا مدة طويلة · ومن الآن فصاعداً لا يقاص احد لا سرّاً ولا جهراً باي نوع كان من القصاص الا بعد الفحص والتدقيق تطبيقاً لشريعتنا الالهية · ولا يسمح لاحد ان يهين شرف الآخر كائناً من كان ولكل واحدٍ الحرية الكاملة ان يتمتع باملاكه واموالهِ بدون معارض كما ان أقارب المذنب لا يقاصون بذنبهِ ولا يحرمون من ميراثهِ اذا كانوا ابرياء ·

فلتعم هذه الترتيبات جميع رعايانا من اية ملة كانت وليتمتع بها الجميع بدون استثناء وليكن اطمئناننا كاملاً ممنوحاً ما الى جميع اهالي المملكة على حياتهم وشرفهم واموالهم حسب فرائض شريعتنا المطهرة وقد امرنا بوضع مجلس للاحكام العدلية يكون فيهِ وزراؤنا ووكلاء رجال دولتنا يتكلمون فيهِ بالحرية التامة لاجل ترتيب ما يلزم لاطمئنان الرعايا على حياتهم واموالهم وتعيين الاموال الاميرية · واما الشرائع المختصة بترتيب العساكر فتصير المفاوضة بها في المجلس العسكري تحت نظارة السرعسكر · وكل ما يرتئونهُ من الاشياء المستحسنة تعرض لسدتنا السلطانية فنشرفها في اعلاها خطاً بيدنا الملوكية لاجل المصادقة

ولما كانت هذه الترتيبات ليس لها غاية سوى تقدم الديانة والدولة والشعب وخير المملكة · فعظمتنا الشاهانية تتعهد ان لا تفعل شيئاً مخالفاً لها · وتأكيداً على الاقامة بعهدنا هذا نقسم بالله العظيم امام كل العلماء ووكلاء رجال الدولة في بيت الخرقة الشريفة ونحلفهم ايضاً · وبعد ذلك كل من يخالف هذه الترتيبات يصير قصاصهُ على قدر ذنبهِ مع قطع النظر عن رتبتهِ واعتبارهِ · وبما ان للمتوظفين ماهيات كافية فيجري القصاص الصارم على كل من يقبل الرشوة التي تحرمها الشريعة الالهية وتكون سبباً لسقوط المملكة · وبما ان هذه القوانين المتقدم ذكرها قد جعلناها عوضاً عن القوانين القديمة فلتعلن ارادتنا الملوكية السنية في الاستانة العلية وفي سائر ممالكنا المحروسة وتعطى صورها ايضاً الى سفراء الدول المتحابة الموجودين في دار السعادة العلية لتكون دولهم شهوداً على دوامها الى ما شاء الله وعدا ذلك فليحفظنا الله بحفظهِ الالهي وكل من خالف هذه الترتيبات فليكن موضوعاً للعنة الالهية الى الابد آمين

وبعد نشر هذا المنطوق الشريف الذي جاء شاهدًا عَلَى ما كانت عليهِ احوال الرعيَّة والمملكة من الاختلال ومخالفة الشريعة الغراء سارت البلاد عَلَى الخطة المرسومة فيهِ ولكن إلَى حين

﴿ عودٌ الى الاصل ﴾

ولما عادت البلاد إلَى رؤسائها السابقين بعد خروج ابراهيم باشا من الشام فقد الشيء الكثير من الاصلاحات وضاعت اسباب الامن الَّتِي وضعها ابرهيم باشا في مدة ولايتهِ الَّتِي بلغت تسع سنين . ونظرًا لضعف بعض الولاة وعدم اقتدارهم عَلَى السياسة الحسنة وحفظ الامور طبق رغبة الذات الشاهانيَّة طمع هؤُلاء الرؤساء بالرجوع إلَى الحالة الَّتِي كانوا عليها واخذوا يتقدمون اليها شيئًا فشيئًا رغمًا عن مراقبة القنصل وودّ فنشأَ من ذلك فقد الامن في الطرق عَلَى المسافرين وكثر الاعتداء في الارياف وصار بعض اصحاب المقاطعات يكدرون الراحة في نواحيهم ويحملون عَلَى بعضهم بعضًا وراج سوق الافتراء والنهب والسلب والقتل في كثير من جهات البلاد وتأَتى عن ذلك ثورات كبيرة منها ثورة في لبنان واُخرى في وادي التيم وبلاد القلمون عند ما عصى الامراء الحرافشة عَلَى الدولة وثورة بلاد النصيريَّة وثورة حلب ضد النصارى وغير ذلك مما كان يستدل منهُ بان البلاد عادت لما كانت عليهِ . وسيأْتي بيان هذه الثورات في الفصول القادمة

واما المدن فكانت الحالة فيها احسن قليلاً واستمر فيها مبدأُ الاصلاح الذي بدأَ فيهِ ابرهيم باشا ولكن لما وقعت الحرب بين الدولة

العثمانيَّة وروسيا سنة ١٨٥٤ بدأ في المدن نفسها ما ابان بان نفوس الاهالي كانت إلَى ذلك الحين ميالة إلَى الحالة السابقة عند سنوح الفرص المناسبة حيث ثارت نيران الاضطهاد ضد المسيحيين فصاروا يهانون ويشتمون اشنع الشتائم حيثما ساروا واينما داروا و يعاملون معاملة وحشيَّة وان تكن اخف من معاملتهم السابقة ولم تقف هذه الحالة عَلَى حد الأَّ بعد انتهاء الحرب ونشر التنظيمات الخيريَّة كما تقدم . ومما جرى بعد خروج ابرهيم باشا من سوريا لحين نشر التنظيمات يظهر بان جرثومة الاختلال لم تتلاشَ من البلاد السوريَّة بل ضعفت نوعًا لتجدد قواها عند مناسبة الظروف والاحوال وهٰذا اقوى دليل على ان النكبات ألَّتِي اصابت الشام ما بين سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٦٠ لم تكن الأَّ بسبب فساد الاحكام وظلم الحكام وسوف يظهر ذلك باجلى بيان عند تفصيل الحوادث ألَّتِي ستجيء . ونكتفي الآن بما تقدم من وصف حالة البلاد والعباد ألَّتِي كانت مقدمة لتلك الحروب والويلات ألَّتِي لم يزل صداها يرن في الاذان وترجف من ذكرها الابدان

فصل

في منشإ الدروز

من المعلوم ان اكثر نكبات الشام كانت عَلَى يد طائفة الدروز وسببها المنافسة والمباغضة بينها وبين طائفة الموارنة وسياسة الحكام الاتراك وكرههم للطائفتين . فاما سياسة الحكام فسوف نعود اليها ويظهر من سرد الحوادث أَلَّتِي سنشرحها ما فيهِ الكفاية . واما المباغضة الكائنة بين النصارى والدروز من ناحية وبينهم وبين المسلمين من ناحية اخرى فقد بيَّنَّا بعضها في الفصل الذي مرَّ ولا بدَّ من ايراد حكاية الدروز واصلهم هنا حتى يكون القارئ عَلَى بينةٍ من الامر

ويطلق على الدروز هٰذَا الاسم لانهم اتباع رجل من اهل الديانة الباطنيَّة فارسي الاصل اسمهُ نشتكين الدرزي كان اوَّل من دعا الناس إِلَى الاعتقاد بأُلوهيَّة الحاكم بامر الله معبود الدروز وهٰذَا طرف من سيرة هٰذَا الطاغية الذي يعبدهُ الدروز عبادة سرّيَّة

وُلد الحاكم بامر الله في مدينة القاهرة سنة ٣٧٥ هجريَّة وهو السادس بين الخلفاء الفاطميين واوَّل واحد منهم وُلد في مصر وبويع بالخلافة بعد والدهِ العزيز سنة ٣٨٦ وهو في الثانية عشرة من عمرهِ فاستهلَّ حكمهُ بقتل مربيهِ ووزيرهِ لانهُ كان يمنعهُ من اللعب واللهو ولما صار في السابعة عشرة من عمرهِ اظهر اهتماماً كبيراً في امور الملك

وظهرت عليهِ لوائح الفراسة والذكاء ولكنهُ اظهر ميلاً غريباً الى الاستبداد وسفك الدماء ولم يروَ ان واحداً من الناس ظلم قومهُ قدر ما ظلم هٰذا الطاغية المصريين وغيرهم ممن كان تحت امرهِ · وجعل في اول الامر دأبهُ الركوب على الخيل والتجوُّل في شوارع القاهرة ليرى خضوع الناس لهُ وتسابقهم إلى اكرامهِ وكان يكرههم على تعظيمهِ اكراهاً ولم يمل اليهِ الناس من اول الامر لانهُ كان على مذهب الشيعيَّة والباطنيَّة (هم القائلون بان لآيات القرآن معني غير الظاهر وان روح النبوَّة انتقل من آدم إلى غيرهِ من الاولياء حتى صار إلى خلفاء الفاطميين) وكتب اوراقاً يشتم فيها اكابر الصحابة وفي مقدمتهم ابو بكر وعمر بن الخطاب وكل من والاها ولم يجسر القوم على شق عصا طاعتهِ لان بلاد الشام وطرابلس الغرب وما يليها كانت من املاكهِ وكان لهُ جنود منها طوع امرهِ يخشى الناس شرهم

وكان الحاكم بامر الله — وسمى نفسهُ بعدئذٍ الحاكم بامرهِ — شديد الوطأة على اليهود والنصارى فامر الاسرائيليين بلبس الملابس الصفراء وتعليق قطع من الخشب ثقيلة على صدورهم وحتم على النصارى بلبس الملابس الزرقاء ووضع الصلبان الكبيرة في اعناقهم واكثر من اضطهادهم حتى انهُ سمح للناس بوضع اليد على املاكهم وخرب خمسمائة كنيسة من كنائسهم وضم اوقافها إلى املاك اعوانهِ فاضطرَّ العدد الوافر منهم ان يعتنق الاسلام فراراً من الظلم ولكنهُ عاد فرضي عنهم يوماً وامر باطلاق الحريَّة للاديان فرجع ستة آلاف شخص إلى دينهِ يوم صدور ذلك الامر · ولم يكن ذا رحمة بالمسلمين فانهُ شدد الوطأة

ايضاً عَلَى كل مسلمٍ من اهل السنة وفتح لهم المكاتب لتعلمهم طرق العبادة الشيعية فكان اذا لم يقبل الناس عليها يقطع اعناقهم او يزجهم في السجن او يعذبهم عذاباً كبيراً حتى ضجَّ الناس من هول ظلمهِ ولكنهم لم يجسروا عَلَى الثورة لما تقدم عن خوفهم من عساكرهِ ولكن البعض عصوهُ في طرابلس الغرب وقام من بينهم واحد اسمهُ الوليد ابو رقوه فقاد الثائرين واشهر عَلَى الحاكم حرباً عواناً وكسر جيشهُ في عدة مواقع فسير الحاكم عليهِ قائدهُ الفضل بن محمد في جيشٍ من العرب والسوريين ولم يفلح في اول الامر حتى ان ابا رقوه لما رأَى نجاح عملهِ تقدم إِلَى البلاد المصرية وفاجأَ الجيزة عَلَى غير استعدادٍ من اهلها وحكومتها فاستولى عليها وتهدد القاهرة بالهجوم وفرَّ الحاكم بامر الله إِلَى بلبيس . ولكن القدر لم يساعد هٰذا القائد عَلَى نوال بغيتهِ فانهُ ما عتم ان نال الظفر حتى التقى بعساكر الفضل وانكسر في معركة عظيمة فتقهقر وفرَّ من وجه خصمهِ والتجا إِلَى بلاد البرابرة فعاد الحاكم إِلَى مقرهِ ظافراً وارسل إِلَى زعيم بلاد النوبة يطلب منهُ تسليم العاصي فسلمهُ ولما عاد ابو رقوه إِلَى مصر زجهُ الحاكم في السجن زماناً وعذبهُ طويلاً ثم قطع عنقهُ ومن ذلك اليوم استتبَّ الامر لهُ وخاف الناس ان يظهروا تذمرهم منهُ فاحتملوا ظلمهُ بالصبر وكان هو قد احسَّ بان التناهي في الاستبداد جلب عليهِ ما قاساهُ في اول هذه الثورة من الويل والوجل فاعتدل في امورهِ بعض الاعتدال ولكن حلمهُ لم يدم طويلاً لان الطبع غلاب فعاد إِلَى اسوإِ مما كان عليهِ وجار بالعباد جوراً لم يسمع بهِ الاوائل والاواخر

وكان هٰذَا الطاغية يكره النساء ويشدد عليهنَّ بالاختفاء والتستر فلا يصرح لهنَّ بالسير في السكك من دون نقاب ثم امر بحبسهنَّ في بيوتهنَّ مدة سبع سنين ونبه عَلَى عاملي الاحذية بعدم صنعها لهنَّ حتى لا يتمكنَّ من الخروج . وحدث انهُ كان في احد الايام مارًّا امام حمام في مصر وسمع لغطًا وصياحًا فسأَل عن السبب قالوا انهُ حمام للنساء فوقف عَلَى بابهِ وارسل في الحال وراء البنائين وامرهم ان يسدوا ابواب الحمام واقام الحراس عَلَى البناء من خارجهِ حتى لا تفر احداهنَّ وهكذا امات اربعماية امرأَة جوعًا بلا ذنب ولا سبب . واشتهر في اعطاء الاوامر المتناقضة الغريبة فكان يأْمر يومًا بمنع بيع الخمر وكسر آنيتها حتى انها كانت تجري في شوارع مصر جداول ولا يقرب الناس منها ويومًا يامر بمنع اكل السمك او يشير بغير هٰذَا مما ضاقت صدور الناس بسببهِ

وفي سنة ٤٠٧ للهجرة جاهر هٰذَا الظالم بما كان ينويهِ واعلن انهُ اله فوافقهُ عَلَى ذلك فارسي اسمهُ حمزة بن علي كان وزيرًا لهُ وآخر من اهل الديانة الباطنية اسمهُ نشتكين الدرزي ودار هٰذَا الاخير في جوامع القاهرة يشتم الاولياء وآل الصحابة ويبشر بالوهية الحاكم بامرهِ فقام عليهِ الناس يومًا في وسط الجامع ونكلوا بهِ وكانوا على وشك قتلهِ لولا ان يتداركهُ بعض الجند فلما رأَى الحاكم تعصب القوم عليهِ وعَلَى ما جورهِ اضمر لهم السوء ولكنهُ لم يقوَ عَلَى ابقاء الدرزي في مصر فبعث بهِ إِلَى بلاد الشام وكانت تابعة لهُ كما مرَّ وهناك لقي الدرزي ما لم ينتظرهُ من النجاح وسنعود إِلَى ذكرهِ . واما الحاكم فانهُ عزم من

بعد ذلك الحين عَلَى انفاذ ماربهِ في الناس وساعدهُ عَلَى ذلك وزيره حمزة فاصدر الاوامر إلَى المسلمين ينهاهم فيها عن الحج إلَى مكة وعن ارسال الكسوة اليها وامر بابطال الصلوات الخمس والصوم في رمضان والغى عيد الفطر وعيد الاضحى واظهر في ذلك الحين — سنة ٤٠٨ — ميلاً إلَى النصارى واليهود فاطلق لهم الحريَّة في دينهم وساعدهم عَلَى بناء الكنائس وكان يقول لبعض الناس انهُ لا يليق بهِ ان ينتمي إلَى دينٍ واحدٍ من الاديان وهو يعبدهُ الكل عَلَى السواء · كل هٰذَا وهو يضمر السوء للذين لم يوافقوا رسلهُ وماجوريهِ ويهيء الاوامر اللازمة لايصال الاذى اليهم · وبدأ في ذلك الحين بعمل الطرق لاقناع الناس بعلمهِ واقتدارهِ فكان يستأجر الجواسيس والارصاد بالالوف ويبعث بالنساء العجائز إلَى بيوت الناس ليلقينَ اليهِ كل امرٍ سمعنهُ من اهل مصر وكل حادثة رأينها وصار اذا جاءهُ واحد من الذين حفظ عنهم الحكايات عن عجائزهِ يقص عليهِ اخبار بيتهِ ويعلمهُ بحكايات نفسهِ فيعجب الرجل ويظن ان في الخليفة قوة خارقة لقراءة الافكار · ولما انتشر هٰذَا الامر وكثر تحدث الناس بهِ واظهر الحاكم بامرهِ لمن حولهُ يوماً بعد يوم انهُ يعلم اسرارهم ونواياهم ويعرف الذي حدث بينهم وفي بيوتهم جعل البعض منهم يعتقدون ان دعواهُ صحيحة وانهُ اله يعرف الغيب · ثم انهُ امر الناس بتعظيمهِ ومخاطبتهِ كما تخاطب الالهة فكان اذا جاءهُ واحد يسجد امامهُ سجوداً ويقول لهُ ما معناهُ السلام عليك يا ايها الفرد الصمد الذي بيدك الحياة والموت ومنك الغنى والفقر ولم يلذ لهُ امر قدر ما كان هٰذَا السلام يلذ

لهُ ويطربهُ . وكثر تحدث الناس في دعواهُ وقوي انصارهُ فصاروا يجاهرون بالوهيتهِ ولا يخشون قيام الناس عليهم حتى ان بعضهم لما زار مكة بقصد الحج وقف امام الكعبة وضربها بسيفهِ على مرأَى من الحجاج والواقفين وقال لهم يا ايها الناس على مَ تجهلون وحتى مَ تكفرون انكم تعظمون هذا الحجر الذي لا يضركم ولا ينفعكم وقد نسيتم القدير الذي في مصر ذلك الذي يحيي ويميت

وكان الحاكم ولعاً بركوب الحمير ولبس الملابس السوداء والتجوُّل في انحاء مصر ليلاً ونهاراً . وحدث انهُ كان يطوف على عادتهِ في احدى الليالي فقابلهُ بعض الناس من اعدائهِ ووضعوا ورقةً في يدهِ ظنها شكوى فلما فضَّ ختامها وقرأها وجدها مشحونة بالشتائم واللعنات عليهِ وعلى كل واحد يعاونهُ على كفرهِ . ولقي في احد الايام تمثال امرأة واقفة في السوق بغير نقاب فعلم انهم عملوا ذلك لنكايتهِ واهتمَّ من بعد ذلك في ما يأتيهِ لمقاومة هؤلاء القوم والشروع في ما كان ينويهِ من الشرّ لهم فجمع رؤساء جيشهِ وكان اكثر العساكر والقوَّاد عندهُ من البرابرة واهل طرابلس وغيرها وامرهم باحراق مصر من اولها الى آخرها وصرَّح لهم بنهب كل ما تصل اليهِ ايديهم وامتلاك البنات والغلمان وعمل كل ما يريدونهُ من الموبقات ففرح عساكرهُ الانذال بهذا وشرعوا في انفاذ امرهِ فاضرموا النار في كل انحاء المدينة واعملوا السيف في اهلها ثلثة ايام كاملة بليت فيها مصر بما لم ترهُ في زمانها السابق وجرى دم القتلى في الازقة والطرق واندلع لسان النار في بيوت مصر المتلاصقة فلم يبقِ منها شيئاً وفرَّ الذين امكنهم الفرار

من الناس فكان الذي ينجو من النار وسقوط الابنية عليهِ يقع في يد العساكر فيقتلونهُ وينهبون ما معهُ . كل هٰذَا والخليفة يذهب يوماً بعد يوم إلَى القرافة ليرى بعينهِ كيف يحلُّ البلاء برعاياهُ واذا جاء اليهِ الناس يسترحمونهُ ويرجونهُ ان ينهي عبيدهُ وعساكرهُ عن فعالهم قال ان لعنة الله عليهم اني لم آمرهم بشيء من هٰذَا انما هم يبطشون ويفتكون بغير علمي . واجتمع في اليوم الرابع مشايخ المسلمين في الجوامع وفي ايديهم المصاحف فصاحوا من ظلم هٰذَا السلطان واستعانوا بمروءة بعض العساكر من الاتراك فاستمالوهم اليهم وتعاهدوا معهم عَلَى الاخاء ومقاومة هٰذَا الظالم وانقاذ الذين بقوا من يد العساكر السود الذين امرهم السلطان بقتلهم فارسل العساكر إلَى السلطان بلاغاً بهذا المعنى وذهب اليهِ المشايخ فتراموا عَلَى اقدامهِ وقالوا له اننا عبيدك وهذه مدينتنا تعمل فيها النار واولادنا ونساؤُنا يفتك بهم البرابرة الكفار فاجرنا من هٰذَا العذاب وان كان لنا ذنب فاسمح لنا بالخروج من هذه البلاد او اذا كان هؤُلاء العتاة يقتلوننا ويحرقون منازلنا بلا ذنب ولا سبب فاسمح لنا ان نعتبرهم ممَّن عصى امرك ونقوم عليهم مع عساكر الاتراك فنقتلهم . فاجابهم ان الذي جرى كان بغير امرهِ وفوض الاتراك بمحاربة العساكر السود وبعث اليهم الامر بالكف عما كانوا يفعلون عَلَى مسمعٍ من الحاضرين ولكنهُ الحقهُ بامرٍ آخر سري يأْمرهم فيهِ بمداومة الحرق والقتل فلما لحظ القوم منهُ ذلك استعدوا لمحاربتهِ وارسلوا اليهِ بلاغاً بذلك فخاف العاقبة وركب حمارهُ ونزل في الحال الى الاسواق فامر العساكر بالامتناع عما كانوا يفعلون ثم اصدر عفواً

عاماً عن كل ساكنٍ في مصر بناءً عَلَى طلب المشايخ وخلص الناس من ذلك البلاء الشديد

وكان يحتال بكل حيلة لاقناع الناس بقدرتهِ وعلمهِ كما مرَّ من ذلك انهُ ارسل وراء بعض الاشقياء وعلّمهم ان يسرقوا من مخازن مصر في احدى الليالي اشياءَ معلومة فاطاعوا امرهُ وكان قبل ذلك قد امر الناس بترك بيوتهم ودكاكينهم مفتوحة مدة الليل بدعوى ان السرقة لا تجوز في ايامهِ وتعهد لكل من يسرق لهُ شيءٌ بردهِ ومعرفة السارق فلما دار الذين استاجرهم للسرقة واخذوا ما اخذوهُ تقدم اليهِ اصحاب الحاجات يشكون اليهِ الامر فقال لهم ان اذهبوا إِلَى ابي الهول الذي صنعتهُ يخبركم بما تريدون وكان قد صنع تمثالاً من النحاس عَلَى صورة ابي الهول ووضع من داخلهِ رجلاً يعرف اسماءَ السارقين والذين سرقت الاشياءُ من دكاكينهم فاذا جاءَ الرجل منهم وقص حكايتهُ اجابهُ الرجل من داخل الصنم ان اذهب إِلَى بيت فلان تجد حاجتك وصحت اقاويلهُ فهال الناس الامر واعتقدوا في الخليفة اشكالاً والواناً. ثم جيءَ بالسارقين وكانوا اربعماية شقي عدًّا فامر الحاكم بامرهِ بشنقهم جزاءَ جنايتهم فشنقوا جميعاً ضحيةَ حيلهِ وعم الامن في المدينة حتى لم يعد الناس يسمعون بجناية او سرقة لان صاحب النفس الامارة بالسوءِ صار يعتقد ان قدرة السلطان تكشف فعلهُ ويشنق حتى ان الناس كانوا يمتنعون عن التقاط ما يجدونهُ في الطرق من النقود او الامتعة ويظل الشيءُ في الطريق والناس تمرُّ إِلَى جانبهِ ولا تمسهُ حتى يجيءَ صاحبهُ وياخذهُ. وحدث يوماً ان تاجراً اودع عند صديقهِ مبلغاً

كبيرًا من المال بلا سند ولا شهود ولما طالبهُ بهِ انكرهُ الرجل عليهِ فقص التاجر حكايتهُ عَلَى السلطان وطلب اليهِ الانصاف فامرهُ الحاكم ان اذهب وقف في الغد امام دكان صاحبك حتى اذا مررت بهِ تجيء اليَّ وتحدثني كانك صديق قديم لي ففعل الرجل ذلك ورأى الذي انكر عليهِ المال انهُ يحدث السلطان بغير تكلف نخاف العاقبة واسرع في الحال الى بيتهِ فجاء بالمال المطلوب وسلمهُ الى صاحبهِ ولما علم الحاكم بالحكاية امر بشنق الرجل عَلَى باب دكانهِ فشنق والناس يعجبون ويحسبون

كل هٰذا يدل عَلَى ان هٰذا السلطان تفرد في بعض الامور وكان عندهُ ذكاء وقوة في الحيلة وجرأة عَلَى الامور ولكنهُ تفرد ايضًا بالظلم والتلذذ بسفك الدماء وقتل الابرياء إِلَى درجة لم تروَ عن غيرهِ من الظالمين . وكان لهُ منظر مهيب وعينان تتقدان مثل الجمر وصوت جهوري ووجه يرجف الابدان حتى ان الناس كانوا يتحاشون النظر إِلَى وجههِ خوف ان يصيبهم من عينهِ ضر و يظن البعض ان ذلك كان من دلائل الجنون او من ازدياد الحدة في ذهنهِ . ولكن المظالم اَلَّتي اتاها عرضتهُ للخطر وكان لهُ اخت اسمها ست الملك يكرهها كما يكره سائر النساء واتهمها يومًا بامور لا تليق حتى انهُ ارسل وراء بعض الاطباء وكلفهم ان يذهبوا اليها في مهمة صعبت عليهم وعليها فلما ان سمعت بذلك وعلمت ان ساعة افتضاحها او موتها قربت ارسلت وراء رجل من اعوانها اسمهُ ابن دواس كان يكره السلطان لجورهِ وظلمهِ وعرضت عليهِ قتل اخيها فرضي الرجل بذلك واستعد للفتك بمولاهُ في الغد . وكان الحاكم في تلك الايام يركب كل يوم حمارهُ

ويقصد القرافة فلما خرج في صباح احد الايام سنة ٤١١ هجرية قال لامهِ ان ذلك اليوم كان خطيرًا لديهِ وانهُ رأى في الكواكب ان سيمر عليهِ خطر جسيم فان خلص منهُ عاش طويلاً وان ظهرت لهُ في القرافة علامة يعرفها كان هلاكهُ محتماً فلما صار في المحل المعهود تطلع فيما حولهُ فرأى العلامة ألتي كان يخشى عاقبتها وصاح في الذي معهُ قائلاً انَّا لله وانَّا اليهِ راجعون ظهرت العلامة ودنت المنيَّة ولم يتم قولهُ هٰذا حتى طلع عليهِ ابن دواس في بعض الرجال فقتلوهُ واخفوا جثتهُ وهكذا استراح الناس من شر هٰذَا الطاغية

هذه سيرة الحاكم بامرهِ معبود الدروز وهو الذي ارسل نشتكين الدرزي عَلَى ما قدمنا إلَى بلاد الشام ليبشر بهِ الَّا فجاء هٰذَا الرجل وادي التيم في اطراف لبنان من ناحية الجنوب ولقي هناك قبيلة من العرب كان اجدادهم يميلون إلَى الديانات الباطنيَّة ويتظاهرون بالاسلام عَلَى كرهٍ منهم وعليهم امراء من آل تنوخ فاكرموا وفادتهُ وقبلوا دعوتهُ وكان الدرزي في اول الامر يقر لحمزة بن علي بالسيادة والرئاسة لان هٰذَا الوزير كان من علماء الباطنيَّة ولكنهُ تظاهر بالاستقلال وحب الرئاسة لما رأى النجاح وبلغ حمزة الامر فعزل الدرزي وحقرهُ في عيون اصحابهِ الذين قبلوا تعاليمهُ وارسل واحدًا بدلهُ اسمهُ مقتنى بهاء الدين فاتم عمل الدرزي ووزع عَلَى اتباعهِ كتبًا ورسائل من حمزة فيها تعاليم دينهم السريَّة وخلاصتها عبادة الحاكم بامر الله وتسميتهِ الحاكم بامرهِ وعدم الاقرار بصحة القرآن وغير هٰذَا من الامور واطلق عَلَى هذه الطائفة اسم الدروز لانهم اتبعوا تعاليم

الدرزي ولم يقدروا عَلَى الخلاص من هٰذَا الاسم مع انهم صاروا في آخر الامر يكرهون الدرزي ويحتقرونهُ ويسمّون انفسهم بالعقال او الموحدين

وقد اشتهر عن الدروز بين عامة الناس والجهلاء انهم يعبدون العجل وقد ذكر مؤرخو الافرنج ذلك في كتبهم من ايام الحروب الصليبيَّة ولا يعلم الناس اصل هذه الخرافة . ولما مات الحاكم بامرهِ اختفى حمزة خوفًا عَلَى نفسهِ من الذي خلفهُ ولم يمكن للسلطان بعدئذٍ ان يمحو الذي زرعهُ حمزة والدرزي فصار الدروز طائفة سريَّة وتحصنوا في جبال الشام وظلوا عَلَى الاستقلال وهم الى اليوم يعرفون بالميل إِلَى الاستقلال وحب الحرب والتعاضد عَلَى كل عدو او معاند. ولما رأى بهاء الدين ان طائفتهُ في خطر كبير بعد وفاتهِ اوصاهم قبل مفارقة هذه الدنيا بعدم قبول الطالبين في طائفتهم وهكذا قفل الدروز باب الانضمام اليهم وهم إِلَى اليوم طائفة صغيرة يحترمون رؤساءهم ويعتقدون ان في بلاد الصين عددًا لا يحصى من اخوانهم في الدين وان حمزة سيظهر لهم مرة اخرى قادمًا من تلك البلاد . وكان الامراء التنوخيون الذين اعتنقوا هٰذَا المذهب الجديد اصحاب صولة وسطوة ولهم في الحروب الصليبيَّة فعال تذكر اعانوا بها سلاطين المسلمين عَلَى الافرنج وذلوا في اوائل القرن السادس عشر فعقبهم في السيادة الامراء المعنيون وهم من احدى قبائل العرب ايضًا ثم تلاهم في السيادة امراء بيت ارسلان ومشايخ بيت جنبلاط وعماد وغيرهم ممن لا يسعنا ذكرهم في هٰذَا الكتاب المختصر ولم يزل بيت ارسلان وبيت جنبلاط عَلَى السيادة بين الدروز إِلَى هذا اليوم

فصل

في منشإ الموارنة

اختلف الناس اختلافاً كبيراً في اصل الطائفة الموارنة فبعضهم يقول انهم بعد قبول النصرانيَّة تبعوا راهباً اسمهُ مارون كان يسكن في دير عَلَى مقربةٍ من حماه في القرن السابع وعلَّم بان للمسيح مشيئة واحدة بدليل ما قالهُ جاك ده فتري اسقف صور الذي كلفهُ البابا اونوديوس الثالث في القرن الثاني عشر بكتابة ما يعلم عن المسيحيين في الشرق اذ قال «ويقطن في الجبال الكائنة في بلاد فينيقية عَلَى مقربة من مدينة بيبلوس (جبيل) قوم يحسنون صناعة الحرب ولهم شهرة في الرمي بالسهام وعددهم ليس بقليل واسمهم الموارنة على اسم زعيمهم مارون المرطوقي الذي علم بمشيئة واحدة وظل نصارى لبنان يصدقون هٰذَا الخطأ الشيطاني الذي ابتدعهُ مارون مدة خمسماية سنة ثم تغيرت قلوبهم وانضموا إِلَى الكنيسة الكاثوليكية واقروا بصحة تعاليمها في حضرة الاب اموري بطريرك انطاكية» ولكن زعماء هذه الطائفة يقولون ان مار مارون هو غير هٰذَا الراهب المرطوقي وظلَّ اهل هذه الطائفة لا يقرون بسيادة البابا في الامور الدينيَّة إِلَى سنة ١٤٣٨ للميلاد وكان معتمدهم من اشهر المقاومين للقول بعصمة البابا في اواسط هٰذَا القرن

واشتهر الموارنة في كل الحروب ٱلَّتي حصلت بين الافرنج وسلاطين المسلمين فساعدوا الافرنج مساعدة تذكر ولما انتهت تلك الحروب الهائلة بعود الافرنج إِلَى بلادهم شدد الخلفاء الوطأَة عليهم فرحل قوم منهم إِلَى قبرص وآخرون إِلَى مالطة وكريت ولجأَ بعضهم إِلَى حوران وظلوا عَلَى هذه الحال حتى امتنع الحكام عن تعقبهم ومضايقتهم وبدأَ البابا بالالتفات اليهم . ثم ان ملوك فرانسا نظروا إِلَى خدماتهم في القرن السابع عشر وارسل لويس الرابع عشر اليهم منشوراً يبسط فيهِ حمايتهُ عليهم وفعل لويس الخامس عشر فعلهُ ايضاً فعد الموارنة انفسهم من جملة الفرنسيس وهم إِلَى هٰذَا اليوم يكرمون هذه الدولة ويحبونها حباً كبيراً ويتظاهرون بالانتماء اليها ولقنصل فرانسا نفوذ وكلمة في بلادهم

﴿ حكام لبنان ﴾

ولما انقرض آل معن طلب الدروز ان يحكم بلادهم الامراء الشهابيون وكان آل شهاب من اشهر امراء العرب يتصل نسبهم بقريش والنبي محمد ولهم في حوران سطوة وسيادة من ايام فتح دمشق عَلَى يد جدهم خالد المعروف باسم « سيف الله » . واعطاهم السلطان نور الدين الولاية عَلَى حاصبيا وراشيا ومعظم اهلهم من الدروز فحكموا بالعدل والانصاف وجمعوا قلوب الناس عَلَى ولائهم وهم الذين حاربوا الافرنج واخرجوهم من وادي التيم . وكان الدروز من اول الامر يحكمون انفسهم او يولون عليهم امراء من المسلمين لهم التصرف المطلق في بلادهم ولكنهم يؤدون الجزية للسلطان وحاول الاتراك ان يحكموهم راساً فلم يفلحوا ولما رأى الذين في الاستانة ان الدروز

والنصارى في لبنان يتحدون عليهم كلما ارادوا قضاء امر وعلموا ان طائفة الموارنة تزداد تقدماً ونموًّا عاماً بعد عام جعلوا همهم امتلاك الطائفتين بزرع بزور التضاغن والعداء بينهما وظلوا عَلَى هذه السياسة إِلَى اليوم فنجحوا فيها وظهر من نتائجها الحروب الهائلة ٱلَّتِي سنأْتي عَلَى ذكرها في الفصول القادمة والمذابح الفظيعة وساعد الاتراك عَلَى هذه السياسة اعتناق بعض الامراء الشهابيين دين النصرانيَّة في سنة ١٧٥٦ وتسلط كهنة الموارنة عَلَى عقول هؤُلاء الامراء حتى صاروا يحكمون البلاد عَلَى ما يريدهُ الاكليروس فاشتدَّ غيظ الدروز وكانت دسائس الاتراك وتدابيرهم تزيد في الطين بلةً حتى ظهر العداء بين الطائفتين وكثر التعدي وصارت الحرب من الامور المحتمة

وكان لبنان تابعاً في حكومتهِ لوالي عكا التركي فجعل الولاة همهم قسمة هٰذَا الجبل بعضهُ عَلَى بعض وصاروا يولون هٰذَا الامير اليوم ويعزلونهُ في الغد حتى كثرت المنافسة بين امرائهِ وتعددت احزابهُ وهٰذَا هو الذي ارادهُ الاتراك من سياستهم بعينهِ فانهم كانوا يؤَملون ان يقول الاهالي بعجزهم عن حكم الجبل بانفسهم وعدم قبولهم بامراء بلادهم ويطلبوا من السلطان ارسال والٍ تركي عليهم . واشتهر من بين هولاء الولاة بهذه السياسة احمد باشا الجزار والي عكا الذي مات في اوائل هٰذَا القرن وعرف بظلم يزيد عن ظلم الحاكم بامرهِ وقسوتهِ . كان هٰذَا الظالم العاتي ياتي كل حيلة لاثارة الاهالي بعضهم عَلَى بعض ولتحقير امرائهم في اعينهم ولهُ ذكر اسود يذكرهُ كل سوري بالظلم والقسوة الوحشية اينما سار وكيفما دار

فصل

في احوال جبل لبنان

وكان جبل لبنان عَلَى ما تقدم مستقلاً في اموره الداخليَّة من يوم فتح الاتراك بلاد الشام في سنة ١٥٢١ عَلَى يد السلطان سليم الفاتح ولما كان جبل لبنان في وسط الشام ومركزهُ الطبيعي يساعد اهلهُ عَلَى رد الاعداء والامتناع فيهِ صار امراؤهُ عقبة في سبيل هذه الدولة اذا عصاها واحد من الناس فرَّ اليهِ ولطالما حاول الولاة العثمانيون في عكا والشام ان يمدوا سطوتهم الى هذا الجبل فخابت آمالهم ولم يروا طريقة لنوال هذا الغرض غير ايجاد الانقسام والتحزب في لبنان بدل الاتحاد الذي عرف عن اهلهِ فقد كان الدروز والنصارى فيهِ الى منتصف هٰذَا القرن يعيشون بالولاء والاخاء ولم تحصل بينهم حروب دينيَّة مثل ٱلَّتِي نكبت بها هذه البلاد التعيسة من سنة ١٨٤٠ إِلَى سنة ١٨٦٠ حتى ان الاكراد والعرب وغيرهم من طوائف الشام المجاورة لهذا الجبل كانت تستعين بامرائهِ عَلَى الدولة وتلجأ اليهِ ساعة الحاجة فلم يرَ الاتراك بدًّا من اضعافهِ واذلال اهلهِ ولم يخطر ببالهم غير هذه الطريقة ٱلَّتِي ذكرناها وهي ان يجعلوا اهل لبنان اعداء بعضهم لبعض ولسوء الحظ نجحت سياستهم وعادت باوخم العواقب كما سترى . ولم تبدأ هذه السياسة بالنجاح الأَ من بعد رجوع العساكر المصريَّة عن

بلاد الشام وعود الاحكام التركيَّة اليها واما قبل تلك الايام فكان امراء لبنان من بيت معن وشهاب وتنوخ لا يحاربون حربًا الَّا اذا كان الدروز والنصارى فيهِ يدًا بيدٍ ولا يعرفون غير الاحزاب السياسية أَلَّتي ينضم فيها النصارى الى الدروز وينقسم الدروز عَلَى الدروز وهذه غير الحروب الدينيَّة أَلَّتي اضنت قوام الطائفتين. وحكم الامير بشير شهاب الشهير الذي ظلَّ مولى البلاد حوالي خمسين سنة من سنة ١٧٨٩ إِلَى ١٨٤٠ يشهد بذلك فقد كان هٰذَا الرجل العظيم مسلمًا في اول امرهِ ثم اعتنق النصرانيَّة وصار مارونيًا ولكن الدروز كانوا ساعدهُ الايمن ولم يستعن بسواهم في حروبهِ واموره وكان الشيخ بشير جنبلاط وهو اقوى مشايخ الدروز يومئذٍ واشهرهم اقرب الناس واحبهم اليهِ يزورهُ كل يوم ويتفق معهُ عَلَى كل مسأَلة ولكنهما اختلفا في آخر عهدهما بدسائس الاتراك ولما قتل الشيخ بشير جنبلاط في عكا عَلَى يد الجزار المشهور بالظلم وظن اهل لبنان ان ذلك كان بطلب الامير بشير قاموا عليهِ وشقوا عصا طاعتهِ وكان الدروز والنصارى من جملة العاصين لم يخطر ببال واحد منهم ان يقول ان هٰذَا نصراني وهٰذَا درزي

وعَلَى ذلك فقد كانت حالة النصارى في جبل لبنان إِلَى عهد تلك المذابح عَلَى ما يرام ولم تخلُ قرية منهم ومن الدروز فكان الدروز يخضعون لمشايخ النصارى والنصارى يخضعون لمشايخ الدروز عن نفس طيبة راضية . وتقدم النصارى في لبنان تقدمًا يذكر فبنوا القصور الباذخة والكنائس الكبيرة واقتنوا الارزاق الواسعة وتظاهروا بالنعمة

الكثيرة وظهر منهم الكتّاب والشعراء والاغنياء والفرسان واصحاب السياسة وكان لعقلائهم الكلمة النافذة يسميهم مشايخ الدروز اخوانًا لهم ويعيشون معهم عَلَى انق الوداد كل هٰذَا كان في لبنان والمسيحيون في المدن ٱلَّتِي يحكمها الاتراك في الحال ٱلَّتِي وصفناها في الفصول السابقة وليس بعد هٰذَا دليل عَلَى ان الاهالي لم ياتوا كل هٰذَا العداء والجور من عند انفسهم لولا ان يضطرهم الاتراك اليهِ بدسائسهم المعروفة ومكايدهم الموصوفة

قلنا ان البلاد الشاميَّة لم ترَ راحةً وهناء من بعد الفتح التركي حتى منَّ الله عليها بالفرج عَلَى يد ابرهيم باشا المصري ابن المغفور لهُ محمد علي باشا والي مصر وكنا نود الاسهاب في هٰذَا الباب ولكن المقام لا يسمح لنا ويكفي ان تقول ان ابرهيم باشا رحمة الله عليهِ حكم البلاد بالعدل والانصاف والحزم والعزم إِلَى درجة لم تعرف عن الذين تقدموهُ من الاتراك . وكان حاكم جبل لبنان الامير بشير شهاب حليفهُ ومساعدًا لهُ فلم يلقَ من اهل الجبل معارضةً تذكر ولما استتبَّ لهُ الامر شرع في تنظيم البلاد واقامة العدل فيها وجعل فاتحة اعمالهِ تحرير النصارى من رق العبوديَّة ٱلَّتِي قيَّدهم بها الاتراك مدة السنين الطوال وابطل الامتياز الذي كان للمسلمين في ملابسهم ومعيشتهم وصيَّر الناس سواء امام المحاكم ٱلَّتِي اقامها للفصل في دعاوي الناس وادخل العدد الكبير من اهل الذمة في عداد الموظفين والمامورين فعيَّن منهم الكتّاب والضباط في الجيش والجندرمه والحكام والمعاونين من كل الاصناف ولما هدأ روع البلاد وارتفع الظلم عاد إِلَى المدن

عدد كبير من النصارى الذين هربوا منها إِلَى جبل لبنان فعاشت تلك المدن بعد الموت وعم الامن وساد الصلح والاصلاح ودار دولاب التجارة فتقاطر الافرنج إِلَى مدائن الشام المعروفة بنوعٍ اخص وكأَن البلاد كانت في الجحيم فانتقلت إِلَى النعيم وفي حالة النزع فمنَّ الله عليها بالشفاء عَلَى يد ذلك البطل الهمام . وكان المرحوم محمد باشا شريف واليًا عَلَى بلاد الشام من قبل الامير محمد علي صاحب مصر فجرى عَلَى خطة مولاهُ من الاصلاح والعدل وارى الاهالي من آيات الانصاف ما لم يسمعوا بمثلهِ في سابق الايام وبنى لنفسهِ القصور وغرس الحدائق في الشام واقام الآثار ٱلَّتي ورثها اولادهُ من بعدهِ

عَلَى ان البلاد ٱلَّتي تعوَّدت الاحكام الفاسدة والاهمال في صوالح العباد والانقياد للغرض بدل الحق رأَت في هٰذَا الانتقال السريع امرًا غريبًا حبب إِلَى بعض اهلها الثورة والعصيان . وكان المشايخ الذين جاروا بالعباد في عهد الحكام الاتراك لا يقدرون عَلَى ما تعودوهُ من آيات الظلم والاستبداد في اهل البلاد مدة حكم الدولة المصريَّة فلم يرق لهم هٰذَا الحرمان من سلطتهم القديمة . ثم ان بعض المسلمين لما رأَوا مع ابرهيم باشا العمال والقواد من الافرنج والمسيحيين من اهل بلادهم ظنوا ان حكومتهُ تخالف قواعد دينهم ولم يرضوا عن هٰذَا الانصاف بعد ان كان المسيحيون عبيدًا لهم يذلونهم كيف شاؤُا ويستحلون دمائهم واموالهم فاظهروا التذمر وبدأُوا يحسنون لغيرهم من الناس العود الى حكومة الاتراك وساعدهم عَلَى ذلك دسائس الاتراك الذين رأَوا الملك يروح من قبضتهم وابرهيم باشا الاسد الغضنفر يتقدم

من بلاد الشام غازياً فاتحاً حتى اوشك ان يصير هو السلطان في المملكة العثمانيَّة · ومن غريب الامر ان اهل البلاد عن بكرة ابيهم بدأُوا يشعرون بامرٍ يكرهونهُ في دولة ابرهيم باشا مع كل ذلك العدل والانصاف ذلك ان الحكومة المصريَّة كانت تطلب الشبان للانتظام في سلك جيشها من كل الطوائف ولم يكن لها بد من ذلك لقاء ما ارادتهُ من فتح البلاد التركيَّة فهاج الاهالي من جرى ذلك ومانعوا في الامر ممانعة كبرى وقام النصارى عَلَى الذين حرروهم من ربقة الاستعباد واتفقوا مع الدروز عَلَى محاربة ابرهيم باشا واعوانهِ لانهم عاشوا الاجيال الطوال تحت حكم الاتراك ولم يؤْخذ منهم اولادهم ليحاربوا مع الدولة في الانحاء القاصية فكانوا يؤْثرون كل ظلم وجور عَلَى هٰذَا الامر · على ان هٰذَا لم يرع البطل ابرهيم باشا فانهُ شدد الوطأة عَلَى المعاندين والمعارضين وانتصر عليهم بقوة سيفهِ وبدد شملهم في انحاء كثيرة من بلاد الشام وظلَّ الدروز مدة طويلة يحاربونهُ في وادي التيم وحوران بعد ان خلدت البلاد إِلَى السكون واطاع الناس حكمهُ واشتهروا بما اظهروهُ من البسالة في محاربة العساكر المصريَّة مع انهم كانوا اقل عدداً وانتظاماً من عساكر ابرهيم باشا ولم يكن لديهم من السلاح ما كان في حوزة الجيش المصري · عَلَى انهم خضعوا بعد العناد الطويل وبطش بهم ابرهيم باشا في حوران ففروا من وجههِ وعاد البعض منهم إِلَى لبنان فصاروا يقلقون العساكر المصريَّة بالمناوشات المستمرة حتى اذا رأَوا ان هٰذَا العداء لا يفيدهم في شيءٍ سكتوا عن الحرب وهدأَ روع البلاد وانتظمت الاحوال ولم ترَ بلاد الشام هناء

وعدلاً مثل الذي رأَتهُ في ايام ابرهيم باشا ولوظلت البلاد في قبضة الدولة المصريَّة إِلَى الآن لكانت في مقدمة البلدان الشرقيَّة الناجحة في العلم والصناعة والتجارة

ولكن الزمان اقسم الأَّ يريح الشام ولا ينصف اهلها فان انكلترا رأَت ان تعيد هذه البلاد المسكينة إِلَى الاتراك وساعدتهم عَلَى ذلك فجاءَت عمارة من بواخرهم ومراكب تركيا والنمسا في اوائل عام ١٨٤٠ إِلَى بيروت لمساعدة الاتراك عَلَى اخراج جيش ابرهيم باشا من الشام وردهِ عن بلاد الاناضول بعد ان وصل إِلَى ابواب الاستانة وكسر جيوش الاتراك وفلَّ جموعهم في كل معركةٍ وفروا من وجههِ حتى صار عَلَى وشك امتلاك عاصمتهم الاستانة . ودار عمال الاتراك في البلاد ينفثون سم نفاقهم ويعملون عَلَى خراب البلاد بحيلهم ودسايسهم ويرغبون الاهالي في العود إِلَى قبضة دولتهم فوافقهم عَلَى ذلك بعض الجهال المغرورين والعدد العديد من المشايخ الذين كانوا يظلمون الفقراء في ايامهم ولم يتسنَّ لهم ذلك مدة الاحكام المصريَّة وقامت البلاد مع الاتراك والانكليز لمحاربة الجيش المصري فلما رأى محمد علي باشا ان قوتهُ لا تكفي لمحاربة تركيا وانكلترا وان فرنسا الَّتِي كانت تعدهُ بالمساعدة لم تفِ بوعدها وتركتهُ ساعة الحاجة مع انها كانت تغريهِ عَلَى معاداة الانكليز ومناوأَتهم اضطرَّ إِلَى التسليم بمطالب الدولة الانكليزيَّة والرجوع عن املاك الدولة التركيَّة وعلم ان الاغترار بمواعيد الفرنساويين والاتكال عليهم ساعة الشدة من آيات الجهل المبين فعاد عن بلاد الشام وسواها وعادت الامور إِلَى ما كانت

عليهِ وزاد البلاء لاسباب ذكرناها واخرى سوف نذكرها

وكأن الاتراك لما عادوا إِلَى امتلاك الشام رأَوا ان يعوّضوا ما فاتهم في السنوات التسع ألَّتي حكم فيها رجال الدولة المصريَّة فبالغوا في تحقير المسيحيين وانماء اسباب البغضاء بينهم وبين المسلمين وكانت الحزازات في الصدور من ايام ابرهيم باشا لانهم ظنوا ان النصارى تجاوزوا حدود الادب في طلب المساواة بالمسلمين وحسدوهم على تقدمهم في المراكز الاميريَّة وفي صناعتهم وتجارتهم واضمروا لهم السوء وساعدهم على ذلك تحريض الاتراك لهم سرًّا وعلنًا . واضطر المسيحيون في المدن إِلَى العود لملابسهم وحالتهم القديمة وكثر التعدي عليهم من الرعيَّة والحكومة وصارت حالتهم شديدة الضنك وانبث العمال الاتراك في كل ناحية يحرضون الناس على معاداة النصارى كأنما هم عولوا مدة غيبتهم على اتباع هذه السياسة وابقاء البلاد على التحزب والتعصب حتى اذا عاد ابرهيم باشا او غيرهُ إِلَى الشام وعصاهم بعض اهلها كان البعض الآخر معهم بداعي الحقد والحسد والتعصب الديني . كل هذا كان يجري وضباط الانكليز في البلاد لم يبرحوها فكان الذي يشكو امرهُ اليهم ويعرفهم بحكايتهِ ينصف في الحال ولكن الاهالي لجهلهم وعدم علمهم بالامور كانوا يظنون ان الانكليز والاتراك سواء ومع ان رجال الدولة الانكليزيَّة هم الذين ساعدوا الاتراك على العود إِلَى امتلاك البلاد فلم يفتإِ الاتراك مدة وجود الجيش الانكليزي في الشام يفهمون الاهالي بكل حيلة انهم انجس الناس واردام واكثرهم ظلمًا وكان الموارنة لسوء حظ البلاد وحظهم يعلمون الناس ان هؤلاء

الانكليز كفار ليسوا على دين مارون يجب على ابناء الطائفة المارونيَّة ان يقاوموهم ويضادوهم اينما حلوا حتى انهم لما التجأ بعض مشايخ بيت الخازن الى جناب الاميرال نابير قصد انصافهِ من الظلم تقموا عليهِ وجاهر بطريركهم بعدوانهِ وضادوهُ بكل ما في قوتهم واتفق معهم الاتراك على مضادة الانكليز الذين احسنوا اليهم كل ذلك الاحسان فكافأوا معروفهم بالخيانة وقابلوا مروءتهم بالكفر وردوا جميلهم بالدسائس والاكاذيب لاسباب لا تخفى على اللبيب ولو رزق الله ابناء البلاد عقلاً في تلك الايام لافهموا الدولة الانكليزيَّة ما نابهم من الظلم على يد الاتراك بدل ان يوالوا الاتراك على اخفاء الحقائق عنهم ولكنهم سعوا الى حتفهم بظلفهم وظهر من نتيجة جهلهم بعد ذلك بمدة قصيرة من المذابح والاهوال ما يشيب لهولهِ الاطفال

وكان سفير الانكليز في الاستانة يومئذٍ اللورد ستراتفورد دى ردكلف رجلاً حازم الرأي كثير الفطنة محبًّا للخير شفوقًا على النصارى المظلومين يعرف عن الاتراك كل ما تهم معرفتهُ فارسل امرًا الى عمال دولتهِ في بلاد الشام يقول فيها ان دولتهم عاونت جلالة السلطان على امتلاك البلاد الَّتي ضاعت من قبضتهِ لانها تنازع كل مختلسٍ ياخذ من بلاد السلطان شيئًا ما دامت الدولة حليفتها وينهاهم فيهِ عن التداخل في شؤُون البلاد ويعلمهم ان يوم رحيلهم عن الشام قريب ويقول في آخر المنشور انهُ اذا قدمت لهم شكوى من احد الاهالي فعليهم بعرضها على حاكم البلاد التركي واخطارهِ بها في الاستانة فكان كلما جاءهُ خبر مظلمة يسعى برفعها في الحال ولو طالت مدة وجود

العساكر الانكليزيَّة في بلاد الشام لكانت البلاد في خير ونعمة ولكنها تبعت الجنود المصريَّة وتركت البلاد والعباد للاتراك يعيثون فساداً ويظلمون ويبغون

ثم تحولت الانظار الى نوع حكومة لبنان فعاد الاتراك الى نغمتهم القديمة وطلبوا ان يكون الوالي عليهِ منهم فعارضتهم الحكومة الانكليزيَّة في ذلك واضطرتهم الى اعادة الامر الى الامراء الشهابيين ظنًّا منها بان ذلك يعود ببعض الخير على النصارى ويمنع دخول المفاسد والمظالم التركيَّة الى لبنان وكان الامير بشير شهاب الشهير الى ذلك الحين حاكم لبنان الرسمي فرأى اولياء الامر ان بقاءهُ على الامارة لا يجوز لانهُ كان واولادهُ في خدمة ابرهيم باشا فطلب اليهِ ان يسلم نفسهُ للسلطان ففعل ونفي الى مالطة ولذلك يعرف باسم الامير بشير المالطي الى اليوم وعين بدلهُ الامير بشير قاسم شهاب فسرَّ النصارى تعيينهُ وساء الدروز لان آل شهاب كانوا قد اعتنقوا الدين المسيحي واظهر امراؤُهم في آخر الامر كرهاً للدروز وعزماً على ابطال سلطة مشايخهم وخصوصاً في آخر ايام الامير بشير المالطي الذي اذاقهم المرَّ والاهوال بعد ان كان صديقهم لا يعمل الَّا برأي زعيمهم الشيخ بشير جنبلاط. والامير بشير هذا هو الذي كان السبب في قتل الشيخ بشير جنبلاط وهو الذي خرب ديارهُ ودكَّ حصونهُ واخذ اموالهُ وفعل مثل هذا الفعل ايضاً في مشايخ بيت ابي نكد وبيت العماد وهم من مشايخ الطبقة الاولى في طائفة الدروز . ولو ان الامير الجديد احسن السياسة لكان خضوع الدروز لاحكامهِ من الامور السهلة ولكنهُ اشتهر بالقسوة

الانكليز كفار ليسوا على دين مارون يجب على ابناء الطائفة المارونيَّة ان يقاوموهم و يضادوهم اينما حلوا حتى انهم لما التجأ بعض مشايخ بيت الخازن الى جناب الاميرال ناپير قصد انصافهِ من الظلم نقموا عليهِ وجاهر بطريركهم بعدوانهِ وضادوهُ بكل ما في قوتهم واتفق معهم الاتراك على مضادة الانكليز الذين احسنوا اليهم كل ذلك الاحسان فكافأُوا معروفهم بالخيانة وقابلوا مروءتهم بالكفر وردوا جميلهم بالدسائس والاكاذيب لاسباب لا تخفى على اللبيب ولو رزق الله ابناء البلاد عقلاً في تلك الايام لافهموا الدولة الانكليزيَّة ما نابهم من الظلم على يد الاتراك بدل ان يوالوا الاتراك على اخفاء الحقائق عنهم ولكنهم سعوا الى حتفهم بظلفهم وظهر من نتيجة جهلهم بعد ذلك بمدة قصيرة من المذابح والاهوال ما يشيب لهولهِ الاطفال

وكان سفير الانكليز في الاستانة يومئذٍ اللورد ستراتفورد دى ردكلف رجلاً حازم الرأي كثير الفطنة محبًا للخير شفوقًا على النصارى المظلومين يعرف عن الاتراك كل ما تهم معرفتهُ فارسل امرًا الى عمال دولتهِ في بلاد الشام يقول فيها ان دولتهم عاونت جلالة السلطان على امتلاك البلاد ٱلَّتِي ضاعت من قبضتهِ لانها تنازع كل خناسٍ ياخذ من بلاد السلطان شيئًا ما دامت الدولة حليفتها وينهاهم فيهِ عن التداخل في شؤون البلاد ويعلمهم ان يوم رحيلهم عن الشام قريب ويقول في آخر المنشور انهُ اذا قدمت لهم شكوى من احد الاهالي فعليهم بعرضها على حاكم البلاد التركي واخطارهِ بها في الاستانة فكان كلما جاءهُ خبر مظلمة يسعى برفعها في الحال ولو طالت مدة وجود

العساكر الانكليزيَّة في بلاد الشام لكانت البلاد في خير ونعمة ولكنها تبعت الجنود المصريَّة وتركت البلاد والعباد للاتراك يعيثون فساداً ويظلمون و يبغون

ثم تحولت الانظار الى نوع حكومة لبنان فعاد الاتراك الى نغمتهم القديمة وطلبوا ان يكون الوالي عليه منهم فعارضتهم الحكومة الانكليزية في ذلك واضطرتهم الى اعادة الامر الى الامراء الشهابيين ظنًّا منها بان ذلك يعود ببعض الخير على النصارى ويمنع دخول المفاسد والمظالم التركيَّة الى لبنان وكان الامير بشير شهاب الشهير الى ذلك الحين حاكم لبنان الرسمي فرأى اولياء الامر ان بقاءهُ على الامارة لا يجوز لانهُ كان واولادهُ في خدمة ابرهيم باشا فطلب اليهِ ان يسلم نفسهُ للسلطان ففعل ونفي الى مالطة ولذلك يعرف باسم الامير بشير المالطي الى اليوم وعين بدلهُ الامير بشير قاسم شهاب فسرَّ النصارى تعيينهُ وساء الدروز لان آل شهاب كانوا قد اعتنقوا الدين المسيحي واظهر امراؤهم في آخر الامر كرهاً للدروز وعزماً على ابطال سلطة مشايخهم وخصوصاً في آخر ايام الامير بشير المالطي الذي اذاقهم المرَّ والاهوال بعد ان كان صديقهم لا يعمل الأ برأي زعيمهم الشيخ بشير جنبلاط. والامير بشير هذا هو الذي كان السبب في قتل الشيخ بشير جنبلاط وهو الذي خرب ديارهُ ودكَّ حصونهُ واخذ امواله وفعل مثل هذا الفعل ايضاً في مشايخ بيت ابي نكد وبيت العماد وهم من مشايخ الطبقة الاولى في طائفة الدروز . ولو ان الامير الجديد احسن السياسة لكان خضوع الدروز لاحكامهِ من الامور السهلة ولكنهُ اشتهر بالقسوة

والفظاظة في معاملتهِ لاكابر الدروز وجعل يهينهم ويشتمهم كلما حضروا اليهِ في امر ويتوعدهم بسلخ املاكهم ونزع كل سلطةٍ منهم ويعاملهم معاملة لا تطيقها نفوسهم ولم يتعودوها من قبل ذلك الحين • فهاج من جراء ذلك الدروز هياجاً كبيرًا وجعلوا يتشاورون في الامر ويعملون على شق عصا الطاعة لا سيما وقد كثر عليهم الطلب بجمع المال الكثير لسد جوع الحكومة التركيَّة وعمالها الذين ما صدقوا ان عادوا إلَى امتلاك الشام حتى صاروا يبحثون عن كل وسيلةٍ تمكنهم من اشباع بطونهم واختلاس اموال الناس وتخطف امتعتهم وحرمانهم من لذة العيش ولم يرَ الامير الجديد بدًّا من تلبية طلب الولاة الاتراك وجمع الاموال المطلوبة قياماً بتعهدهِ في جمع الاموال ومحافظةً على مركزهِ لانهُ كان يعلم ان الذي لا يشبع بطن الاتراك لا يبقى على الحكم زماناً في دولتهم • وبدأ الناس يشعرون بثقل الحمل الذي عاد إلَى ظهورهم ويرون الفرق بين حكومة الاتراك وحكومة ابرهيم باشا حتى ان بعضهم جعل يخابر في اعادة السلطة المصريَّة ولكن ذلك امر ضاع من قبضتهم لم يحافظوا عليهِ في حينهِ بل اغتروا بدسائس الاتراك وانقادوا لحيلهم فوقعوا في شر جهلهم وعدم تبصرهم

وفي هٰذَا الحين بدأت الدسائس الدوليَّة تهيئ البلاد للثورة والحرب فبينما كان الاتراك يهيجون الدروز على النصارى والنصارى على الدروز قصد الانتقام من الطائفتين وصيرورة الجبل إلَى قبضتهم رأت الدولة الافرنسيَّة ان آمالها خابت في بلاد الشام مرتين على يد الانكليز فمرة طردت عساكرها منها على عهد نابوليون بونابارت ومرة

عاد ابرهيم باشا عنها وكانت هي العضد الوحيد لهُ بين دول اوروبا ولهذا رأت ان تعمل على تقوية حزبها وزيادة نفوذها توصلاً الى امتلاك البلاد بقوة هذا الحزب ومساعدتهِ في احد الايام ولما كان الموارنة ينتمون اليها وهم تحت حمايتها كما تقدم صار قناصل فرانسا يروحون ويجيئون إلَى دار البطريرك الماروني ويخابرونهُ في ما يريدون وارسلت اليهِ الدولة الافرنسيَّة في ذلك الحين نصف مليون فرنك لينفقهُ في سبيل غاياتهِ وغاياتها وكان ارسال هٰذَا المال على طريقةٍ علنيَّة فجعل الموارنة يفتخرون بالامر ويتباهون بمساعدة فرانسا لهم ويقولون انهم سوف يسحقون الدروز سحقًا وينزعون كل سلطةٍ من ايديهم وكان الامراء الشهابيون قد صاروا تحت سلطة البطريرك واعوانهِ وبدأوا بمساعدتهِ على ما كان ينوي من مدّ نفوذهِ ونفوذ فرانسا ولكنهم لم يعلموا بالدسائس الافرنسيَّة الَّا بعد حين . واصدر بطريرك الموارنة في ذلك الحين منشورًا إلَى اهل طائفتهِ شدد عزائمهم فيهِ على المجاهرة بالعدوان اذ امرهم بانتخاب اثنين منهم في كل قرية يكونان مسئولين لدى الحكومة عن كل اعمالها ويقضيان في كل مسائلها فقابله النصارى بالتهليل والتكبير وضرب البنادق وفرحوا لنشرهِ فرحًا زائدًا وبالغوا في اظهار السرور والشماتة ومشايخ الدروز امامهم ناقمون على ضياع السلطة منهم يحسبون الحساب لقيام القوم عليهم لان هذه السلطة كانت مختصة بهم ورثوها عن آبائهم واجدادهم فاشتدَّ النفور وبلغ العداء حدهُ وكان ذلك مقدمة المذابح الهائلة والفظائع المنكرة والدسائس الدنيئة والامور الرديئة ٱلَّتِي ظلَّت تعمل في بلاد الشام

حوالي عشرين عاماً وانتهت بانتهاء حوادث سنة ١٨٦٠ ٱلَّتي سيأتي ذكرها

ولحظ قناصل الاجانب في بيروت ان الدسائس ٱلَّتي ذكرناها ستؤول إلَى الحرب يوماً فحذروا واندروا و بعثوا إلَى دولهم بواقعة الحال ولما سئلت الحكومة التركيَّة عن تلك الامور انكرتها وادعت ان الامن مستتب وان البلاد في هناء ورخاء لم ترَ نظيرهما وكانت تخشى ان تعرف الدول مكايدها وسوء ادارتها فتعود إلَى مساعدة الدولة المصريَّة او غيرها وتسلخ البلاد منها فتجاهلت سر الدسائس ٱلَّتي كان عالما وعال فرانسا يلقونها و بعثت إلَى كل حاكم في بلاد الشام ولبنان بنوع اخص تأمرهم بكتابة التقارير الكاذبة عن راحة الاهلين وسكون البلاد ونجاحها في ظل الدولة التركيَّة وتقول ان الناس على اختلاف اديانهم واحوالهم يشكرون الله الذي خلصهم من يد الحكومة المصريَّة ورحمهم بعود الدولة التركيَّة وشددت على الحكام باكراه الناس على ختم هذه التقارير وبنوع اخص في بلاد النصارى فدار العساكر في كل صوب على الناس يضطرونهم بالضرب والحبس والتعذيب والاهانة او بالتمليق والتمويه والحيلة إلَى ختم هذه الاوراق فختموها وقدمتها تركيا للدول دليلاً على تعلق الناس بها وحسن ادارتها . وهذه عادة متمكنة في الاتراك يظلمون الناس ويستحلون دماءهم واعراضهم واموالهم ثم يدورون على الباقين منهم ليختموا لهم على التقارير الكاذبة القائلة بسرور الناس من عدلهم وسوف نجيء على ذكر هذه التقارير في ما يلي وننقل بعضها بالحرف الواحد مع الكتب ٱلَّتي صحبتها للحكام حتى

يرى القارئ كيف تتصرف هذه الدولة بالآمنين في ظلها وكيف تخدع الذين يطالبونها بالعدل من اهلها

قلنا ان القناصل بعثوا بالتقارير إِلَى دولهم ولم تجدِ نفعًا لان الاتراك ابرع الناس في الاختلاق والتمويه وتضليل العقول واخفاء الحقائق فسدلوا الستار على قبائحهم في الشام واقنعوا اوروبا بصحة تلك الاسماء والاختام . الأ ان بعض الوكلاء ظلوا يحذرون دولهم من عاقبة تلك الادارة الدنيئة وكان في مقدمتهم قنصل دولة روسيا وقنصل دولة انكلترا وهو يومئذٍ الكولونل روز البطل الشهير الذي يرن ذكرهُ في جوانب الشام إِلَى هذه الايام ومن ضمن ما قالهُ هٰذَا الرجل العاقل ما ترجمتهُ بالحرف الواحد «ان سوء الادارة التركيَّة واجتهاد عمال السلطان في زرع بذور الشقاق والشحناء بغية ايقاع الطوائف بعضها ببعض واكتساب النفوذ من هٰذَا التنافر صار إِلَى درجة يخشى معها من حرب تروح فيها الارواح بلا ثمن . ثم ان اكليروس الموارنة يظهرون ان في نيتهم امتلاك السيادة في لبنان ولو ادَّى ذلك إِلَى الحرب» وكانما هٰذَا الرجل كان ينبئ بالامور السوداء التي قرَّحت الآماق وطبقت بذكرها الافاق وادت إِلَى ضياع الارزاق وقطع الاعناق والعناء الذي حلَّ بالباقين بعد تلك المذابح من فقد الاهل والرفاق . امور لا تطاق وشرور نهى عنها الحكيم الخلاق

كل هٰذَا والدروز الذين نكلوا بعدئذٍ باعدائهم لم يحركوا ساكنًا ولم يظهروا غير حب البقاء على حالهم الاولى فصاروا ينظرون إِلَى هذه الامور ويحسبون الحساب للمستقبل ويتهيأون للدفاع او للحرب واما

النصارى فاسكرتهم جرأة البطريرك ومساعدة الامير بشير لهم ولم ينظروا في الغيوم ألّتي كانت تتلبّد فوق روؤسهم. و ياليتهم اقتصروا على معاندة الدروز واكتفوا بذلك ولكنهم حاولوا قتل كل من لم يكن على معتقدهم فاغروا الامير بشيراً على قفل مدارس الانكليز والامير كان في الجبل ومع ان نعمان بك جنبلاط سار إلَى بطريركهم و رجاهُ ان يساعدهُ على ابقاء هذه المدارس لنفع الاولاد من الطائفتين فلم يقبل بغير ما رآهُ وكان يومئذٍ مطران بيروت الماروني عند البطريرك فقال لنعمان بك انهُ سوف يبطش بكل درزي ويخضع كل هرطوقي عن قريب لارادتهِ فعاد نعمان بك وهو من اشرف اشراف الدروز وقص الحكاية على اعوانهِ وذويهِ فامتلأت الصدور غيظاً وحنقاً ولم يعد في امكان الدروز الصبر على كل ذلك العدوان فعمدوا إلَى مكاتبة اهل طائفتهم بالامر وطلبوا إلَى كل درزي ان يكون على اهبة الحرب اينما كان وهذه عادتهم في الملمات ينضمون إلَى امرة مشايخهم و يتحدون على اعدائهم وما نجحوا الاَّ بهذا الاتحاد وهذا الانقياد الغريب لرؤساء طائفتهم وما عرف عنهم من البسالة وحب الحرب والمقدرة على احتمال مشاقها واهوالها

وكأنَّ البطريرك آلى على نفسهِ ان يكون السبب في الحرب وسفك الدماء فاصرَّ في تلك السنة على عدم دفع الاموال الاميريَّة عن الموارنة حسب العادة وهو يعلم ان غاية الاتراك من حكم البلاد جمع اموالها وبدأ رجال هذه الطائفة يقولون في انفسهم ان ليس للسلطان حق في جمع المال منهم وكان الدروز في ذلك الحين اكثر الناس

ميلاً إلَى تلبية مطالب الدولة لانهم خافوا ان تنصر النصارى عليهم مع كثرة عددهم وارادوا ان يستميلوها بهذا الخضوع تخلصاً من سيطرة البطريرك عليهم وفراراً من غيظها ففعلوا بذلك فعل الحكماء العاقلين وظهر الفرق بينهم و بين اخصامهم الذين سلكوا مسلك التهور والعداء المضر. ثم ان الدروز جعلوا يخنمون اعراضاً إلَى الباب العالي مآلهُ انهم اكثر الناس ميلاً إلَى طاعة السلطان خلافاً لاخصامهم وانهم حاربوا مع سلاطين المسلمين في كل الحروب وذكروا ما كان من مقاومتهم لابرهيم باشا في المدة الاخيرة وطلبوا الى الباب العالي في آخر الامر احد امرين اما ان يولي على الجبل واحداً من امرائهم او ان يرسل والياً تركيًا عليهِ من الاستانة وكانوا يعلمون ان الاتراك يبذلون النفس والنفيس في سبيل تحقيق هذه الامنيَّة. وظن الدروز بذلك انهم يستريحون من حكم البطريرك والامير بشير قاسم وما حسبوا ان الاتراك مع ما اشتهر عنهم من الميل إلَى وضع اليد عَلَي الجبل كانوا يؤثرون في تلك الاحوال ان تبقى اسباب الجفاء والمباغضة وان تبطش احدى الطائفتين بالاخرى وهي قاعدة نتفرج عليهما حتى اذا ضعف الجبل من وراء الحرب الاهليَّة وظهر للملإِ عدم كفاءة الحكام اللبنانيين لادارة شوون جبلهم عمدت إلَى تحقيق رغبتها وعينت عليهِ احد طغاتها

واشتد الكره بين الطائفتين لسبب آخر علتهُ التعصب الديني ايضاً ذلك ان الموارنة اكتسبوا في ايام الامير بشير الكبير نفوذاً عظيمًا حتى انهم داسوا حقوق الروم والبروتستانت وغيرهم من الطوائف

الاخرى ٱلَّتِي لم توافقهم عَلَى مذهبهم. ولما علم بطريركهم ان الانكليز قادمون مع جيوش الاتراك في سنة ١٨٤٠ إِلَى بلاد الشام اسرع إِلَى تلبية قنصل فرانسا فاعلن ان الانكليز اكفر الكافرين وحرم كل واحد يخلط بهم اقل اختلاط وقال باطفاء عيني كل نصراني يرى بعينهِ مراكبهم. وكان الامير بشير قاسم مثل سلفهِ بطاعة الموارنة فلما اقام عساكر الانكليز مدةً في لبنان سرى بين الدروز اعتقاد انهم من آل حمزة وكان الباعث عَلَى هذا الاعتقاد بعض اكابرهم الذين رأوا ان يحالفوا الانكليز على الموارنة وصار الدروز من ذلك اليوم اصدقاء الانكليز ورجالهم في بلاد الشام وانتبهت انكلترا إِلَى هٰذَا الامر فرضيت عن توددهم وصيرتهم حزبها في البلاد وصار قنصل فرانسا من ناحية والبطريرك من ناحية أُخرى يحثون الناس عَلَى كره الانكليز وكل من والاهم فكان ذلك باعثًا على زيادة التضاغن بين الدروز والموارنة على ما تقدم

واخيرًا ظهرت نتائج كل هذه المقدمات وبدأَت الحرب. وكان ابتداء القتال في اليوم الرابع عشر من شهر سبتمبر سنة ١٨٤١ ولم تسترح البلاد منهُ من ذلك اليوم إِلَى ان مرَّت عشرون سنة كانت البلاد فيها فوضى والطائفتان في نزاع مستمر. وتحرير الخبر ان بعض شبان دير القمر نزلوا إِلَى الوادي الفاصل بين بلدتهم وبين قرية بعقلين ودخلوا ارضًا لشيخهم ناصيف بك ابو نكد فاصطادوا فيها طيرًا وقام لهم الحراس الدروز من اتباع ناصيف بك فاوسعوهم ضربًا ولكمًا وطردوهم من الارض ولما عاد هؤُلاء الشبان إِلَى دير القمر وآثار الضرب ظاهرة

عليهم هاج ذووهم واصحابهم واسرع نحو ستين رجلاً منهم الى مكان الخصام وبدأوا باطلاق النار على الدروز وكان هؤلاء قد احسوا بان النصارى بعثوا إلَى دير القمر يطلبون المدد ففعلوا فعلهم وجمعوا حوالي مايتي رجل وانتشب القتال بين الفريقين فقتل من النصارى خمسة رجال وجرح ثمانية وقتل من الدروز ستة عشر رجلاً وجرح ستة عشر آخرون وكان الدروز يتجمعون من القرى المجاورة على رجال النصارى حتى بلغ عددهم حوالي ستماية رجل و رجال دير القمر من النصارى يتأهبون لمعاونة اخوانهم فحدث من حسن الحظ ان الكولونل روز قنصل انكلترا العام وقتئذٍ كان مارًّا في تلك الانحاء وسمع بالامر فاسرع من فورهِ إلَى محل القتال واستصحب معهُ شيخًا من مشايخ الدروز حتى اذا وصل القوم ورأى الرصاص يطلق من الجانبين دخل بين الصفين مخاطرًا بحياتهِ ورفع يدهُ للقوم فعرفوهُ من الناحيتين وصار يصرخ فيهم ان ابطلوا القتال واسمعوا قولي فرضخوا لاشارتهِ في الحال لانهُ كان رجلاً مهابًا عظيم القدر معروفًا بالتعقل والبأس في جميع انحاء البلاد و بطل القتال فتقدم الكولونل روز الى زعماء الطرفين واقنعهم بوجوب المصالحة فتصالحوا وعاد كل فريق إلَى محلهِ وقد دمل الجرح عَلَى دغل وكانت هذه اول مواقع الحرب العظيمة ٱلَّتي لم تطفأ نارها الاَّ في سنة ١٨٦١

وكأَنَّ النصارى آلوا عَلَى انفسهم ان يجلبوا عَلَى ذاتهم كل اشكال البلاء فجعلوا يتعرَّضون للدروز ويعتدون عليهم في انحاء أُخرى من البلاد في حين ان البطريرك الماروني وعمالهُ كانوا يأتون كل حيلةٍ

للتسلط عَلَى العقول واستلام الاحكام ومحق الدروز وابطال امتيازاتهم فجعل الدروز يتأهبون للقتال الشديد ودارت المخابرة بين مشايخهم في كل اطراف البلاد وامتلأت المسالك برسلهم الذاهبين والايبين وهذه عادتهم يتفقون سرًّا عَلَى نوع القتال واحوالهِ قبل الشروع فيهِ بين ان اعداءهم يقصدون من غير استعداد فياخذونهم عَلَى حين بغتةٍ ويفاجئونهم بكل بلاء شديد. قلنا ان النصارى اعتدوا عَلَى الدروز من بعد الحادثة أَلَّتِي ذكرناها ذلك انهم قتلوا ثلاثة من الدروز في جزين ذهبوا اليها من قبل آل جنبلاط ليجمعوا اجر املاكهم وارضهم منها وكان الدروز قد تأثروا من قتل الذين وقعوا في المعركة أَلَّتِي ذكرناها وبينهم اربعة من بيت عماد وهم عائلة شهيرة تقرب من بيت جنبلاط في الوجاهة ولها شهرة عظيمة في البسالة فجعلوا يعتدون عَلَى النصارى اينما وقعوا بهم حتى انهم القوا الرعب في القلوب وارتكبوا أكثر من اربعين جريمة ما بين قتل ونهب في مدة شهر واحد حتى صار انتشاب الحرب العموميَّة من الامور المحتمة ولكن لم يخطر ببال النصارى وقتئذٍ ان الدروز قضوا ذلك الشهر كلهِ في الاستعداد والتأهب وضم قواتهم بعضها إِلَى بعض من كل الانحاء وهم ساهون لاهون حتى اصبحوا في يوم ١٣ اكتوبر (ت ١) من سنة ١٨٤١ ورأوا بلدتهم — دير القمر — محاطة بالدروز من كل جانب فكثر القلق وساد الاضطراب ورأى الناس الموت عَلَى مقربةٍ منهم فكانوا يسمعون اناشيد الدروز و يصرخون من الخوف و يتوجعون من الاضطراب واولادهم ونساؤهم يبكون بكاء يفطر المرائر فتجمعوا بسلاحهم الكامل واقروا عَلَى المقاتلة من داخل

اسوار البلدة وظلوا فيها اربعة ايام ينتظرون هجوم الدروز عليهم والقلوب ترتجف من الخوف اذ كانوا يرون اعداءهم يحرقون المزارع والمنازل المجاورة للبلدة وينهبون كل ما فيها وهم لا يجسرون عَلَى الخروج اليهم لكثرة عددهم وانتظام جيوشهم تحت قيادة المشايخ من بيت ابي نكد وعماد . وكان الامير بشير قاسم حاكم جبل لبنان في دير القمر وهو عدو الدروز يرى بعينهِ تلك الامور ولا يجسر عَلَى قولٍ ولا عمل حتى زاد الكرب واشتد الضيق واحترقت كل املاك النصارى في خارج البلدة وقتل كثيرون منهم ممن كان ساكنًا في مزارعها او قادمًا اليها من سفر وانقطع ورود الماء الى مطاحنها بتدبير مشايخ الدروز فتقدم وجوه النصارى إِلَى الامير وسالوهُ ان يبدي رايًا او يأتي فعلاً ويمنع فتك تلك الجموع بالنصارى اذا امكن لهُ ذلك فارسل الامير محمودًا ابن الامير بشير الكبير يرجوهم ان يرجعوا عن البلدة وان يخابروهُ في ما يريدون وهو يخرج اليهم إِلَى عين السوق اذا شاءوا فلم يسمعوا لهُ قولاً وتقدموا على المدينة وكان في داخلها اناس منهم من بيت ابي نكد وهم اصحاب دير القمر واسيادها من عهدٍ بعيد كانوا في بيوتهم لا يخرجون منها مع كل ما حدث من الامور إِلَى ان رأَوا اشارة من معسكر الدروز فصاحوا في الحال جذلاً وهجموا على من كان معهم في دير القمر من النصارى مع الذين كانوا كامنين في بيوتهم من اعوانهم فقتلوا اربعين نفسًا واقلقوا البلدة بصياحهم وهجومهم وكان الدروز المحيطين بالبلدة في ذلك الحين يتقدمون عليها ويضرمون النار في بيوتها فلما رأَى النصارى الويل محدقًا بهم من داخل بلدتهم

ومن خارجها اضطربوا اضطراباً لا نظير لهُ وصار النساء والاطفال يركضون هرباً من فتك الدروز بهم والرجال يتجمعون في اواسط البلدة ليمكن لهم الدفاع عن انفسهم وقد رأوا المنية بعيونهم وايقنوا ان الآخرة جاءت فعزموا على الدفاع حتى يقتلوا عن آخرهم وتركوا الدروز يحرقون و ينهبون في البيوت والمخازن المتطرفة فانحصرت قوتهم في الميدان الكائن في وسط المدينة و بينما هم على وشك الشروع في اطلاق الرصاص اذ سمعوا بقدوم كبير من بيروت فاطمانت خواطرهم وهدأ روعهم وحمدوا الله على الخلاص من هاتيك الجموع وكان ذلك الكبير ايوب باشا جاء من قبل الوالي التركي بناء على طلب الكولونل روز قنصل انكلترا الجنرال الذي حضر معهُ ايضاً بقصد اطفاء نار الفتنة. وكان هذا الرجل الحازم (الكولونل روز) قد سمع بالحكاية من احد الفارّين في يوم ١٤ اكتوبر (ت ١) سنة ١٨٤١ فقام إلى السرعسكر والوالي ولم يتركها حتى ارسلا معهُ ايوب باشا هذا وحضرا على ما تقدم فبطل القتال من الناحيتين

ولكن وجود ايوب باشا والكولونل روز في دير القمر لم يفد غير فائدة وقتية لان الدروز كانوا قد صمموا على القتال إلى ان يفضّ بحد السيف كل خلاف وظلّ النصارى في البلدة يرجون ايوب باشا ان يرجع الدروز عنهم وان يامرهم باعادة مياه المطاحن إلى مجاريها لان حبسها اضرّ بهم ضرراً كبيراً فامرهم بذلك ولم يطيعوا لهُ امراً وظلوا يقتلون كل من وقع في ايديهم من النصارى ويحرقون و ينهبون والامير والباشا في دير القمر لا يدرون ماذا يعملون حتى صدر الامر

إلَى ايوب باشا بالرجوع إلَى بيروت وأُرسل مكانهُ تركي آخر اسمهُ سليم بك مع قاضي بيروت ومحصلها فلما وصل هؤُلاء اصدروا امر السر عسكر سليم باشا إلَى الامير بشير بالانسحاب معهم من دير القمر فتراكض النصارى عَلَى اقدامهم واعلموهم بالخطر العظيم المحدق بهم فحاول هؤُلاء الموظفون ارجاع الدروز عن غيهم ولم يمكن لهم ذلك وكانت فرق الدروز تتوارد عَلَى دير القمر من حوران ووادي التيم وكل الانحاء وجيشهم يقوى يوماً بعد يوم والخطب يتفاقم والناس في ضيق شديد من جراء ذلك. وسمع بطريرك الموارنة بهذه الامور فقام وقعد وارغى وازبد واقسم انهُ لياخذنَّ لبني جنسهِ بالثار ويذود لهم الدمار ويحمي الديار وكان مريضاً عَلَى سريرهِ فابى الاَّ ان يقوم لمحاربة الدروز عَلَى اكتاف الرجال وبدأ بالاستعداد وجمع الاهبة والرجال . واصدر مطران زحلة للروم الكاثوليك منشوراً إلَى ابناء طائفتهِ يدعوهم فيهِ إلَى الجهاد ويوصيهم بالحرص عَلَى نصرة الدين ومحاربة الدروز اينما حلوا وينهاهم عن ارتكاب المنكر والتعرض للنساء ولكنهُ يبيح لهم القتل والحرق والسلب لانهُ عدَّ ذلك من لوازم الحروب الدينيَّة . والتهبت نيران الثورة في الجبل كلهِ فلم يعد للقوم حديث غير الحرب واشتغلت كل نفس بالاستعداد للهجوم والدفاع

وحصلت مناوشات كثيرة بين الدروز والنصارى في هذه المدة سناتي عَلَى ذكرها بالاختصار وكان النصر في اكثرها للدروز ذلك لان النصارى كانوا فرقاً واحزاباً لا تنضم منهم قرية إلَى أُخرى الاَّ بعد الجهد الجهيد ولان الدروز كانوا يدهمونهم عَلَى غير انتظار منهم

ويأتونهم بقوة تزيد عن قوة القرى ٱلّتي يفاجئونها بالهجوم . وكانت غاية النصارى الاولى من هذه الحروب الافراج عن دير القمر لانهم سمعوا بمصاب اهلها وكانت هي مدينتهم الكبرى ومركز تجارتهم وحركتهم فجعلوا يهتمون بذلك ويزحفون إِلَى ناحيتها ولكنهم لم ينجحوا كثيرًا لان الدروز كانوا اقوى منهم ولان بعض النصارى من طائفة الروم الارثوذكس كانوا ينضمون إِلَى الدروز قسرًا واضطرارًا ويحاربون الموارنة . وبعضهم كان يكره الموارنة لتغطرسهم واعتبارهم كل نصراني عَلَى غير مذهبهم الماروني هرطوقيًا يجوز قتلهُ وسلبهُ ولطالما قاسى الروم والبروتستانت الاهوال من الموارنة في ايام الامير بشير الاول والثاني فلهذا انضمَّ بعضهم برضاهُ إِلَى الدروز والبعض الآخر خوفًا من قوة المشايخ كما تقدم . واخضع الدروز القرى النصرانيَّة كلها في مدة عشرة ايام وحرقوا اديرتها وكنائسها واستولوا عَلَى اموالها كما سيجيء . كل هٰذَا وجموعهم واقفة حول دير القمر واهلها يستغيثون وليس من يرحم حتى اذا مرَّ عَلَى هٰذَا الحال ثلاثة اسابيع طلب مشايخ الدروز الى سليم بك ومن معهُ من الموظفين ان يأمروا النصارى بتسليم اسلحتهم اليهم وتهددوا البلدة بالدمار وقلع الآثار وسبي الحرائر والابكار اذا لم يجب هٰذَا الطلب بغير ان يضطروا إِلَى التكرار . نخاف النصارى عاقبة الامر وتراموا عَلَى اقدام سليم بك فاظهروا لهُ خوفهم من غدر الاعداء بهم اذا سلموا السلاح ورجوهُ ان يرسل إِلَى بيروت بطلب خمسماية جندي من جنود الحكومة تقيهم شر الغدر فيسلمون لهم السلاح والنفس منهم طيبة فاجابهم هٰذَا التركي ان طلبهم صعب لا يجاب ولم يسمع الناس

إِلَى الآن بمثل هٰذَا الجواب كيف ان حكومة مكلفة بحفظ الامن في بلادها ترى الاهالي يقومون بعضهم عَلَى بعض والعساكر عندها الوفًا مؤلفة فلا ترضى بارسال بعضهم لوقاية الذين في الخطر . ولكن هذه الامور كانت كلها بامرها ودسائسها وسوف يجيء بيان ذلك في ما يلي ان شاء الله . فلما رأى النصارى ان المركز حرج وان الدروز مصممون عَلَى استلام اسلحتهم وعرفوا انهم عَلَى الحالين سيقتلون اذا ظلوا على العناد طلبوا إِلَى المحاصرين ان يعطوهم الامان و يتعهدوا لهم بعدم الاقدام عَلَى قتلهم فيسلمون اسلحتهم في الحال فقبل الدروز بهذا الشرط وكتب مشايخهم صكوك الامان وهذه صورتها بحروفها «عليكم امان الله وراي الله وراي سيدنا محمد رسول الله وراي سعادة سليم باشا وثم راينا عَلَى دمكم ومالكم وعرضكم» . وظهر للنصارى من نسق هذه الكتابة ان الدروز ينوون غير هٰذَا الامان ولكنهم فوضوا الامر لله وسلموا اسلحتهم وهم في هم كبير وقلق كثير . ولم يمضِ عَلَى هٰذَا زمان طويل حتى اوعز الاتراك إِلَى الامير بشير ان يترك البلدة وكان فيها اسيرًا لا فائدة منهُ لاهلها فرضي بذلك وخرج ومعهُ بعض اعوانهِ فلقيهُ الدروز في الطريق واهانوهُ اهانة كبرى واخذوا منهُ سلاحهُ بالعنف بعد ان جرحوا اصابع يديهِ ولم يسمحوا لهُ بالمرور من بينهم حتى اخذوا عمتهُ واكثر ثيابهِ وثياب الذين معهُ وتركوهم عراة حفاة واطلق بعضهم عليهِ الرصاص فاخطأهُ وكان كل ذلك بعد تعهد الدروز بعدم التعرض لهُ في طريقهِ واعطائهِ الامان بخط زعمائهم وختم اكابر مشايخهم ولكن القوم نسوا كل شيء في تلك الايام ما خلا

الاحقاد وما صدقوا ان خرج الامير من دير القمر حتى دخلوها وذبحوا العدد العديد من اهلها ذبح الغنم حتى ان بعض المشايخ من آل ابي نكد نكلوا بالذين قضوا العمر في خدمتهم من النصارى ولم يرحموا كبيرًا ولا صغيرًا فنفر منهم النصارى نفورًا عظيمًا وعولوا من ذلك اليوم عَلَى ان لا يعودوا إِلَى تحت سيادتهم ولو كلفهم ذلك فقد ارواحهم وقد تمّ ذلك وسقط بيت ابي نكد العظيم من ذلك اليوم وطردوا من دير القمر وهم الآن مثل بقية الدروز مع ما سبق لهم من ايام العز والسودد

قلنا ان الدروز قتلوا الذين امنوهم على ارواحهم في ذلك الحين وداروا على البيوت والمخازن فنهبوها وحرقوها ولم يتركوا على النساء حليةً ولا رعوا لصك الامان حرمة ولا اخذتهم على عاجز او طفل شفقة ووضعوا يدهم على املاك النصارى فصيروها لهم واتوا كل موبقة ما خلا هتك الاعراض فالحق يقال ان هذه الطائفة تراعي العرض وتصونهُ في احرج الاوقات وتوصل اذاها إِلَى كل نفس وكل شيء ما خلا النساء وهو فضل ينشرح لهُ الصدر حين قراءة ما تقدم من الفظائع والاهوال . عَلَى ان الذي حدث في دير القمر من المصائب في سنة ١٨٤١ لم يكن بالشيء الذي يذكر في جانب الذي تم فيها سنة ١٨٦٠ وهي سنة الهول والبلاء ولا يقاس بالذي جرى في انحاء سوريَّة فِي تلك السنة السوداء ايضًا مما سنشرحهُ فِي هٰذَا الكتاب وقد ضاق الصدر من ذكره قبل ان يجيء القلم عَلَى تفصيلهِ

واما الذي حدث في القرى الاخرى اثناء محاصرة الدروز لدير القمر في شهري سبتمبر واكتوبر من سنة ١٨٤١ فنسردهُ هنا بالاختصار

الكثير منهُ الذي حدث في مزرعة الشوف عَلَى مقربةٍ من بيروت وهو ان فرقة من الدروز اغارت عَلَى القرية فهرب الرجال منهم وكانوا يظنون ان عوائدهم المعلومة تمنعهم من ايصال الاذى إلَى النساء فابقوهنَّ فيها وقصدوا جزين لينضموا إلَى اهلها فدخل الدروز القرية وحرقوا منازلها ونهبوا ما عَلَى النساء فيها واخذوا غلالها ووضعوا يدهم عَلَى ارزاقها وانتقلوا منها إلَى القرى المجاورة فنهبوا كنيسةً وحرقوا ديرًا وملكوا كل ما وصلت اليهِ ايديهم وقتلوا عدة رجال وجرحوا نساءً كثيرات . ثم ساروا إلَى جزين وكان قد وصل إلَى هذه القرية فرقة غير هولاء المهاجمين جاؤُوها من جيش دير القمر تحت امرة الشيخ سعيد جنبلاط وكان اول فعالهِ انهُ ارسل إلَى النصارى في القرية يطلب سلاحهم بدعوى انهُ مفوض من الدولة التركيَّة بذلك فصدقوهُ وقاموا بامرهِ وفي تلك الليلة خان العهد والمروءة وهاجمهم ليلاً فقتل منهم سبعين نفسًا وفرَّ الباقون في خوف ورعب عظيمين بعد ان نهبت اموالهم وتلفت حاصلاتهم واحرقت منازلهم وتعقبهم هذا الشيخ إلَى قرية بكاسين فدير مشموشة فبتدين القش فكان في كل بلدة يعد النصارى في اول الامر بالذود عنهم ثم يغدر بهم ويفتك بابريائهم وساعدهُ عَلَى ذلك اناس من المسلمين والمتاولة جاؤُا لمساعدتهِ من انحاء صيدا بتحريض الحاكم التركي وكانوا في كل بلدة يقصدون الاديرة والكنائس قبل سواها فينهبونها ويحرقونها ثم يدورون عَلَى المنازل فياخذون ما فيها ويحرقونها وكان في جملة القتلى عدد كبير من الرهبان والنساء والاطفال وفعلوا مثل ذلك في عين الجوزة وجرنايا وجرجوع وعبرا والديه وعين

تراز وشرتون والعرقوب وبلاد الشحار والجرد وغيرها من القرى في اقليم جزين واقليم التفاح وكلها قصتها واحدة من الخيانة والغدر ثم القتل والحرق والسلب وما يتبعها من آيات التوحش وفظائع الحرب الاهلية

وكان الامير بشير قبل خروجهِ من دير القمر قد رأى ان الدروز احاطوا بهِ وببلدتهِ احاطة السوار بالمعصم وصاروا كلهم من اعدائهِ فارسل إلى القرى التي يكثر فيها النصارى في السواحل يامرها بارسال جيش منهم لمساعدتهِ على الدروز واجتمع فريق كبير منهم في بعبدا والحدث وغيرها من القرى المجاورة لبيروت قياماً بامرهِ فاحسَّ بهم الدروز وجاؤوا لمحاربتهم فكسروهم بعد القتال الشديد بمساعدة عسكر الاتراك الذي كان واقفاً على مقربة من المتحاربين بدعوى انهُ محافظ على الامن وكان هؤلاء الاتراك اذا رأوا نصرانياً فاراً للالتجاء بهم او ماراً على مقربةٍ منهم يرمونهُ بالرصاص فيقتلونهُ حتى انهم لما فرت النساء إلى ناحيتهم وكان الدروز قد تركوهنَّ بدون ان يتعرضوا لهنَّ اتوا مع اولئك الفارّات الخائفات الامور البهيمية المنكرة وقتلوهنَّ واخذوا ثيابهنَّ عن ابدانهنَّ وعذبوا الاطفال تعذيباً حتى صاح النساء في الدروز ان خذونا انتم واقتلونا ولا تسلمونا لهؤلاء الاتراك . كل ذلك ورجال هذه الدولة يقولون انهم ارسلوا هؤلاء العساكر ليحافظوا على الامن ويمنعوا الاعتداء وهذه عادتهم في كل حرب للنصارى مع بقية الطوائف يفتكون بهم وينصرون الاعداء عليهم وهم الذين يحرضون الاعداء على قتالهم ويقولون بعد كل هذا ان جيوشهم المظفرة ذهبت

لتحافظ على الامن وتمنع الاعتداء ولم تكن هذه عادة الحكومات في رعيتها ولا شيمة الحكام في الذين اقامهم الله للمحافظة على دمائهم واعراضهم واموالهم ولا سمع مثل هذا الغدر وهذا الجور عن سلاطين المسلمين وحكامهم في غير ايام الدولة التركيَّة

ولما مرَّ الامير بشير وهو قادم من دير القمر على الحالة التي وصفناها رأى اعوانهُ يقتلون ويعذبون والعساكر يفعلون ذلك على مرأى من ضباطهم فهالهُ الامر ولكنهُ فطن إلى نفسهِ وادرك سرَّ الحكاية ففاض الدمع من عينيهِ على ما رأى من مصاب الامهات والاخوات اللائي كنَّ يندبنَ القتلى وينحنَ على الاقارب والاحباء وتفطرت مرارتهُ اذ سمع صراخ الاطفال وعويلهم ورأى الدم يسيل من جوانب الاولاد والبنات والعاجزين وهم ينتحبون ويطلبون الرحمة من الله ومن عساكر الاتراك وهؤلاء الوحوش الضارية يضحكون لبلواهم ويسرون بتعذيبهم وقتلهم فصار الامير المسكين يبكي مع الاطفال والنساء بكاء مرًّا وجاء إلى قائد تلك العساكر التركيَّة فرجاهُ باسم الله والسلطان ان يرحم اولئك الابرياء المساكين ويامر عساكرهُ بالامتناع عن قتلهم وتعذيبهم اكتفاء بالذي فعلهُ الدروز من قبلهم فضحك ذلك الوحش الدنيء من فعل الامير وهزأ بشفقتهِ وامرهُ ان يسير في الحال إلى بيروت فسار والحرقة ملء الفؤاد

وكان الدروز بعد هذا النصر ينوون ان يتقدموا على كسروان ويفتكوا بالموارنة وبطريركهم فرأى الشيخ نعمان جنبلاط (اخو الشيخ سعيد الذي ذكرناهُ وابن الشيخ بشير) ان العداء زاد عن الحد ومنع

قومهُ عما ينوون فعادوا بامرهِ ورأَى البطريرك ان طنطنتهُ لم تفد ومساعيهِ لم تنجح وعلم ان الدروز فتكوا بقومهِ وملكوا البلاد نخاف العاقبة واراد الفرار بنفسهِ نخابر في ذلك قبطان احدى البواخر الانكليزيَّة ورجاهُ ان يحميهُ من الدروز وفاتهُ انهُ كان قبل ذلك بايام قليلة يحرم كل من يحوّل نظرهُ إِلَى مراكب الانكليز ويحلل قتل كل من والاهم ويعدهم اكفر الكافرين

وسمع قناصل الدول بهذه المجازر فتحققت مخاوفهم وصدق ظنهم في الاتراك لان معظمهم كانوا يعلمون ان الحكام جعلوا همهم تدبير مكيدة لاضعاف النصارى وتقليل جموعهم في بلاد الشام وجاوُا إِلَى السر عسكر سليم باشا الذي كان يدبر تلك الحركات وهو الذي قال بعدئذٍ عَلَى مسمع من بعض وكلاء الدول ان القلاقل تمت بامرهِ وعلمهِ « وانهُ كان يعلم ان نيَّة الدروز الهجوم على دير القمر ومحاصرتها قبل وقوع الامر باسبوعين » فاظهر لهم الاستغراب والنفور من هذه الفظائع وقام معهم في الحال إِلَى نواحي بعبدا فاجتمع هناك بالدروز وزجرهم وامرهم بالتزام السكينة ولكن القوم كانوا يعرفون القصد من ذلك وعندهم تعليمات سرّية بالذبح والنهب فاظهروا الخضوع وما عتم الباشا والقناصل ان عادوا إِلَى منازلهم حتى رجع الثائرون إِلَى اسوإ مما كانوا عليهِ وانقسموا فرقتين ذهبت احداها إِلَى المتن والاخرى إِلَى البقاع فاما فرقة المتن فقصدت قرية حمانا وخرج اهلها لطلب الامان من زعماء الدروز فامنوهم ثم نقضوا العهد عَلَى عادتهم ونهبوا البلدة وفرضوا عَلَى النصارى مالاً طائلاً وحرقوا الكنيسة ودمروا المنازل وانتقلوا منها إِلَى

قرية فالوغه وحاصروها وصدف ان حضر في اثناء محاصرتها محمد اغا تفكجي باشي فنادى بالامان عن لسان سليم باشا وطلب سلاح النصارى فسلموهُ بلا معارضة ثم اجاز للدروز الفتك عَلَى ما تقدم فقتلوا بعض الرجال ولم يبقوا عَلَى شيءٍ في القرية وكان من جملة المقتولين اثنان من الكهنة وبعض نساء الامراء الشهابيين ٠ كل ذلك بحضور نائب الدولة التركيَّة ورضاهُ بعد ان حرم النصارى سلاحهم بطرق الغش والخداع وكان هؤلاء اللئام في كل هذه الحوادث ياتون كل حيلة لاخذ سلاح النصارى حتى يسهل عليهم الفتك بهم والتصرف بارواحهم وفعلوا مثل ذلك في بكاسين وبزبدين وقرنايل و بوارج وعين طوره والقعقور والعباديه وراس المتن وقرى كثيرة غير هذه

❋ شبلي العريان ❋

واما الذي حدث في البقاع بامر والي دمشق نجيب باشا فاقل ما يقال فيهِ انهُ اشد هولاً مما حدث في قرى المتن ذلك ان هٰذا الباشا كان اخبث الاتراك الذين حكموا الشام في ايام نكباتها واكثرهم لؤماً وتعصباً ومع ان السر عسكر سليم باشا اشتهر بالذي قدَّمناهُ من حب الفتك بالنصارى فقد كان افضل من نجيب باشا وارحم كما سترى في قصتهِ التالية ٠ وكان بين الدروز في تلك الايام بطل شهير لهُ مقام كبير اسمهُ شبلي العريان اصلهُ من راشيا الوادي عرف بالجرأة الغريبة في حروب الدروز مع ابرهيم باشا وظهر منهُ الميل الشديد إلَى الفتك بكل عدو او معاند فعينهُ نجيب باشا حاكمًا عَلَى حاصبيا وراشيا

مقدمةً للفتك بالنصارى وذبحهم عن آخرهم لانهُ كان ينوي ان يفعل ذلك في ولايتهِ ولا يبقي في طول البلاد وعرضها نصرانيًّا والله يعلم ما الذي جناهُ هؤلاء المساكين وقد كانوا اذل من بيضة البلد واطوع الناس للحكومة التركيَّة . فكان اول اعمال شبلي العريان في حاصبيا انهُ نزع السلاح من النصارى بدعوى ان الامن في البلاد يقضي بذلك ولم يتعرَّض للدروز مع ان نصارى هاتيك الانحاء من الروم الارثوذكس لا علاقة لهم بالموارنة الذين كانوا السبب في هذه الحروب ولم يظهر منهم غير كل ادب وتعقل ولكن الدروز والاتراك كانوا ينظرون اليهم بعين الحسد ويطمعون في امتلاك اموالهم لان القوم اكبوا عَلَى صناعتهم وتجارتهم فعمرت بيوتهم واتسعت ارزاقهم وكان هٰذا هو الذنب الكبير عند الاتراك الذين يسوءهم ان تنمو احدى الطوائف الخاضعة لهم لانهم يخافون ان تقوم عليهم وتطردهم من البلاد يومًا فهم ابدًا يرقبون هذه الطوائف ويأتون كل حيلةٍ لاضعاف الذين تظهر عليهم دلائل النهوض والقوة ولهم شهرة في كره النصارى من رعيتهم بنوع اخص لانهم اكثر الناس ميلاً إِلَى التقدم واوفرهم ذكاء واستعدادًا للنمو والاستقلال متى احسوا بالقوة الكامنة فيهم

ومن غريب الامر ان سليم باشا الذي مرَّ ذكرهُ كان يظهر الاستغراب والنفور من هذه الفظائع اذا حدثهُ القناصل في شأنها ويرسل نوابهُ إِلَى كل ناحية ليساعدوا الدروز عَلَى الفتك بالنصارى باسم هذه الحكومة الَّتِي اقامها الله لتنصف في الناس وتؤَمنهم عَلَى ارواحهم واموالهم فبين كان يتظاهر بحب العدل وقمع الثورة ارسل

خمسة جمال محملة رصاصاً وباروداً إلَى الموارنة وكان ارسالها اليهم علناً على رؤوس الاشهاد ثم ارسل مثلها في اليوم التالي إلَى الدروز في المتن حتى يداوموا القتال وثبت هٰذا كلهُ من الاوراق الرسميَّة · بمثل هٰذا تحكم الدولة التركيَّة في بلادها

القتال في سغبين وزحلة

قلنا ان شبلي العريان التابع لولاية دمشق اخذ من النصارى سلاحهم بناء عَلَى اوامر رسميَّة وردت اليهِ من الوالي نجيب باشا ثم اتبع ذلك بالقاء اكابرهم في السجن وتغريمهم المال الكثير وتعذيب بعضهم عذاباً اماتهم وغير هٰذا من الفظائع · ثم انهُ وزع السلاح الذي اخذهُ من النصارى عَلَى الدروز واعطاهم المؤونة والذخيرة وكان عَلَى وشك الفتك بهم فصدر لهُ الامر بان يقوم في الحال إلَى البقاع لمعاونة سعيد جنبلاط وغيرهُ ممن كان يفتك باهل هاتيك الربوع وكان هٰذا الطاغية (سعيد جنبلاط) قد رحل عن جبل لبنان بعد ان فتك باهلهِ بنكث العهود واخلاف الوعود والخيانة والدناءة والظلم الوحشي وانقض عَلَى قرية سغبين بمن معهُ فقتل منها في ليلة واحدة مايتين وعشرة انفس بريئة ولما علم ان شبلي العريان قادم لمعاونتهِ قام لاستقبالهِ وبدأ الاثنان يستعدان للهجوم عَلَى زحلة وهي اكبر المدن الجبليَّة في بلاد الشام ولاهلها شهرة في شدة البأس والاقدام · ولما علم القناصل بان الشرزاد والبلاء عم لم يبقَ لهم صبر عَلَى هذه الاهوال وعلموا انهم اذا لم يسرعوا إلَى خلاص زحلة من الجيش الزاحف عليها

كان خرابها عظيماً لان الذين كانوا فيها لم يقلوا يومئذٍ عن ١٥ الف نفسٍ من اهلها واللاجئين اليها وكلهم من النصارى فاظهر سليم باشا المروءة والشهامة عَلَى عادتهِ وارسل في الحال رجالاً من قبلهِ يأمرون الدروز بالرجوع عن هذه المدينة وعاد القناصل إلَى التصديق ولكن بعضهم لم يصدق بعد كل الذي رآهُ من آيات الخيانة والخداع فكتبوا إلَى دولهم يقولون ان لم تبقَ في اليد حيلة وان الحكومة تحرض الدروز والمسلمين على قتل النصارى في كل الانحاء وانهم تأكدوا من مصادر لا ريب في صحتها ان الولاة كانوا يفعلون ذلك بامر الباب العالي وقال قنصل روسيا وقنصل فرانسا في تقاريرهما الرسميَّة انهُ اذا لم تبادر الدول في الحال إلَى التداخل بطريقة اقوى وافعل من الكلام صار النصارى في خطر الذبح في كل بلاد الشام · ومن غريب الاتفاق انهم عثروا يومئذٍ على كتاب رسمي من نجيب باشا إلَى سليم باشا يقول لهُ فيهِ ان (لا تتعبوا سركم في القلاقل الحاصلة في بلاد الشام لانها انما تجري بامر الباب العالي) فيا للعجب !!!

وكان في زمرة المهاجمين لمدينة زحلة خمسماية تركي من عساكر الحكومة المنظمة جاء بهم شبلي العريان من حاصبيا تحت امرتهِ فانضموا إلَى دروزهِ ودروز سعيد جنبلاط وغيرها وزحفوا عليهـا ولما جاءهم الامر بالرجوع عنها وقفوا بضعة ايام فظن الناس انهم اطاعوا الامر ولكن وقوفهم هٰذَا لم يكن الاَّ لانتظار فرقة من الجيش السلطاني المظفر جاءت تحت قيادة رشيد باشا ليحافظ على الامن ! فحالما وصل هٰذَا الجيش تقدم الدروز باشارة قائدهِ إلَى زحلة وتبعهم عساكر

السلطان ليسدوا عَلَى الفارين من النصارى الطرق ويتقدّموا لاعانة الدروز حين اللزوم ولم يسمع إلَى الآن بخيانةٍ اعظم من هذه الخيانة تصدر عن حكومة تنشر الخطوط والاوامر وتدّعي حب الانسانيّة والعدل وتسمي نفسها الاسماء الفخيمة وبعد ان تعد وتؤكد بالمحافظة على ارواح رعاياها ترسل جنودها للفتك بهم مع الثائرين وهم ما ثاروا الّا بامرها ولا ذبحوا الّا بسيفها ولو ان الدروز تأخروا عن طاعتها وامتنعوا عن معاونتها عَلَى ذبح النصارى لاستعانت بالنصارى على ذبح الدروز ويا لله من هذه الحكومة وهذه الاحكام

عَلَى ان اهل زحلة اظهروا الحزم والبسالة إلَى حدّ لم يخطر ببال اولئك الظالمين الذين جاؤوا ليذبحوهم ذبح الانعام ولما وصل اولئك العتاة ابوابها ارسلوا يؤمنون الناس فيها عَلَى ارواحهم ويطلبون سلاحهم عَلَى ما تقدم واعان الله اهل زحلة فسدد رأيهم واراهم عاقبة هٰذا التسليم واوضح لهم خيانة الاتراك والدروز فلم يرضوا بتسليم اسلحتهم وبدأوا بالقتال فاظهروا قوةً واقداماً غريبين ردّ اولئك الانذال الخائبين عَلَى اعقابهم خاسرين فسلم النصارى في زحلة من الذبح والهوان وسلمت اموالهم من النهب ولو ان النصارى انضموا بعضهم إلَى بعض وقاوموا اهل الفساد مثل اهل زحلة لفتكوا بهم وفلوا جموعهم وخلصوا من تلك النكبات الهائلة الّتِي رزئوا بها في ذلك العام المشؤوم. ولما لقي الانذال الفشل في زحلة هجموا عَلَى القرى المجاورة لها ودمّروها عن آخرها وكانوا يقتلون كل نصراني يقع في ايديهم بلا اثم ولا ذنب وعمت رذائلهم وكثرت قبائحهم حتى اصبح القسم الجنوبي من جبل

لبنان نارًا متقدة من اقصائهِ إلَى اقصائهِ وتاه النصارى في القفار والجبال فلجأُوا إلَى الحراج والكهوف او عمدوا إلَى بعض القرى ٱلَّتِي لم تصلها يد الدروز وكان معظم هؤُلاء المساكين حفاة عراة يقاسون الهول والمر ويتوهمون ان القيامة قامت وان النصارى انقرضوا واختفوا عن وجه هذه الارض ولم يبقَ عليها غير المسلمين والمتاولة والدروز ولو شئنا وصف احوال الارامل والايتام المساكين الذين هجروا المنازل وحرموا الرقاد وصار نصيبهم الذل والهوان لفطرنا المرائر وادمينا القلوب ولكننا نعرض عن وصف تلك الاهوال والمصائب توفيرًا لعناء الحسرة والبكاء عَلَى القارئ النبيل فليس في الارض بشري من غير الاتراك يقرأُ عن هذه المنكرات ولا يتوجع ويتفجع

✻ نتيجة الحرب ✻

وكان من نتيجة هذه الحروب والمذابح ان النفوس الامارة بالسوء هبت إلَى شرب الدماء في كل انحاء البلاد وكان الاتراك يزيدون النار وقودًا ويثيرون عَلَى النصارى كل من كان لهم مبغضًا وعدوًّا لدودًا والظلم من شيمة النفوس الغدارة اذا ما حرَّكها التعصب الديني وقوَّاها حب الغنيمة والانتقام فثارت ثائرة المسلمين في كل المدن وقاموا يريدون ذبح جيرانهم فاحس النصارى بعظم البلاء والضيق واتوا كل حيلة للخلاص من الموت الذي كان يتهدَّدهم بهِ المسلمون والمتاولة ولكنهم لم يسلموا من الاذى والاهانة الكبرى الَّا لما سمع الظالمون بان الدول الاوربيَّة قد ارسلت اساطيلها إلَى مين الشام ورآها المسلمون فخافوا شر

مدافعها ورجعوا عما كانوا ينوون من الامور المنكرة

كل هٰذا ونجيب باشا والي الشام يدسُّ الدسائس ويهيج المسلمين عَلَى النصارى حتى صارت المذابح ٱلَّتِي ينويها الاشرار من الامور المحتمة لولا ان يشدّد وكلاء الدول وفي مقدمتهم الجنرال وود قنصل انكلترا في دمشق بوجوب الانتباه وصيانة حياة النصارى . وكان هٰذا الرجل العاقل – القنصل وود – يعلم انهُ اذا لم يفرغ الجهد في ملافاة الامر قبل وقوعهِ حصل في كل بلاد الشام مثل ما حصل في جبل لبنان فاجتمع بعلماء المسلمين وعقلائهم و باحثهم في الامر و بيَّن لهم العواقب السيئة ٱلَّتِي تنتج عن فعلهم وكان بينهم اناس من اصحاب العقل والانسانيَّة سمعوا رأيهُ وساعدوهُ عَلَى الوالي التركي فذهبوا اليهِ واوقفوهُ عن المسير إِلَى الحج وكان هٰذا الطاغية ينوي ان يغيب في الحجاز بعد الذي دسهُ من الدسائس والذي دبَّرهُ من الحيل حتى تحصل المذابح في غيابهِ و يكون لهُ عذر امام الاورو بيين عَلَى عدم منعها . فلما ذهب اليهِ العلماء وفي مقدمتهم القنصل وود وحذروهُ من عواقب هٰذا البغي وهذه الخيانة رأَى الحق في جانبهم فعدل عن مرافقة المحمل إِلَى مكة و بقي في ولايتهِ يعطي الاوامر بمنع الاعتداء وابطال الدسائس والمحافظة عَلَى الارواح وبهذا وقف سير المجازر وانتهت حوادث سنة ١٨٤١ المشؤُومة

وكان الدروز إِلَى ذلك الحين يتحفزون للعود إِلَى القتل والذبح و ينتظرون قيام المسلمين في الشام عَلَى النصارى حسب الوعد حتى يعيدوا الكرَّة عَلَى جيرانهم في لبنان فلما علموا ان نجيب باشا اضطر إِلَى المناداة

بالامان وسكت عما كان ينويهِ سكتوا هم ايضاً لانهم لم يقوموا لهذه الفعال الَّا بتحريض الاتراك وهدأ روع البلاد وبطلت الحرب ٱلَّتي كانت علتها طمع بطريرك الموارنة في مد نفوذهِ وتعصبهِ عَلَى كل من خالفهُ في مذهبهِ واوقد نارها الدروز الذين رأوها خير واسطة للدفاع عن استقلالهم ولقهر الاعداء واذلالهم وشدَّد وطأتها الاتراك بدسائسهم ومكرهم وعدائهم للطائفتين ولو لم يقم الدروز يومئذٍ على النصارى باغراء الحكام لاغرى الاتراك النصارى ان يقوموا على الدروز ويذبحوهم كما سترى في الفصول القادمة وكما رأيت في الذي تقدم من هٰذَا الكتاب

وقد نتج عن هذه الحرب الاهليَّة خسارة ثلاثة آلاف رجل من النصارى قتلوا في لبنان والبقاع وبعضهم في المدن وحوالي اربعماية رجل من الدروز ولولا محاربة الدروز المسيحيين بالخيانة ومساعدة الحكومة لهم في كل مكان على نزع السلاح لكثر عدد المقتولين وزاد عن هٰذَا القدر . واما الخسائر المالية فلم تحصَ ولم تقدر في ذلك الحين ولطالما طلب النصارى بعد هذه الاهوال تعويضاً عما اصابهم من الخسارة ورد املاكهم ٱلَّتي اغتصبها الدروز اليهم فكان الاتراك يتظاهرون بالميل إِلَى مساعدتهم و يعرضون عن اجابة الطلب كما سيجيء . وقد اوقدت هذه الحرب في الصدور نارًا لم تطفأ الَّا بعد الهياج مرارًا ونال الاتراك غايتهم من اهل الجبل ومن المسيحيين اجمع بزرعهم الاحقاد في القلوب واتموا بدم الرجال ما كانوا ينوونهُ من انماء العداء المر والتعصب المستمر حتى لا تتحد هذه الطوائف عليهم ولا تقوى على مناوأتهم وطردهم من البلاد

﴿ عمر باشا ﴾

وقررت الحكومة بعد هذه الحوادث عزل حاكم لبنان وهو الامير بشير قاسم شهاب الذي ذكرناهُ بدعوى عدم اهليتهِ والحق يقال انهُ اظهر من سوء الادارة وعدم الاهليَّة ما جلب على بلادهِ كل هذه المصائب واستحق العزل من اجلهِ وارسل اسيرًا إلَى الاستانة وهي مدفن الاحياء فلم يسمع عنهُ شيءٌ بعد ذهابهِ . وفي ١٥ يناير من سنة ١٨٤٢ عين عمر باشا واليًا تركيًا على لبنان وهذه هي الامنيَّة ألَّتِي كان الاتراك يتفانون في سبيل تحقيقها ووصل بعدهُ من الاستانة تركي آخر اسمهُ مصطفى باشا هو الشيطان الرجيم بعينهِ كانت مهمتهُ في الظاهر البحث عن اسباب الثورة الاخيرة (وما سببها الاَّ رداءة الحكومة التركيَّة) وتقديم آرائهِ في الذي يجب عملهُ لمنع وقوع امثالها في المستقبل. واما في الباطن فكانت مهمتهُ تنفيذ الاوامر ألَّتِي أُعطيت اليهِ سرًّا في الاستانة لاثارة الضغائن وانماء الاحقاد وابقاء اسباب العدوان والفساد حتى لا يستريح الجبل من هذه الشرور ولا يقوى على طرد الاتراك وحتى تبقى الطوائف كلها في نزاع مستمر يضطرها إلَى طلب رحمة الحكومة التركيَّة والالتجاء إلَى عدلها المشهور فعمل مصطفى باشا هٰذا بالذي جاء من اجلهِ وزاد كره المسلمين للنصارى بمساعيهِ زيادة هائلة . ثم ان هذا الشيطان الخبيث جمع رؤساء الدروز ورؤساء النصارى واوضح لهم كذبًا وزورًا ان الحكومة تريد ان تنفعهم في امورهم وتمنع القلاقل من بينهم وسألهم ان يقدموا آراءهم في حكومة

لبنان وحاكمهِ على حسب ما يرون بدون خوف ولا حذر ولكنهُ اوعز إلى كل فريق منهم سرًّا الاَّ يكتب في تقريرهِ الاَّ ان يكون والي لبنان مسلمًا تركيًا وان يمتدحوا خطة عمر باشا و يفضلوا الاحكام التركيَّة على احكام امرائهم من آل شهاب وغيرهم. وطلب الى النصارى ان يكتبوا تقريرًا عمَّا حصل لهم وما نالهم من الخسارة ففرحوا بذلك فرحًا عظيمًا ورفعوا صوتهم ينادون بالنصر للسلطان ولمصطفى باشا وقالوا ان الحكومة ستقتص من الذين قتلوا اقاربهم وتعيد اليهم اموالهم وتعوّض عليهم خسارتهم وما عتموا ان كتبوا هٰذَا التقرير وذكروا فيهِ اسماء بعض المشايخ من الدروز الذين اشتهروا بالفتك والخيانة حتى اشتهر امر هٰذَا التقرير بين الدروز اذ اطلعهم مصطفى باشا عليهِ وكثرت الاحقاد وصار الدروز يقولون بعضهم لبعض ان النصارى يريدون في تقريرهم ان تشنق الحكومة كل مشايخنا وابطالنا و يطلبون اليها ان تعطيهم ارزاقنا واموالنا وتعاظم البلاء وزاد العداء إلى حدٍ هائل بسبب هٰذَا التقرير مع ان النصارى ما كتبوا فيهِ الاَّ الذي امرهم مصطفى باشا بتقريرهِ وذكروا اسماء الذين اشتهروا بالذبح والنهب ولم يطلبوا شنقًا ولا قصاصًا ولا رجوا هٰذَا التركي الغاشم في امرٍ غير ارجاع املاكهم واموالهم ٱلَّتِي سلبت منهم ولكن الحكومة التركيَّة ٱلَّتِي ساعدت الدروز على نهب تلك الاموال وحرّضتهم على قتل اولئك الرجال لم تكن لترضى بالاقتصاص منهم على سماع امرها وما فكرت يومًا واحدًا في التعويض عَلَى رعاياها الذين سلمتهم للذبح والنهب

التقارير الكاذبة

واما التقارير ألتي اوعز مصطفى باشا إلَى الناس بكتابتها فأعطيت صُوَرٌ منها إلَى الطائفتين وكلها ذم في امراء آل شهاب وعدم مقدرتهم عَلَى الحكم في لبنان وتفضيل حكومة الاتراك والوالي التركي وكان الحكام يأتون كل حيلة لارغام الناس عَلَى ختم هذه الاوراق الكاذبة ويستعملون الارهاب والتمليق والعذاب والمنح وكل وسيلة أُخرى تنيلهم المرغوب وهٰذَا نصُّ كتابٍ ارسلهُ علي بك خزينه دار مصطفى باشا في ٣ جماد آخر سنة ١٢٥٨ هجرية إلَى احد حكام المتاولة في هٰذَا الشأن ننقلهُ هنا بالحرف الواحد ليرى الناس كيف يحكم الاتراك رعاياهم

« جناب افتخار الاماجد الكرام اخينا المكرم حمد البيك حفظهُ الله تعالى

غب ابلاغ التحيَّة والسوال عن خاطركم بكل خير وعافية المبدي لخوتكم انهُ بحسب الاعتماد عَلَى صداقتكم واستقامتكم الاكيده والآن توجه لكم تحرير من عربي كاتبي الخواجا جبرائيل العوره فبوصولهِ ليدكم تعتمدوا ما لهُ وتظهروا همتكم المعهودة باتمام العمل طبق تعريفهِ لكم وتهتموا بنجازهِ وارسال الجواب لطرفنا بالجبل بحيث مرسالكم يلحقنا اينما كنا ان كان في المتن او في زحلة او في بلاد جبيل وحسب عهدنا الوثيق بصداقتكم باقرب وقت تتمموا المصلحة طبق التعريف ودمتم »

محل الختم

وهذه صورة تحرير جبرائيل العوره إِلَى الحاكم المذكور وهو المشار اليهِ في الكتاب الذي مرَّ

«سني الهمم سلطانم

«غب تقديم الدعا بدوام بقاكم نعرض الآن واصل طيه فرخين ورق كبير عَلَى بياض وصورة عرض محضر إِلَى حد الورق البياض فيهِ الكتابة وعلامة محلات الاسما والختوم فالقصد بذلك ان بحال وصولهِ تحرروا العرض محضر وتنهضوا الغيرة التامة بتختيمهِ من مشايخ المتاولة جميعهم ومن مشايخ القرايا الاسلام والنصارى في مقاطعة تبنين وساحل معركة وهونين وساحل قانا ومرج عيون والشقيف وجباع غير ان لا تدعوا احد من مشايخ العشائر ومشايخ القرايا اسلام ونصارى الَّا وتختموهُ وبالخصوص تجتهدوا عَلَى تكثير اسماء النصارى والذي ما لهُ ختم تدعوهُ بالحاضر يعمل ختم ويختم واتخذوا كل الفنون والنباهة المعهودة منكم لما بهِ البولتكه والتنازل لكاين من كان بحيث لا تخلوا احد من وضع اسمهِ وختمهِ وهذه تعد لجنابكم عند دولتها (مصطفى باشا وعلي بك) من اعظم الخدمات المقبولة وتحوزوا الرضى الوافر فوق ما تومولونهُ وهٰذا وقت اكتساب الفرصة» (محل الختم)

وهذه صورة العرض الذي كان يريد الاتراك من الناس ختمهُ عَلَى الصورة الموضحة في ما تقدم

«انهُ كما مشهور وصار مشاهد ومحقق بالعيان من وجود ادارة الدولة العليَّة في حكومة لبنان فقد حصلت اهالي الجبل المذكور عموماً عَلَى غاية الامنيَّة والراحة والرفاهيَّة والعدل والانصاف بنوع انهم من

حينما تخلصوا من ادارة الامير بشير الشهابي واولادهِ واقاربهِ خصوصاً الاميرامين والامير بشير القاسم وابناء عمهم وانسابهم واعوانهم واتباعهم الذين املوا الجبل المذكور وجواراته نظير بلادنا وغيرها من البلاد المجاورة لهم من التعديات والمظالم المتنوعة فقد خرجت الاهالي والسكان بوجود ادارة الدولة العليَّة من العتم إلَى النور ومن دهر الظلم والجور إلَى ساحة العدل والامان · فنظرًا إلَى عدالة الدولة العليَّة وانصافها الذي عم العالم باسرهِ فبمقتضى عدالتها وانصافها المرحمة بحق عبيدها ورعاياها بدوامهم في ادارة احكامها وعدم اعادة احكام الشهابيون بوجه الاطلاق · بل ولا واحد من اهالي الجبل لا اسلام ولا عيسويون عملاً برضاة الباري تعالى جل جلالهُ لرحمة عبيدها ودوام استخلاصهم لعتقهم من احكام الشهابيون ومظالمهم المتنوعة واتباعاً للحديث الشريف كلهم راعي وكل مسئول عن رعيتهِ وحيث انوجدنا نحن من المجاورين للجبل ولنا الاطلاع التام عَلَى احوالهِ واخذنا وعطانا مع الجبل وفي الجبل المذكور كثير فان ذات ادارة احكام الدولة العليَّة في جبل لبنان يعمنا من الامان والراحة · وان لا سمح الله تعالى تغير ذلك بضدهِ فنحصل عَلَى الاتعاب والمشقات لاجل ذلك بسطنا الان عرض عبوديتنا هذه نسترحم بها من الاحسان الملوكانيَّة والمراحم الشاهانيَّة النظر لعبيد ورعايا الدولة العلية بعين المراحم والاشفاق وابقاء احكام الدولة العليَّة في جبل لبنان وعدم النظر والالتفات إلَى حركات المفسدين الذين يسعون بسلب راحة وامنيَّة عموم الاهالي والفقراء ويدبرون عرضحالات التزوير بالتماس ارجاع احكام الشهابيون لان

ذلك موافق غاياتهم الرديّة ومغاير انصاف وعدالة الدولة العليّة وحاشاها ان تحمل دوام راحة رعاياها وعبيدها وتنظر لتزوير ونفاق هولاء والامر لمن لهُ الامر افندم »

السياسة التركيّة

بمثل هذه الحيل الدنيئة والتدابير الساقطة كان الاتراك يحاولون تضليل اوروبا والتمويه عَلَى العقول واخفاء امر المظالم والمجازر الهائلة ٱلَّتي امروا الدروز بها. وقد بذل هؤلاء الحكام ما في وسعهم لارضاء النصارى فرشوا بعض مشايخهم وقربوا آخرين وارهبوا آخرين حتى تمكنوا من نوال مساعدتهم فنسي هؤلاء المساكين الذي جرى لهم عَلَى يد الاتراك وختموا لهم ما يريدون فاخذت الحكومة التركيّة هذه التقارير سلاحًا ترد بهِ حجة اوروبا في التداخل وتظهر منها استتباب الامن ورضى جميع الاهالي عن حكومتهم الفاسدة. والذي يقرأ هٰذَا العرض الذي نقلنا صورتهُ يرى كيف تبعد الحكومة التركيّة عما تصف بهِ نفسها من آيات العدل والانصاف والعجب انها نجحت بمثل هذه السياسة وهي تعود اليها آونةً بعد اخرى فقد اتتها في بلاد الشام عام ١٨٦٠ حين حصلت المذابح الهائلة ٱلَّتي سنأتي عَلَى ذكرها وفي بلغاريا سنة ١٨٧٦ وفي ارمينيا سنة ١٨٩٤ والله يعلم متى يعود الدور إِلَى سوريّة ولبنان ويلي الناس بالذي لا يطاق اذا ظلت هذه البلاد المسكينة في قبضة هذه الدولة الظالمة. والغريب في الامر ان الحكام جعلوا يسجنون ويعذّبون كل واحدٍ لم يختم لهم الاوراق ٱلَّتي طلبوها

برضاهُ وذلك بعد نوالهم المرغوب من الذين ظلموهم وشدَّدوا الوطأة عَلَى بعض اصحاب النفوس الابيَّة حتى اماتوهم في السجن من الجوع والعذاب والاهانة وكانوا كلما لحظوا من احد الناس ميلاً إِلَى احدى الدول الاوروبيَّة يتعمدونهُ بالاذى بنوع خاص ويذيقونهُ البلاء بالف حيلة مع انهم ما عادوا إِلَى امتلاك الشام الأَ بمساعدة دول اوروبا ومساعيها فقابلوا جميلها بالكفران ونعمتها باللوْم وهٰذَا شأنهم إِلَى اليوم يتذللون لاوروبا ويلتجئون اليها عند الحاجة واذا لحظوا من احد رعاياهم ميلاً إِلَى واحدةٍ منها نكلوا بهِ واذاقوهُ مرَّ العذاب ليروهُ بطشهم وقوتهم وهم يعاملون كل من خضع لهم بالقسوة الوحشيَّة والارهاب لانهم يقولون عَلَى مسمعٍ من كل سامع ان هذا لازم لحياتهم الجنسيَّة ولسيادتهم الحربيَّة والسياسيَّة . ولما كانت اكثر البلدان الَّتِي يحكمونها آهلةً بالمسيحيين والمسلمين فهم يتخذون المسلمين آلة لانفاذ ماربهم فاذا آنسوا منهم اتحاداً مع جيرانهم اتوا الحيل المعروفة للتفريق بينهم وكانوا يومئذٍ ياتون واسطةً يعمدون اليها في كل حين هي انهم اذاعوا بين الملا ان اوروبا عازمة عَلَى مهاجمة مملكتهم وامتلاكها وسحق الاسلام ومحقهِ واعطاء السيادة في الشام وسواها الى النصارى بدل المسلمين فهيجوا مخاوف اهل الاسلام وحقدهم وجعلوا الجهال والرعاع منهم ينوون الايقاع بالنصارى حالما تناسبهم الاوقات وتساعدهم الظروف

وعَلَى ذلك يتضح ان هذه الدولة لا تقصد لرعاياها عَلَى اختلاف اديانهم غير العداء والشر وتريد اضعافهم وغل ايديهم عن القيام عليها وهي تكره النصارى بنوع اخص لانهم ليسوا عَلَى دينها المعروف

ولانهم اكثر اهل الطوائف ميلاً إلَى التقدم والنمو ولان الدول الاوروبيَّة تسأل عنهم اذا مالت هذه الدولة عليهم إلَى حدٍ يزيد عن المعتاد . ولهذا فليس في صدور العارفين اليوم ريب في ان كل ما تعد بهِ هذه الدولة من الاصلاح والتحسين تمويه وتضليل لا تقصد اجراءهُ ولا تأمر بهِ من عند نفسها وهي ما اقدمت على امرٍ حميد من يوم وجودها الاَّ قسرًا واضطرارًا . وقد اتخذت خطة الخداع والروغ والماطلة والكذب والمحاولة والوعد والتسويف والغدر والخيانة وكل ما يشبه هذه الاوصاف الدنيئة شعارًا لها في هذه الامور فهي اذا اصدرت امرًا بالاصلاح حتى تسكت اوروبا عنها اوعزت الى عمالها الاشرار سرًّا بالاَّ ينفذوا امرها او بان يقيموا ما امكن من العراقيل في سبيل اتمامهِ حتى اذا مضى الوقت وخمدت الافكار لم يبقَ في وجهها مطالب بالاصلاح وظلت البلاد على حالها من الخلل الذي لا يعيش الاتراك بدونهِ . وهم يستعملون الدين واسطة للدسائس وابقاء الظلم والتعصب في مثل هذه الاحوال فيوعزون إلَى جهلاء المسلمين بمعارضة الاصلاحات و يفهمونهم انها ترفع شأن النصارى ويحرضونهم على المعارضة والتظاهر بالثورة و يقولون لاوروبا حينئذٍ ان حبهم للبلاد ورغبتهم في انتشار الامن ومصالحة الرعيَّة قضت عليهم بالتاخر في تنفيذ هذه اللوائح اَلَّتِي يعود عنها الخير ولطالما قال الاتراك في كتاباتهم الرسميَّة وجاهر اصحاب الشأن فيهم « انهم لا يقدرون على استرجاع مقامهم الاول وسطوتهم الاَّ ان يعودوا إلَى التعصب »

عود القلاقل

قلنا ان عمر باشا تعين حاكمًا تركيًا على جبل لبنان ونال الاتراك بتعيينهِ امرًا طالما تاقت نفوسهم اليهِ ولكنهُ لم يفلح في مهمتهِ ووجد ان الذي يحكم في جبل لبنان وهو من غير اهلهِ لا يلقى منهم الخضوع الذي ينتظرهُ الحاكم من المحكوم ذلك لان الاهالي كانوا يكرهونهُ و يكرهون جنس دولتهِ فلم يؤدُّوا لهُ تجلةً ولا اطاعوا لهُ امرًا الاَّ قسرًا وقهرًا ولان الدروز كانوا قد ثملوا بخمرة النصر وذاقوا حلاوة السيادة والنهب والسلب فلم يعد في امكانهم الخضوع للحاكم التركي وهو مثل افراد هٰذَا النوع لا يقدر عَلَى العيش بدون الامارة الكثيرة والتظاهر بالابهة والفخامة . وكان هٰذَا التركي كلما تداخل في امرٍ او قضى في مشكلةٍ بين الناس يرى من تصدي مشايخ الدروز لهُ ما لا يسرهُ لانهم كانوا يعتقدون ان النصر صيرهم اصحاب البلاد وارباب الامر عَلَى النصارى فلم يطيقوا تحكمهُ في الناس الذين كانوا يعدُّونهم من رعاياهم . وحاول عمر باشا ان يكسر شوكة الدروز ويجعل اكابرهم طوع امرهِ فبدأُوا يتذمرون و يتململون وجعل البعض منهم يقولون عَلَى رُؤُوس الاشهاد انهم لا يطيقون الخضوع لحاكم كانوا هم السبب في تعيينهِ وان الدولة التركيَّة هي الَّتِي حرضتهم عَلَى الحركات الاخيرة ووعدتهم بالسيادة والملك فلا يصح بعد هٰذَا ان تنقلب عليهم وتحاول نزع هذه السلطة منهم . ثم ان بعض مشايخهم جاهروا في ذلك الحين بان الدولة التركيَّة اخذت منهم اكثر من نصف الذي سلبوهُ ونهبوهُ وانهم ما تمكنوا من

نوال مساعدتها لهم عَلَى النصارى الَّا بعد ان دفعوا لها مبلغًا هائلاً من المال لا يقل عن ثلثمائة الف ليرا عثمانيَّة . وقال الشيخ شبلي العريان — وهو يومئذٍ من اشهر ابطال الدروز واكبر زعمائهم — انهُ لم يبقَ في طول البلاد السوريَّة وعرضها موظف تركي حتى نال من الرشوة واعطي من المسلوب والمنهوب ما اغناهُ وان الصدر الاعظم بنفسهِ اخذ من طائفة الدروز مالاً طائلاً حتى مال معهم وامر اعوانهُ بمساعدتهم فما دام الاتراك اخذوا حقهم من هٰذَا الاتفاق فالدروز يصرُّون على اخذ الذي قاموا وقتلوا النصارى من اجلهِ وهو السيادة التامة والتحكم في البلاد بدل ان يصيروا هم والنصارى سواء تحت تحكم الوالي التركي ثم بدأ البعض منهم يتوعدون الحكومة بافشاء السر ونشر المعاهدة السريَّة ٱلَّتِي كانت بينهم وبين الحكومة التركيَّة على الفتك بالنصارى اذا ظلت هذه الحكومة على معاندتهم والتعرُّض لهم او اذا اصرَّت على رد ما نهبوهُ من النصارى اليهم . كل هٰذَا ننقلهُ عن التقارير الرسميَّة ٱلَّتِي بعث بها وكلاء الدول المسيحيَّة إِلَى وزاراتهم وليس فيهِ شيء من المبالغة والتهويل

ورأى عمر باشا ان مقامهُ في بيت الدين (هي عاصمة لبنان على مقربةٍ من دير القمر اهم مدائنهِ) صار محفوفًا بالاخطار والمكاره وان نفوذهُ تقلص وسلطتهُ ضاعت فبعث الى السرعسكر يطلب منهُ المدد ويرجوهُ ارسال الجنود لاعانتهِ على الدروز فابى السرعسكر ان يجيبهُ إِلَى هٰذَا الطلب وعيَّرهُ بخيانة الدين في ميلهِ على الدروز الذين نصروا الحكومة على المسيحيين كأَنَّ الدروز من اهل دينهِ وهم اول القائلين

باللعنات على ما يعتقد بهِ كما يتضح مما كتبناه عن اصلهم وتاريخهم ولكنهُ الغرض يعمي صاحبهُ فاعمى السر عسكر في ذلك الحين وعلم الدروز بالحكاية فزادت جرأتهم وعظمت ثقتهم ورأى عمر باشا انهُ لا يفيدهُ غير الحزم فاستدعى خمسة من مشايخ الدروز للعشاء في سرايهِ واوصى خدامهُ واعوانهُ بالقبض عليهم وتكبيلهم بالقيود حالما يروا ان الامر ممكن فنعلوا ذلك وارسل هؤلاء المشايخ في ليلة القبض عليهم إلى صيدا ليسجنوا فيها وظنّ عمر باشا ان مثل هٰذا الحزم يخيف اهل لبنان ويجعلهم في قبضة يدهِ ولكن آمالهُ خابت فان الدروز هاجوا وماجوا وبدأوا يستعدون للقتال والمحاربة وجاهروا بمعاداة الدولة التركيَّة وابرز بعضهم الاوامر المكتوبة التي صدرت اليهِ تأمرهُ بالقيام عَلَى النصارى وافشوا الاسرار ٱلَّتِي كتبناها في هٰذَا الكتاب. الَّا ان قوتهم لم تكن كافية حينئذٍ للهجوم عَلَى الوالي ومن معهُ من الحرس سيما وان السياسة التركيَّة نجحت مرة أُخرى في استمالة النصارى الذين كانوا إِلَى ذلك الحين يبكون قتلاهم ولا يفقهون ان الحكومة هي ٱلَّتِي قتلتهم فعرضوا خدماتهم عَلَى هٰذَا التركي وبدأُوا يتحفزون للانتقام من الدروز عَلَى ما بدا منهم في العام الماضي. ثم ان الاتراك قسموا الدروز عَلَى انفسهم اذ عينوا لهم مشايخ غير الذين سجنوهم واستمالوا فريقًا منهم بالعطايا والرتب والهدايا. وانتهز الاتراك هذه الفرصة فداروا على الدروز والنصارى يطلبون اليهم ختم اعراض مثل الاولى يشكرون فيها احكام الدولة التركيَّة ويرجون ان يكون الوالي عليهم في كل الاحوال تركيًا وبدأُوا يعذّبون البعض ويملقون البعض الآخر

على عادتهم حتى وصلوا رجلاً من اكابر الموارنة هو البطل الشهير يوسف بك كرم ورجوهُ الختم فامتنع فهددوهُ فقام عليهم وطردهم من بلدتهِ وجاهر بالعصيان وقام معهُ ابطال كثيرون من اهل تلك الناحية نخافت الحكومة عاقبة الامر وتركتهم

ولما رأى الدروز ان فريقاً كبيراً من الموارنة قام على الاتراك وكانوا هم يميلون إلَى محاربتهم لما تقدَّم بدأُوا يخابرون اكابر الموارنة في الاتفاق على هذه الدولة ومال النصارى معهم مبدئيًّا إلَى قبول هٰذا الرأي لان كل واحدٍ تحت حكم الاتراك يكرههم ويئنُّ من جورهم واجتمع نواب الطائفتين فاوضح الدروز لجيرانهم النصارى انهم ما قاموا لمقاتلتهم وقتلهم الاَّ بامر الحكومة وانهم لو لم يذعنوا لارادتها لكانوا في خطر قيام النصارى عليهم بمساعدة الاتراك فاختاروا اهون الشرَّين وابرزوا الادلة الواضحة على صدق قولهم فلم يرتب النصارى فيها . ثم تعهد الدروز بالرضوخ لاحكام الامراء الشهابيين وهم من النصارى واشترطوا على الموارنة ان يكونوا هم البادئين في الحرب نخاف الموارنة ان يكون في الامر دسيسة وتساهلوا في كل امرٍ على شرط ان يبدأ الدروز بالعدوان وكانت كل طائفة تخاف من الاخرى بعد كل تلك الضغائن أَلَّتي زرعها الاتراك وتلك الحروب أَلَّتي لم يمر عليها الحول فلم يمكن الاتفاق وعاد الفريقان بالخيبة إلَى مواضعهم فلقوا الاتراك على استعداد تام لاحباط مساعيهم ذلك انهم تملقوا للموارنة وتقرَّبوا منهم وخلعوا على بعضهم الخلع وجاؤُوا للبطريرك بارادة سنيَّة تجعلهُ تحت حماية السلطان الخاصة وترد إلَى طائفتهِ كل ما فقد منها في

الحرب الاخيرة ففرح النصارى عَلَى قلة ادراكهم بهذه الامور وابطلوا كل مخابرة مع الدروز في شأن الاتفاق على هذه الدولة . ثم ان الاتراك افهموا الدروز بالاوامر الصريحة ان كل مجافاة الحكومة لهم كان بسبب امتناعهم عن رد ما نهبوهُ من النصارى الذين كانوا يلحون بطلبهِ يوماً بعد يوم فزاد بهذا التصريح الحقد بين الطائفتين وحوَّل اكثر كره الدروز من الاتراك إلَى النصارى لانهم صدقوا هذه الاشاعة التركيَّة ولم ينكرها النصارى لان كل واحدٍ كان يميل إلَى ارجاع ما فقد منهُ اليهِ وظنوا ان الحكومة مخلصة في سعيها . والعجب ان الناس في ذلك الزمان كانوا يرون غدر الحكومة وخيانتها بعيونهم كل يوم ثم يعودون إلَى تصديقها والاركان اليها ولكنهُ القدر اذا حلَّ يعمي البصر .

عَلَى ان الدروز الذين اشتهروا بحب الاستقلال لم يصبروا عَلَى جور عمر باشا مع كل ما اتاهُ هو واخوانهِ من المساعي الخبيثة فقاموا في شهر نوفمبر سنة ١٨٤٢ تحت قيادة بطلهم الشهير شبلي العريان واحاطوا ببيت الدين احاطة السوار بالمعصم فقطعوا الماء عنها وتهدَّدوها بالخراب ان لم تجب مطالبهم في الحال وهي ان يعزل عمر باشا في الحال وان يفرج عن المشايخ الذين كبلهم بالقيود ظلماً وغدراً وان يعفى الدروز من القرعة وان لا يتعرض الحكام لهم في حمل السلاح وان يثبت مشايخهم في مراكزهم وتعاد اليهم السلطة الَّتي كان الاتراك يحاولون نزعها منهم . فاجتهد عمر باشا ومن معهُ من الاتراك ان يفلوا تلك الجموع بقوة الحيلة والدسائس عَلَى عادتهم وبدأوا يقولون لهم عن

النصارى كيت وكيت فاجابهم شبلي العريان في الحال ان الدروز ما قاموا عَلَى النصارى الاّ بامركم وان الاموال ٱلَّتِي وضعوا يدهم عليها لا تزيد عما اخذهُ الاتراك عَلَى سبيل الرشوة وان الصدر الاعظم كان من اول الذين اكلوا المال منهم . فرأى الاتراك ان الحيلة لم تعد تنفع في هؤلاء القوم وعمدوا إِلَى القوة فارسلوا فرقة من الجنود اكثرهم من الاتراك والارنؤوط وشهرتهم في اللؤم تغني عن الشرح وكان مع هؤلاء العساكر مدافع اتوا بها من مدينة صيدا فلما وصلوا بيت الدين بدأوا بمحاربة الدروز من الوراء وكان عمر باشا ومن معهُ من الحرس ومن خيالة الموارنة الذين اغتروا باكاذيبهِ يقاتلونهم من الامام فانهزم الدروز وركنوا إِلَى الفرار ورأى شبلي العريان ان بسالتهُ الفائقة لا تفيد عند وجود المدافع فتأخر وفرَّ مع بني قومهِ الابطال ولجأ اكثر الدروز إِلَى بلاد حوران عَلَى عادتهم في ايام الشدائد والملمات واما شبلي العريان فانهُ سلم نفسهُ إِلَى والي دمشق وقابلهُ هٰذَا التركي بالاكرام والاحترام وسعى لهُ في الوظائف الكبرى فنالها ولهذا يتهمهُ بعض الناس بالخيانة ويقولون انهُ رشي من الاتراك وعمل عَلَى احباط مساعي قومهِ حتى نال منهم هٰذَا الرضى وأُعطي تلك الوظائف الكبيرة

ولما وصلت هذه الاخبار إِلَى الاستانة ورأى الاتراك ان الوالي التركي يدعو اهل لبنان إِلَى الثورة بدل الخضوع التام وان اهل هٰذَا الجبل لا يرضون بحكم واحدٍ الاَّ اذا كان من امرائهم عدلوا عن منيتهم التي اتوا كل هذه الامور من اجل تحقيقها واجلوا امر تعيين الوالي من الاتراك فاصدر الباب العالي امرًا بجعل الجبل تحت حكم

اثنين من امرائهِ واحد من النصارى و واحد من الدروز

وفي اول يوم من سنة ١٨٤٣ تعين الامير حيدر ابي اللمع قايمقاماً على النصارى والامير احمد ارسلان قايمقاماً على الدروز في جبل لبنان وانتهى بذلك الاشكال وظنَّ الناس ان قد امتنع القيل والقال

على ان هذه التسوية لم تعد بالفائدة المقصودة لان الطائفتين كانتا مختلطتين في انحاء الجبل ولم يسكن الدروز في ناحيةٍ والنصارى في ناحية أُخرى فلم يمكن للحاكمين ان يقوما بالواجب عليهما اذ كيف يمكن لامير النصارى ان يحكم بعض الافراد الذين كانوا في قرى الدروز ولا يستاء الحاكم الدرزي الذي كانت مشا كلهم تقع في بلادهِ وكان يعدهم من جملة رعاياهُ. ولم تخلُ بلدة من النصارى الذين كانوا عمالاً ومزارعين لمشايخ الدروز يعيشون في اراضيهم ويدفعون لهم مالاً معلوماً اجرتها كل سنة وكان هؤلاء المشايخ يعتبرون انفسهم رؤساء بالارث على اولئك المزارعين فلم يمكن لهم السكوت عن استقلال عمالهم عنهم وانحيازهم إلَى اميرٍ نصراني لا دخل لهُ في قراهم ومصالحهم وهٰذا هو الذي كان علة الحرب الاولى التي اتينا عَلَى ذكرها لو يذكر القراء ما كان من بطريرك الموارنة وتعيينهِ اثنين من النصارى في كل قرية للنظر في امور ابناء طائفتهم بالرغم عن مشايخ الدروز الذين كانوا يعتبرون الحكم عَلَى هؤلاء القوم من حقوقهم الشرعيَّة المقدَّسة نالوها ابًا عن جدٍ ولم يهن عليهم ضياعها. ثم ان الموارنة الذين كانوا بحسب هٰذا التقسيم الاخير وفي حكم الامير الدرزي وفي بلادهِ جعلوا يتذمرون بدون موجب ويقولون ان تحكم الدروز لا يطاق وانهم

يفضلون الموت عَلَى الخضوع لامراء الدروز ويحركون الناس عَلَى الفتنة باغراء اساقفتهم وعمال بطريركهم وظهر في الحال ان جراثيم العداء وحب القتال كانت كامنة في الطرفين لا ينقصها الاَّ النار فتلتهب وتعيد الجبل إِلَى ما كان عليهِ. واما النصارى من غير الطائفة المارونيَّة فكانوا يرضخون لحكم الامير الدرزي وعمالهِ بدون تذمر اينما كانوا ويؤْثرون حكم الدروز عَلَى حكم الاكليروس ولذلك كانوا يساعدونهم اذا لزم الحال ولا بدع اذا نفر الدروز من حكم الاكليروس الماروني بعد ان رأَوا بقيَّة الطوائف النصرانيَّة تنفر منهُ ايضاً وتخاف الاضطهاد اذا علت كلمتهُ وثبتت امرتهُ . ورأَى الاتراك ان اوفق الطرق لابقاء سيادتهم انماء العداء بين الطوائف واقامة امةٍ على امة وكان ما كان بحيلهم ودسائسهم

ولما كثرت الشكوى من النظام الاخير بدأَ رؤَساء الطائفتين والحكام يتخابرون ويرتأُون الآراء الكثيرة للتوفيق بين مصلحة الطرفين فكان الحكام الاتراك يرتأُون الامور الَّتي لا تمكن ويعارضون في كل رأْي حميد ويختلقون لهُ العراقيل فلما رأَى القوم ان المخابرات لم تجدِ نفعاً عولوا مرة أُخرى عَلَى الحرب والقتال وقال بطريرك الموارنة عَلَى مسمع من الجمهور «اما ان يسود الدروز علينا او نسود عليهم فلنبدأْ بالاستعداد لان الذي يضرب الضربة الاولى يصير اقرب إِلَى الفوز من خصمهِ» وهو قول صحيح عملهُ البطريرك بالراي ولكن الدروز سبقوهُ إِلَى فعلهِ وكانوا هم الغانمين . وعَلَى ذلك عاد جبل لبنان إِلَى حالهِ الاول وكان الموارنة هم المعتدين اذ قتلوا مكاريًا من الدروز عَلَى

مقربةٍ من نهر الكلب وبدأ الدروز يقتلون كل نصراني يعثرون بهِ ثم هبت الطائفتان للحرب عَلَى عادتها وبدأت الجماهير تنتظم جيوشاً من الطرفين وتستعد لحرب عظيمة . وليس يعلم غير الله مقدار الفرح الذي شعر بهِ الاتراك من قيام اهل لبنان للحرب مرة أخرى فهم ابداً يسرون بهلاك الامم ٱلَّتي يحكمونها واضعافها ولطالما قال ولاتهم عَلَى مسمعٍ من الناس عند بلوغ هذه الحوادث اليهِ اللهمَّ اهلك الكافرين بالكافرين وبناء عليهِ ارسلوا إِلَى مشايخ الدروز يظهرون لهم الحب والوداد عَلَى ما تعوَّدهُ الناس منهم في هذه الاحوال ويشدّدون عليهم بعدم التسليم للنصارى في شيء مما يطلبونهُ واوعزوا في الوقت نفسهِ إِلَى رؤساء النصارى بالتقدم عَلَى الدروز ومحاربتهم مظهرين لهم الرضى عن هذا الصنيع ما دام الحق في جانبهم . ولا يظن احد المبالغة في هذا الكلام فقد اثبت قناصل الدول في تقاريرهم الرسميَّة ان الحكومة التركيَّة هي التي امرت الموارنة بالهجوم عَلَى الدروز وافتتاح القتال في ذلك الحين

ولما بدأ العداء والقتال انحصرت الآمال في رجال دير القمر وكانوا جمعاً غفيراً يمكن لهم ارسال الفي مقاتل إِلَى ساحة الوغى مسلحين باحسن انواع السلاح التي يمكن لعامة الناس يومئذٍ مشتراها واشترط اهل هذه المدينة على انفسهم وسواهم من ابناء طائفتهم الاَّ تكون لهم علاقة بالدروز من بعد ذلك اليوم ولم يسمحوا لاحد النصارى ان يختلط بهم او يقتلونهُ قتلاً حتى انهم قتلوا خورياً من رؤساء دينهم لانهُ لم يمتنع عن الاختلاط بآل جنبلاط وخاف بقيَّة الناس العاقبة

فجعلوا يجانبون الدروز في كل قرية ويضادونهم في كل امر. كل هٰذا والدروز صابرون إلى ان تتم معدَّاتهم وتاتي الجماهير من وادي التيم وحوران لمساعدتهم لانهم لا يقدمون عَلَى الحرب الَّا اذا اجتمعت كل قواتهم ووثقوا بالظفر والنصر. وجاءت في تلك الاثناء اموال وافرة إلَى بطريرك الموارنة اعانةً للذين نكبوا في الحرب الاخيرة فبدل ان يعطيها هٰذَا الرئيس إلَى الذين نهبت اموالهم وقتلت رجالهم وزَّعها عَلَى قسسهِ وعمالهِ ليستعملوها آلةً لاضرام نارا الحرب الثانية وامرهم ان يدفعوا لكل محارب ينضم اليهم اربعة غروش في النهار ففعلوا ذلك واجتمع لديهم خلق كثير. ثم اتى الاكليروس الماروني كل حيلةٍ لاقناع الناس ان تلك الحرب دينيَّة وانهُ يجب على كل نصراني ان يقوم لمحاربة الدروز والمساعدة على اقتلاع آثارهم وطردهم من جبل لبنان وباليتهم تعاونوا مع حلفائهم القدماء (الدروز) على مقاتلة الذين حرضوهم على هذه الامور وزرعوا بزور العدوان بينهم وطرد الاتراك من تلك البلاد الَّتي ملأُوها ظلمًا وفسادًا

وبدأَت جماهير الدروز تفد على المختارة من كل انحاء بلاد الشام وتجتمع حول سراي سعيد بك جنبلاط لان هٰذَا البيت كان كما قدَّمنا اشهر بيوت الدروز ولرئيسهِ صولة كبيرة فقد اشتهر الشيخ بشير جنبلاط إلَى حد انهُ صيَّر امراء الجبل وفي جملتهم الامير بشير الشهير آلةً في يدهِ فكانوا هم يحكمون بالاسم وهو يحكم بالفعل في جبل لبنان وعرف بالثروة الطائلة والدراية التامة ولم يزل بيت جنبلاط اغني بيوت لبنان إلَى هذا اليوم. وورث المال والشرف سعيد بك جنبلاط عن

ابيهِ الشيخ بشير بعد ان امات احد اخوتهِ واضطرَّ الآخر إلى التظاهر بالجنون والبله وحب الاعتزال مدة حياتهِ . وكان سعيد بك يستقبل جماهير الدروز و يضيفهم و يقدّم لهم الطعام ولخيولهم العلف مدة تجمهرهم في المختارة إلى ان تمَّ الاستعداد وصار الدروز في مركز يمكنهم من مقاومة اعدائهم والفتك بهم كما فعلوا في السنة السابقة . واما النصارى فكان مركز استعدادهم في دير القمر وزحلة وعبيه تحت قيادة الامراء الشهابيين وكان الامير بشير الكبير إلى ذلك الحين حيًّا في مالطه فجعلوا يقسمون بانهم لا يرجعون عن الحرب حتى يفنى الدروز عن آخرهم و يعود الامير بشير إلى الحكم على الجبل . ثم ان الدروز صاروا يتظاهرون بحب المسالمة و يشكون النصارى إلى الحكومة وطلبوا اليها ان ترسل بعض عساكرها لتقيهم هجمات الموارنة . وكان الاتراك ينتظرون هذه الفرصة بذاهب الصبر فأرسلوا في الحال فرقًا من جيشهم إلى الاماكن ٱلَّتِي اجتمع فيها الدروز لتكون على استعداد لمساعدتهم والفتك بالنصارى كما فعلت في العام الماضي واعمى الله قلوب المسيحيين فنسوا الذي رأوهُ من الاهوال وعادوا إلى مهاجمة الدروز والاتكال على مواعيد الحكومة والوقوع في حبائلها وشراكها

وبدأت الحرب في اليوم الثاني عشر من شهر ابريل سنة ١٨٤٥ اذ هجم الموارنة على كافة القرى ٱلَّتِي اجتمع فيها الدروز ما خلا المختارة وصاروا ينشدون الاناشيد الحربية و يأتون الفظائع وهم يحسبون انهم قد تغلبوا على الدروز واخذوا بالثار منهم . وكان النصارى في قائمقامية الشوف — وهي في اول لبنان من ناحية بيروت — تحت قيادة

المطران الذي سار في طليعة المقاتلين وصليب النصرانيَّة في يدهِ فعلمت الحكومة بحركاتهم واذنت لهم اذناً رسمياً بالهجوم عَلَى الدروز ومحاربتهم ففعلوا ذلك وفازوا في اول الامر فوزاً مبيناً وقتلوا جماعة من الدروز وهجموا عَلَى القرى ٱلَّتِي لهم في الشوف فدمروها ونهبوها وكانت عدتها اربع عشرة قرية · ولما اسكرتهم خمرة النصر تقدموا عَلَى اعظم مواقع الدروز وهي المختارة مقر آل جنبلاط يريدون بلوغ المراد من اعدائهم فلما وصلوها رأوا جيوش الدروز فيها آمنة مطمئنة ومعها فرقة من جيش الاتراك نقابلهم الدروز وعساكر السلطان باطلاق البنادق ومدافع الحكومة وكسروهم شرّ كسرة فاضطروا إِلَى الفرار وترك الديار للاعداء

واما في عبيه حيث اجتمع خلق كثير من النصارى تحت قيادة امرائهم من آل شهاب نجاه الدروز وحاصروا البلدة حصاراً شديداً وبطشوا بالنصارى ففلوا جموعهم وقتلوا العدد الوافر من رجالهم وحصروا الامراء ومن بقي معهم داخل القرية · كل هٰذَا وعساكر الاتراك واقفون يتفرجون عَلَى القتال ويضحكون من جهل النصارى وعمه قلوبهم فقد كانوا يردونهم عن الدروز ولا يردون الدروز عنهم وفعلوا ذلك في كل المواقع الماضية وما فتأوا يعتقدون الصدق في حكامهم الاتراك ويركنون اليهم ويتكلون عَلَى تدبيرهم ولا غرو فهذا جزاء الجاهلين والمغرورين في كل بلاد · ولما طال الحصار عَلَى عبيه وسمع وكلاء الدول بهذه المصائب لم يبقَ للكولونل روز وكيل دولة الانكليز صبر عَلَى هذه الاحوال فسار بنفسهِ إِلَى تلك القرية ليرى في منع القتال وخلاص الامراء والباقين من اعوانهم في حوزة الاتراك والدروز فلما

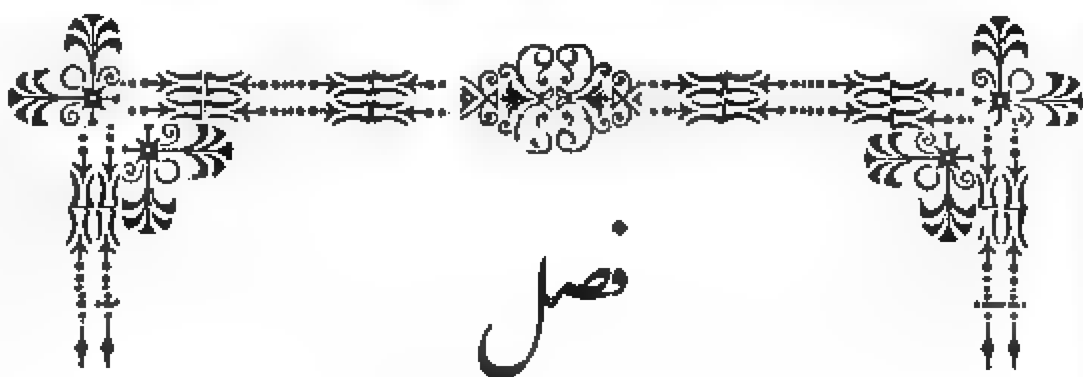
وصلها حاول قائد العساكر التركيَّة ان يمنعهُ من الدخول فزجرهُ الكولونل وشهر الرڤولڤر في وجههِ وقال انهُ سيدخل عبيه رضي الاتراك بالامر او لم يرضوا وانهُ اذا قتل او جرح جرَّ إلَى بلاد الشام جيشًا من الانكليز يضني قوام المملكة التركيَّة ويفني قواتها فخاف التركي عَلَى عادة قومهِ لايذعنون لغير القسوة والتهديد وسمح لهُ ان يدخل القرية ففعل ذلك وخابر مشايخ الدروز والامراء ولم يمكن لهُ ان يخلص النصارى المأسورين الَّا بعد ان رضي هؤلاء باعتبار انفسهم اسرى الحكومة التركيَّة فسار بهم الكولونل روز بنفسهِ إلَى بيروت بعد ان اخذ عَلَى الدروز المواثيق بعدم التعرض للنصارى في تلك الناحية

و بعد المناوشات والمعارك الصغيرة في اكثر انحاء الجبل ارسل سعيد بك جنبلاط امرًا إلَى اخوانهِ الدروز ينهاهم فيهِ عن الحرب وكان ذلك بتوسط الكولونل روز و بعد التعب الكثير . ورأى غبطة البطريرك ان الحرب عادت بالكسر والفشل عَلَى جنودهِ واعوانهِ فسكت واسكت عمالهُ وعادت بذلك البلاد الى السكون بعد ان ظلت تحارب وتتهاوش حوالي خمسة اعوام . ثم بدأ السفراء والباب العالي يفكرون في طريقة لمنع تكرار هذه الحوادث في جبل لبنان واصلاح حال حكومتهِ وهذه عادتهم لا يهتمون لصالح البلاد الَّتي يظلمها الاتراك الَّا متى تفاقم الخطب وعمَّ الضرر وقتل الرجال ونهبت الاموال . فقرَّ قرارهم بعد التعب الكثير على التعويل على نظام القائمقامين واحد للدروز وواحد للنصارى ولكنهم اعطوا امراء الدروز ومشايخهم حق السيادة على النصارى الذين في دائرة حكم الامير الدرزي على شرط

ان يكون لهؤلاء النصارى وكيل من طائفتهم يعاون الشيخ الدرزي على الحكم وسمّي هٰذا النظام باسم شكيب افندي لانهُ هو الذي سنهُ في اواخر سنة ١٨٤٥ وكان هٰذا الرجل من ادباء الاتراك واصحاب الذمة والفضل فيهم

واما مدينة دير القمر فلما كانت واقعة في وسط بلاد الدروز وكل اهلها من النصارى فقد جعل الاتراك يغرون اهلها على عدم التسليم بحكم مشايخ الدروز عليهم وكانوا هم يكرهون اولئك المشايخ لانهم فتكوا بهم واذاقوهم المرّ في السنوات الخمس ٱلَّتي مرَّت بدل ان يقوهم ويحموهم من بقيَّة الدروز لانهم كانوا عمالاً لهم يزرعون لهم الارض ويقدمون لهم الاموال ويخدمونهم بالاخلاص والصداقة فنفروا من مشايخ ابي نكد واقسموا الاَّ يبقى درزي في بلدتهم ولا يحكمهم واحد من الدروز وبعثوا إلى الوالي يرجونهُ تعيين حاكم تركي عليهم فأجاب الوالي سؤلهم وهو يرقص طرباً . وهكذا تمَّ طرد الدروز من اعظم مدائن لبنان وتفرَّغ اهل دير القمر للصناعة والتجارة فربحوا الاموال الوافرة وبنوا القصور الباذخة وزينوا صدور نسائهم بالآلي والجواهر الباهرة ولاحت عليهم لوائح النعمة والثروة فطمعوا في الدروز وحقد الدروز عليهم فصاروا يترقبون الفرص للايقاع بهم ونهب اموالهم .

وسوف يجيء في الفصل القادم تفصيل الاسباب ٱلَّتي دعت
إلى عود القتال وحصول المذابح في سنة
الاهوال



فصل

في الحوادث التي أدت الى مجازر سنة ١٨٦٠

قلنا في الفصل السابق ان مبدأ الحاكمين تقرر نهائياً بعد حوادث سنة ١٨٤٥ ولما كانت بلاد الموارنة خاصة بهم لا يسكنها الدروز صار قائمقام النصارى لا سيادة لهُ الاَّ عَلَى ابناء جنسهِ ولكن قائمقام الدروز كان يحكم القرى الاخرى من جبل لبنان وفيها الدروز والنصارى مختلطين من عهد نشأة الطائفة الدرزيَّة · ولذلك عظم شأن الدروز وتمكنت سيادتهم وصار المعاونون الذين تعينوا من النصارى لمساعدة حكام الدروز كلا شيء يبصرون ولا يأمرون و يرون استبداد الدروز في بني طائفتهم ولا يقدرون عَلَى اصلاح الامور · واشتدت جرأة الدروز إِلَى حد انهم صاروا ينازعون النصارى في كل املاكهم و يضع كل واحدٍ منهم يدهُ عَلَى املاك جارهِ وجعل بعض مشايخهم يغزون القرى الَّتي يسكنها النصارى حيناً بعدحين فيسوقون الانعام والخيرات بين يديهم و يسومون الرجال عذاباً مرًّا ولا حرج عليهم في ما يفعلون

ورأى الاتراك ان كل حيلهم لم تنفع وان الجبل ظلَّ لاهلهِ ولم يملكوهُ فعادوا إِلَى نغمتهم الاولى واختاروا الامير بشير ابي اللمع آلة لدس الدسائس لانهُ كان مارونياً فدار هٰذَا الامير واعوانهُ يكتبون

العرائض في حق القائمقام النصراني و يعرقلون مساعيهِ مع انهُ كان حكيمًا عادلاً و يعملون على نكايتهِ ويتعرَّضون لعمالهِ وجباة الاموال في الطرق ويتخطفون الحاصلات والماشية من اهل القرى فشكاهم الحاكم إلَى الوالي وطلب اليهِ المدد العسكري مرارًا وتكرارًا فلم يلقَ طلبهُ قبولاً ولم يرضَ الاتراك بمنع الاعتداء وقمع الثورة لان العيش لا يلذُّ لهم ولبنان هادىءٌ مستريح من عناء الحروب الَّا اذا كان حكامهُ من الاتراك واهلهُ افقر الناس واذلهم بين يدي هؤُلاء الحكام

وتمادى الدروز في اظهار القوة والافتخار بالنصر ولم تردهم الحكومة عن العسف والجور واذلال اعدائهم وكان اشهرهم في هذه الامور سعيد بك جنبلاط فان هٰذَا العميد تطرَّف وافرط في ظلم النصارى الذين كانوا في قبضتهِ وصيَّر نفسهُ اغنى اهل الشام بما كان ينهبهُ يومًا بعد يوم من املاكهم حتى انهُ استخدم اناسًا لحفر الاختام كانوا لا يبرحون بيتهُ ومهنتهم الوحيدة حفر اختام للذين يريد سعيد بك اغتصاب اموالهم واطيانهم وكتابة الاوراق المزوَّرة ببيع تلك الاطيان اليهِ وانتقالها إلَى يدهِ وتسجيلها في محاكم الجبل ولو ان احد هؤُلاء المظلومين عارضهُ في امرٍ لما لقي غير الذل والعذاب الكثير فقد كان هٰذَا الطاغية يرشي والي بيروت فيعرض التركي عن سماع الذين يشكون اليهِ فعالهُ واذا عاد المشتكي إلَى بيتهِ وجد رجال سعيد بك بانتظارهِ فيوسعونهُ ضربًا مبرحًا وقد يعدمونهُ الحياة ولا يجسر اقاربهُ عَلَى المطالبة بدمهِ. وقد زاد في قحة هٰذَا الظالم تقرُّب قنصل الانكليز منهُ وموادَّتهُ وكان الانكليز يرون ان الموارنة اعوان فرنسا يعاونونها

على مدّ نفوذها و بلوغ مرامها فرأَوا ان يستميلوا الدروز اليهم و يجعلوهم حزبًا لهم وكان سعيد بك جنبلاط اعلاهم مقامًا واكثرهم وجاهةً وهم اشهر الناس في اتباع رأي اكابرهم فأظهروا لهُ ما تقدم من الملاطفة حتى صيَّروهُ واهل طائفتهِ من حزبهم وكانوا اذا سمعوا عنهُ امرًا يعرضون و يؤْثرون بقاء طائفة الدروز على ولائهم على اعانة ضعيف من الناس ظلمهُ سعيد بك او احد اعوانهِ . ولهذا استخفّ الدروز بالنصارى وعمّ الاعتقاد بينهم ان الانكليز حلفاء الدروز واقاربهم وثبت هٰذَا الاعتقاد عندهم من تصرُّف بطريرك الموارنة وقسسهم لانهم كانوا يعتبرون الانكليز هراطقة وكفارًا مثل الدروز و يحرّمون القرب منهم او الاختلاط بهم فظنّ الدروز ان الانكليز اقرب اليهم منهم إلَى الموارنة وزادت جرأَتهم واستخفافهم بنصارى لبنان وهكذا عادت الاحقاد وكان السبب فيها هذه المرَّة ايضًا دسائس الاتراك وبساطة الموارنة وحب الدروز للحرب والغنيمة

ومع كل هٰذَا الضغط وهذه الاسباب لم يتأَخر النصارى في جبل لبنان وضواحيهِ عن النموّ والارتقاء وكانت اشهر مدائن النصارى في لبنان دير القمر وزحلة . وفي جنوبيهِ من بلاد الشام حاصبيًا وراشيًا وسنأْتي على طرفٍ من تاريخ هذه المدائن عند ذكر المذابح ٱلَّتي حصلت في كلٍّ منها ولكن يكفي ان يقال هنا ان دير القمر كانت في ما سبق من الزمان من املاك الدروز والذين فيها من النصارى اجراء لمشايخ بيت معن ومن عقبهم من اهل هذه الطائفة وآخر الذين تولوا امورها بيت ابي نكد من مشاهير الدروز فاستقلت منهم وطردتهم منها

كما تقدم واثرى النصارى فيها حتى لم تعد ترى ذكرًا للدروز فيها الأَ اذا كانوا من الحطابين والخادمين وكان النصارى يفتخرون بقوّتهم وثروتهم ويثيرون بذلك طمع الدروز وحقدهم في كل حين. وكان احد آل ابي نكد وهو الشيخ بشير ابي نكد من اعظم اعيان الدروز فأراد يومًا ان يبني لهُ قصرًا في ضواحي دير القمر ومانعهُ النصارى في ذلك ممانعةً كبرى حتى انهم ابلغوهُ انهم يخربون لهُ ما يبنيهِ يومًا بعد يوم اذا هو اراد القرب من بلدتهم بعد ان طردت طائفةٌ منها فاضطرَّ إلى الرجوع عن عزمهِ ولكنهُ اضمر الشرّ للنصارى وقال عبارة تروى عنهُ إلى هٰذا اليوم كانت نبوَّة بمستقبل الحوادث وهي « اني سوف ابني اساس بيتي برؤوس هؤلاء النصارى وعظامهم » وقد أتمَّ ذلك بالفعل من بعد مجازر سنة ١٨٦٠

واما زحلة فنمت في تلك المدة نموًّا هائلاً اوجب قلق الدروز وحسابهم لانها كانت امنع مراكز النصارى لا يدخلها غيرهم وصار عدد سكانها ١٢ الف نسمة لا يقل عدد المحاربين منهم عن ثلثة آلاف بطل واكثرهم من طائفة الروم الكاثوليك . واتسعت تجارة اهل زحلة وامتدَّ نفوذهم الى حد انهم صيّروا البقاع في قبضتهم ومنعوا عنهُ تعدي الدروز وغزوات مشايخهم فاشتدَّ الغيظ بالدروز واشتدَّ الميل فيهم إلى الانتقام . وكثرت المخابرة بين زحلة ودير القمر في شأن الاتحاد على الدروز وحماية النصارى حين اللزوم فحفظ الدروز كل هٰذا وزاد ميلهم إلى الضرب والحرب

واما حاصبيا فكان عدد النصارى فيها لا يقل عن ٦ آلاف

نسمة اكثرهم من الروم الارثوذكس و بينهم حوالي ١٥٠٠ نسمة من الدروز . هؤلاء ايضاً اشتدّ العداء بينهم لما تقدم من امور الحرب والخيانة وكان حكام هذه المدينة من آل شهاب الذين حافظوا عَلَى الاسلام فراوا من الدروز ميلاً إلَى الاستقلال عن سلطتهم وتعرُّضاً كثيراً لاوامرهم وصاروا يستعينون بالنصارى عليهم و بدأ الفريقان يستعدَّان لاعادة الكرّ والفرّ . ومثل هٰذَا يقال في راشيا وما يليها

هٰذَا بعض الشيء عن المدن ألّتي حصلت فيها المجازر غير دمشق الشام وسنذكر تاريخها بالاختصار . واما بقيَّة الاسباب ألّتي حركت الناس عَلَى العود إلَى القتال فأشهرها دسائس الحكومة التركيَّة وقد اسهبنا في وصفها في الفصول الماضية وكان الدروز قد طمعوا في الحكومة وجاهروا بعصيان اوامرها لانهم راوا انها تعينهم عَلَى النصارى وقت الحرب وتتفق معهم سرًّا وتتزلف لرجالهم حتى يقوموا عَلَى جيرانهم فانتزعت كل مهابةٍ لها من قلوبهم وصار مشايخهم المكلفون بجمع الاموال الاميريَّة يجمعونها ويأكلونها واكابرهم لا يدفعون المال المطلوب منهم إلَى القائمقام وكلما طالبهم الوالي بالمال حاولوهُ وماطلوهُ حتى لم يعد لهُ سلطة عليهم . ولما انتشبت الحرب بين روسيا والدولة التركيَّة تظاهر الدروز عَلَى عادتهم بحب الانتصار للمسلمين وعرض مشايخهم على الدولة ان تنظم جيشاً من ابطالهم لمحاربة الروس ففرحت الحكومة التركيَّة بهذا الامر وارسلت لهم مائة وخمسين الف ليرا عثمانيَّة لتنفق على هٰذَا الجيش فأخذ المشايخ المال وجمعوا الرجال ولكنهم ظلوا في مواضعهم لا يأتون غير الكلام حتى انتهت الحرب وغنم المشايخ

كل هٰذَا القدر الطائل ولطالما سألتهم الحكومة بعدئذٍ تقديم الحساب ورد الذي لم ينفق من هٰذَا المبلغ فلا قدموا حسابًا ولا ردّوا جوابًا وزادت قحتهم وجرأتهم وزاد ميلهم إِلَى الاستبداد واغتنام الغنائم في الحرب حتى كثرت جناياتهم وزاد تعديهم عن كل حد وقتل اشقياؤهم سبعمائة نفسٍ من النصارى بلا ذنبٍ ولا اثمٍ في عشر سنين ولم تطالب الحكومة بدم هؤلاء القتلى مع ان البلاد لم تكن يومئذٍ في حالة الحرب وهٰذَا هو عدل الحكومة التركيَّة فانها اغضت عن كل قبائح الدروز ومنكراتهم حتى لا تحرم مساعدتهم حين اللزوم وتبقيهم آلةً في يدها يذبحون رعاياها الآمنين في ظلها كلما رأت منهم ميلاً إِلَى التقدم والارتقاء

وكانت نتيجة حرب القرم شؤمًا وشرًّا على بلاد الشام واهلها ذلك ان الاتراك أنفوا من عود بلادهم اليهم على يد الافرنج وخافوا ان يعرف الناس ضعفهم واحسان اوربا اليهم فجعلوا يظلمون ويجورون ويبطشون بكل من عرفوا عنهُ الميل إِلَى الافرنج حتى لا يمتد نفوذهم في بلاد الشام ولا تضيع الديار من قبضتهم . وكان قناصل فرانسا لسوء الحظ يكثرون من المراقبة والتشديد والضغط على الحكام الاتراك من بعد تلك الحرب ويظهرون القوة والاقتدار ويغيظون الحكومة التركيَّة في كل امرٍ حتى ان قنصلهم في بيروت كان يحتم على المسلمين بالوقوف لهُ كما يقفون للوالي عند مرور عربتهِ بهم فاذا لم يقفوا لهُ نزل من العربة وجعل يجلدهم بسوطهِ جلدًا ويشتم اعزّ الامور عندهم ويكثر من احتقارهم . وكان الموارنة اعوانًا لقناصل الفرنسيس يعاونونهم

على مدّ نفوذهم و يجاهرون بالانتماء إلَى الدولة الفرنساويَّة حتى انهم كانوا يملأُون الجبل زينة كلما زارهُ احد قناصل هذه الدولة وجعلوا يقدمون لهُ قضاياهم و يحكمونهُ في امورهم بدل عمال السلطان وصار الموسيو ده لسبس قنصل فرانسا وقتئذٍ في بيروت يستدعي اكابر المسلمين والدروز والنصارى إلَى بيتهِ فيأمر فيهم و ينهي و يحكم في قضاياهم على ما يريد ويهوى و يظهر للناس بكل واسطة انهُ مراقب على حكومة السلطان وان قوة الدولة صارت كلها إلَى قبضتهِ ولطالما القى اناساً في السجن وافرج عن اناس ونقل الارزاق من رجلٍ إلَى خصمهِ وحمي اصغر الخادمين في بيتهِ من الحكام ولو انهُ ارتكب اعظم الجرائم

واتى اموراً مثل هذه هيجت مخاوف الاتراك والمسلمين عموماً اذ ظنّ الناس ان البلاد صارت إلَى قبضة الافرنج واضطرّ الاتراك من جرَّاء فعالهِ هذه إلَى الاهتمام اكثر من ذي قبل في تدبير المكائد ودس الدسائس وعمل الطرق اللازمة لخراب الجبل واعادة امورهِ وامور الشام كلها إلَى ايديهم

وتشكلت لجان من المسلمين في بيروت وصيدا ودمشق وحلب واكثر مدائن الشام كان الناس فيها يشكون من ضياع السلطة من يد الدولة الاسلاميَّة وصيرورتها إلَى يد الافرنج حتى انهم عزموا عَلَى اعادة مجد الاسلام وعزهِ مهما كلفهم ذلك وعوَّلوا عَلَى قلب الحكومة التركيَّة اذا كانت هي السبب في وصول الاسلام إلَى تلك الدرجة المنحطة

وظلّ اعضاء هذه الجمعيّات يحرّضون المسلمين عَلَى القيام واكليروس الموارنة وقناصل فرانسا يظهرون ميلهم إلَى اذلال المسلمين والدروز والاستبداد بالامور حتى سرى روح التعصب الشديد في كل البلاد وجعل الناس يتأهبون في كل مكان للتخلص من سيطرة الافرنج وانفة الموارنة و يعدون النفس بذبح النصارى عن بكرة ابيهم والاستئثار باملاك البلاد بعد انقراضهم

وحدث لسوء الحظ ان قائمقام النصارى في جبل لبنان مات في سنة ١٨٥٧ فأسرع الاتراك إلَى تعيين جاسوسهم وآلتهم العمياء مكانهُ وهو الامير بشير ابي اللمع الذي سبق ذكرهُ وكان هٰذا الامير من اول المحرّكين عَلَى قلاقل سنة ١٨٦٠ عملاً بالاوامر السرّية ٱلّتي كانت ترد اليهِ من الاتراك ولا يفقه معناها

ومات بطريرك الموارنة ايضاً في تلك المدة فعقبهُ آخر لم يعرف آخرة التهوُّر مثل الذي سبقهُ فأعاد الكرّة عَلَى الدروز وشدد عَلَى اعوانهِ بمقاومتهم ومضادتهم واهاج في صدر قومهِ حب الحرب واستئصال شافة الدروز لانهم كانوا اعداء دينهم واضطهد كل نصراني من غير طائفتهِ حتى انهُ ساعد قومهُ عَلَى اغتصاب كنائس الارثوذكس وتدمير مدارس البروتستانت ولما علم ان البعض يلجأُون إلَى قناصل انكلترا من ظلمهِ وفي مقدمتهم بعض المشايخ من بيت الخازن شدّد الوطأة عليهم وامر بقتل واحدٍ من هذه العائلة الشهيرة مع ذويهِ ونهب اموالهِ

وعمّ الاعتداء في سنة ١٨٥٨ و ١٨٥٩ بمساعي القائمقام الجديد

ودسائس الاتراك وجهل البطريرك وكان الذين ينتفعون من تداخل انكلترا قد فقدوا ثقتهم برجالها لان القنصل في بيروت لم ينهَ سعيد بك جنبلاط عن قبائحهِ ولان اللورد ستراتفورد ده ردكلف الذي كان سفيرًا لانكلترا في الاستانة ويحب خير المسيحيين في بلاد الشام توفي في تلك الاثناء وخلفهُ سفير ضعيف الرأي ميَّال إلَى عدم التداخل فلم يساعد الذين ظلموا من بيت الخازن بسبب تقرُّبهم من دولتهِ مع انهم اكثروا من الشكوى اليهِ ولا سار على خطة سلفهِ في الدفاع عن المظلومين

وعلى ذلك وقعت بلاد الشام مرَّةً أُخرى في الفوضى وحاول عقلاء المسيحيين جهدهم ان يحركوا خورشيد باشا والي بيروت على ردع الذين كانوا يعيثون في الارض فسادًا فما لقوا منهُ غير الاعراض والاصرار على الاضرار بالجبل واهلهِ وبدأُوا يستعدُّون للقتال وقلبهم يحدثهم انهم كانوا على مقربةٍ من الاهوال

وكان والي الشام في تلك الايام واسمهُ احمد باشا من اشد الاتراك كرهًا للعرب والمسيحيين واكثرهم ميلاً إلَى ذبح الذين على غير رأيهِ وهو الذي اعطتهُ الدولة التركيَّة الحكم المطلق في ولايتهِ فجعلتهُ مشيرًا للعساكر الشاهانيَّة وواليًا مستبدًّا حتى يمكن لهُ ان يقرض النصارى عن آخرهم .

وقد كانت معظم الحوادث ٱلَّتي حدثت في سنة ١٨٦٠ بامر هذا الطاغية الظالم واخصها مذابح حاصبيا وراشيا والبقاع ودمشق الشام وهو الذي كانت الاوامر السريَّة من الباب العالي بيدهِ يوم

جاءت لجنة التحقيق بعد المذابح فامر فؤاد باشا باعدامهِ قبل ان يتمكن من ابراز تلك الاوامر · وكان خورشيد باشا والي بيروت مثلهُ في الرداءة وحب الانتقام من الابرياء

وسوف نشرح فعلهما في الفصل

القادم

حوادث
١٨٦٠

فصل

في مذابح سنة ١٨٦٠

ﷻ حادثة بيت مري الاولى ﷻ

لما تهيأت اسباب الحرب عَلَى ما ذكرنا في الفصل السابق واستعدت الافكار للقتال اذ لم يبقَ بدٌّ منهُ كثر الاعتداء والقتل في انحاء الجبل وكثر تشكي النصارى إِلَى القائمقام وإِلَى الوالي التركي في شان تلك الحوادث ولم تهتم الحكومة لايقاف سير تلك الحركة الهائلة فاصاب معظم الضرر النصارى والامراء الشهابيين المسلمين الذين كانوا حكاماً عَلَى وادي التيم . وحدث ان درزيًّا قتل في انحاء حاصبيًا واتهم اهلُ القتيل اعوانَ الامير الشهابي بقتلهِ وطلبوا مالاً طائلاً من الامير عَلَى سبيل الدية فانكر الامير طلبهم فاغار الدروز على حاشيتهِ في نواحي الحولة وسلبوها واكثروا من التعدي عَلَى اهل القرى فرأى الامير — وكان الامير سعد الدين شهاب هو الحاكم عَلَى حاصبيا يومئذٍ — ان سلطتهُ ضاعت والتجأ من اجل ذلك إِلَى دمشق . وكثر بعد ذلك ربط الطرق في كل انحاء لبنان فقتل النصارى

رجلاً من جماعة سعيد بك جنبلاط وقتل الدروز نحو خمسة عشر رجلاً من النصارى في اقل من شهرين حتى عمَّ الاضطراب وصارت البلاد الى حال يشبه الفوضى حتى اذا كان يوم ٣٠ اغسطس من سنة ١٨٥٩ حدثت حادثة بيت مري الاولى وهي اول حوادث هذه الحرب الهائلة وكانت مقدمةً لما سيجيء من الاهوال

واما بيت مري فقرية من قرى المتن في جبل لبنان على مسافة ٦ اميال من بيروت إلى جهة الشرق وسكانها نصارى ودروز. ففي اليوم الذي ذكرناه تشاجر درزي ومسيحي من اولاد القرية وكان الولد الدرزي قوي على النصراني واوسعهُ ضرباً فجاء ابوهُ وبعض اقاربهِ إلى ابي الدرزي ووبخوهُ على ما بدا من ابنهِ ولما عادوا عنهُ دار الرجل على ابناء طائفتهِ في القرية يحرّضهم على مقاتلة النصارى وارسل اناساً إلى الدروز في القرى المجاورة لقريتهِ فما صدق هؤلاء ان سمعوا النداء حتى تجمهروا وهجموا على النصارى في قرية بيت مري مع دروزها فهبَّ النصارى لمقاتلتهم واظهروا بسالةً فوق المعتاد وطردوهم على كثرة عددهم. ثم وصلت نجدات اخرى الى الدروز فاعادوا الكرة على القرية وعادوا عنها خاسرين بعد ان قتل من الجانبين عددٌ كبير وكان قتلى الدروز يزيدون عن قتلى النصارى ٢٨ قتيلاً واذ لم يكن من منصف اتسعت دائرة الشرّ والعدوان فذهب المدعو يوسف عبد الملك وهو احد مشايخ الدروز برجالهِ وسلب ثلاث قرى للنصارى مجاورة لبيت مري واحرقها عن آخرها غير مبالٍ بشرّ ما فعل. ولما علم خورشيد باشا والي بيروت حينئذٍ بما جرى ورأى بان هذه الاعمال المنكرة ستأول

إلى اضرام نار الثورة الاهليَّة في جميع انحاء لبنان وان قناصل الدول العظمى في بيروت تلاحظ كل هذه الحركات ذهب بنفسهِ لتلك الجهة مظهرًا رغبة شديدة في اخماد الشرّ وايجاد الراحة وانصاف المظلوم من ظالمهِ فاوقف سفرهُ الحركات العدائيَّة الجارية وسكن الامور واوجد الامن الاَّ انهُ امتنع عن مقاصة المذنبين وقصر عن تحصيل حقوق النصارى فكان سفرهُ وسيلة لازدياد جراءة الدروز واضمارهم متابعة الشرّ والعداء . ولما رجع الى بيروت عاد الدروز لاستئناف الشرّ بعد ان علموا بان لارادع لهم ولا مسئوليَّة عليهم فاخذوا ينكلون بالنصارى اينما صادفوهم طمعًا باموالهم ومقتنياتهم وشفاء لداء الحقد المزمن الكامن في صدورهم فقطعوا الطرق وعاثوا وسلبوا ونهبوا وقتلوا غير مبالين بالعواقب . وقد اوجبت اعمال الدروز هذه على النصارى ان يقابلوهم بمثلها دفاعًا عن انفسهم وصيانةً لحقوقهم وهكذا قتلوا هم ايضًا بعضًا من الدروز فكان الويل كل يوم يزداد عن امسهِ حتى باتت تلك الجهة مرسحًا للتعديات المستمرة ولسوء الحظ لم تهتم حكومة بيروت بالامر اهتمامًا صادرًا عن نيَّة سليمة . فان خورشيد باشا المار ذكرهُ لما رأى امتداد الثورة بعد رجوعهِ المرة الاولى وانها وصلت الى قرية الحازميَّة اَلّتي تبعد ساعة عن بيروت واخذت تمتدُّ منها للجهات المجاورة اظهر لقناصل الدول العظمى في بيروت تصميمهُ على الذهاب الى تلك الجهة لاخماد الفتنة وتسكين الثورة ومجازاة كلٍّ بما يستحق وسافر مصحوبًا ببعض العساكر . الاَّ انهُ عوضًا على ان يدخل الامور من ابوابها ويجري التحقيقات اللازمة ويقاص من يستحق القصاص وينصف

المظلوم من ظالمهِ اتى ما اتاهُ في المرة الاولى فلم تكن نتيجة سفرهِ الأ ان سكنت الامور وقتياً والفضل بسكونها للطبيعة حيث دخل فصل الشتاء ببردهِ وثلوجهِ فبردت معهُ حركات العدوان

﴿ الاستعداد للحرب ﴾

وقد تشجع النصارى وتقوّت قلوبهم من بعد هذه المعركة لانهم حسبوا انهُ اذا كان نصارى بيت مري على قلة عددهم وعدم اشتهارهم بالبسالة قدروا على طرد كل اولئك الدروز والانتصار عليهم فلابدَّ ان تتمَّ العظائم على يد اهل زحلة ودير القمر وحاصبيا وجزين وغيرها من القرى المشهورة بكثرة النصارى فيها و بسالتهم. وزيادة عَلَى ذلك ان كسروان من اولهِ إِلَى آخرهِ كان آهلاً بالموارنة وهم الذين كان قسسهم يحرّضون عَلَى القتال و يعدون النصارى بالنصر. ثم ان نهوض الدروز لمحاصرة بيت مري والتظاهر بالعداء والمناداة بالحرب لغير علةٍ توجب هذه الامور ومجيء اهل القرى المجاورة لاعانة اخوانهم في بيت مري في اقل من نصف نهار اظهر للنصارى ان الدروز كانوا متواطئين عَلَى الايقاع بهم مستعدين للهجوم عليهم حالما تجيء الفرصة المناسبة . ولما هدأت الاحوال بعد تلك المعركة ولم تجازِ الحكومة الدروز الذين بدأوا بالعدوان ولا ارجعت للنصارى الذين احرقت قراهم شيئاً من الذين اضاعوهُ مع كثرة الحاحهم في طلبهِ ظهر للملأ ان الحكومة ما اوقفت سير القتال الأ لانها تنوي تأجيلهُ إِلَى وقت آخر لا لانها كانت تحب السلام وعرف القناصل وقتئذٍ ان الحكومة تقدر عَلَى قمع

ثورة الثائرين ورد اهل لبنان عن بكرة ابيهم إِلَى طاعتها والرضوخ لاوامرها اذا هي استعملت الحزم واخلصت في العمل ومن هٰذا يظهر ان الدروز ما قاموا في السنة التالية الاَّ بامرها وسوف يتضح ذلك بأجلى بيان عند ذكر المذابح

وتحرَّك المسلمون في المدن عَلَى عادتهم يريدون الفتك بالنصارى بعد حادثة بيت مري واشتدَّ نفور الدروز من جيرانهم وكثرت خيلائهم · ومن غرائب الامور ان بعض مشايخ هذه الطائفة نزلوا إِلَى مدينة بيروت في الشتاء وقضوا كل ذلك الفصل فيها ولم تسبق لهم عادة بذلك وكانوا في تلك المدة يجتمعون كل ليلة في بيت الوالي خورشيد باشا وغيرهِ من الحكام ويتشاورون ويكتبون إِلَى اهل طائفتهم الكتب الكثيرة فلم يبقَ ريب في انهم كانوا يتداولون مع الحكومة في طريقة قتل المسيحيين عن بكرة ابيهم في كل انحاء الشام· ولم يرجع هؤلاء المشايخ إِلَى مواطنهم الاَّ في اوائل الربيع من سنة الاهوال اي سنة ١٨٦٠

وفي شهر ابريل من تلك السنة وردت عَلَى خورشيد باشا تعليمات من الاستانة لم يعلم الناس فحواها ولكن الخبر ملأ بيروت في الحال بان السلطان قد اصدر فرمانًا باعدام النصارى وقتلهم عن آخرهم وارسل خورشيد باشا الكتب والرسل إِلَى سعيد بك جنبلاط في المختارة عقيب وصول تلك التعليمات فحالما قراها سعيد بك ارسل رجالهُ يدورون عَلَى قرى لبنان وبدأت جماهير الدروز تفد الى المختارة من ذلك اليوم فلم يبقَ ريب في ان تلك الكتابة الَّتي جاءت خورشيد باشا من

الاستانة كانت تصرح لهُ باعدام النصارى والعمل عَلَى استئصالهم من البلاد . ثم جعل اشقياء الدروز يقتلون كل من وقع في ايديهم من النصارى فخاف هؤلاء المساكين على ارواحهم وهرب العدد الوافر من كل القرى الصغيرة الى جزين ودير القمر وزحلة حيث كانوا يأمنون على ارواحهم نظرًا لقوّة النصارى في تلك القرى . ثم قصد بعض الدروز دير عميق على مقربةٍ من دير القمر وقتلوا رئيسهُ وهو يصلي لربهِ ونهبوا ما فيهِ من الادوات الثمينة فاشتدّ غيظ النصارى وجعلوا يتأهبون للقتال في القرى الكبرى ٱلَّتي ذكرناها حتى ان اغنياءهم كانوا يجودون على فقرائهم بالمال و يعطونهم الاسلحة والذخائر استعدادًا للحرب ولكنهم لم يمدوا الى الدروز يدًا

معركة عين دارا

ولمَّا لم يبقَ ريب في ان الدروز ينوون اعادة الكرة على النصارى تقدم اهل زحلة وعدتهم ثلثة آلاف بطلٍ على قرية للدروز اسمها عين دارا فقابلهم فيها ستمائة درزي من اهلها وحاربوهم فيها النهار بطولهِ وردوهم خاسرين مع انهم لم يزيدوا عن خمس النصارى في عدد الرجال . وتشجع الدروز بهذا الانتصار فهجموا على قرى كثيرة من المتن وهو الذي حدثت فيهِ معركة بيت مري ٱلَّتي مرَّ ذكرها وقد رزئَ هٰذا القسم من لبنان بالاهوال اكثر من غيرهِ واحرق الدروز فيهِ ستين قريةً للنصارى واعملوا السيف في اهلها ونهبوا كل ما وصلت اليهِ ايديهم فيها . وظهر من معركة عين دارا هذه ان الدروز يفوقون

النصارى في امور الحرب قدر ما يفوقهم النصارى في كثرة العدد فقد كان النصارى يسيرون بلا قائد ولا نظام وحدث في معركة عين دارا ان بعضهم كان يضرب النار عَلَى البعض الآخر والدروز يهاجمونهم عَلَى قواعد معلومة ويعملون بأمر رئيس واحد في حين ان النصارى كانوا كلهم رؤوساً لا يخضع الواحد منهم لغيرهِ وهٰذا هو السبب في فشلهم · ومن حسن حظ الدروز ان اكابرهم اشجع واعقل من قوَّاد النصارى وهم اميل إِلَى الحرب ولهم كلمة نافذة في من دونهم من اهل طائفتهم واما النصارى فاكابرهم رؤساء الدين او التجار الذين يخافون من اسم الحرب وان كانوا يحرّضون الناس عليها وليس بينهم واحد يصلح للقيادة والرئاسة واما عامة النصارى وعامة الدروز في جبل لبنان ففي درجة واحدة من البسالة

✵ دروز حوران ✵

ولما كان مشايخ الدروز يعلمون بمصير الامور وقد نووا بامر الحكومة قتل كل النصارى ورأى سعيد بك جنبلاط ان قوة الدروز في لبنان لا تكفي لهذه الغاية اذا تأخر عساكر الاتراك عن المساعدة اللازمة ارسل إِلَى زعيم الدروز في حوران وهو يومئذٍ اسماعيل الاطرش كتاباً يقول فيهِ ان النصارى قد فتكوا بالدروز وقاموا عليهم في كل بلدة فنكلوا بالرجال وسلبوا النساء ونهبوا الاموال وقتلوا العاجزين والاطفال وان طائفة الدروز صارت عَلَى وشك الانقراض وهي ترجو من اخواتها في حوران الاسراع إِلَى انقاذها من يد الاعداء · ثم انهُ

امر بحرق هذا الكتاب من اطرافهِ الاربعة علامة الخطر الشديد وبعث بهِ مع رجل يعتمده وافهمهُ ان يقول ما يوافق مضمون ذلك الكتاب حتى ينهض همة الدروز في حوران للمجيء واعانتهم على النصارى في الحال وقد أثر ذلك الكتاب التأثير المطلوب فان اسماعيل الاطرش قرأهُ على مسمع من رجالهِ واعوانهِ فصاحوا بالويل والثبور ونادوا بالحرب وعظائم الامور واقسموا انهم لا يستريحون حتى يأخذوا لبني امتهم بالثار و يقلعوا من النصارى الآثار . ومن غريب الامر ان ثلثة آلاف بطل من ابطال الدروز اجتمعوا حول بيت اسماعيل الاطرش بعد وصول ذلك النبأ بيومين وحال اجتماعهم قاموا لنصرة اخوانهم في جبل لبنان وتقدموا ينشدون الاناشيد الحربيَّة

وقد جعلوا وجهتهم وادي التيم حتى يقتلوا اهلها

و يتقدموا منها على دير القمر وزحلة

وهذا بيانُ مذبحة حاصبيَّا

الّتي قصدها هؤلاء

الرجال

فصل

في حاصبيَّا ومذابحها

نرى اتمامًا للفائدة ان نأْتي عَلَى طرفٍ من وصف حاصبيَّا وتاريخها قبل التقدم الى ذكر المذبحة فنقول :

حاصبيَّا مدينة وادي التيم وهي واقعة عَلَى نحو ٤٦ ميلاًمن شرقي دمشق في عرض ٢٥َ ٣٣° شمالاًوطول ٤٠َ ٣٥° شرقًا تقريبًا. وتاريخها غامض لا يعرف منهُ الاَّ القليل من يوم فتحها الامراءُ الشهابيون وكانَ هؤُلاء الامراء يسكنون مدينة شهباء بحوران في القرن الثاني عشر بعد المسيح فلما شقَّ صلاح الدين الايوبي وزير مصر عصا الطاعة للسلطان نور الدين الخليفة بدمشق خاف الشهابيون ان تقع نكبات الحرب عليهم فجمع اميرهم منقذ سائر الامراء وكبار قومهِ واشار عليهم بالرحيل فرارًا من مطالب السلطان نور الدين وتخلصًا من محاربة صديقهم صلاح الدين . فأَجابهُ الامراء والكبراء إلَى ذلك ورحلوا بعيالهم ومواشيهم واموالهم حتى جاؤُوا ونزلوا عَلَى جسر بنات يعقوب . فلما علم السلطان نور الدين برحيلهم بعث اليهم رسلاً يسأَلهم عن سبب رحيلهم ويحثهم عَلَى الرجوع إلَى اوطانهم . فعاد الرسل واخبروهُ ان الشهابيين عقدوا النيَّة عَلَى الرحيل وعدم الاوبة إلَى حوران فكتب إلَى اميرهم منقذ رسالة حوت ارقَّ العبارات والطف المعاني ووعدهُ

انكم لئن عدتم الى وطنكم فاني لادفع عنكم كل ضير واغمركم بكل فضل وخير وحمَّل الرسل الخلع السنيَّة والهدايا الفاخرة و بعثهم بها إلى الشهابيين . فاجابهُ الامير منقذ اننا حيث كنَّا فنحن عبيد شوكتكم نستظل بظل حمايتكم ولا نسير الاَّ بأمركم غير انَّا نستأذن جلالتكم بالرحيل من حوران فانها لا تقوم بمرعى انعامنا وقوت عيالنا . فاذن لهم السلطان نور الدين فعبروا الجسر وتوجهوا نحو وادي التيم وفي مقدمتهم اثنا عشر اميرًا والف فارس شاكو السلاح وكان عدد القبيلة نحو خمسة عشر الفًا فنزلوا في بيداء الظهر الاحمر

وكانت حاصبيا يومئذٍ بيد الافرنج معزَّزة بالحصون والابطال وكان الكونت اورا حاكمًا عليها فلما سمع بقدوم الشهابيين استنجد بقامة الشقيف فانجدتهُ بفرقة من الجنود فضمها إلَى حامية المدينة وخرج لمحاربتهم في مرج عيون . وقام العرب ايضًا لقتالهِ وصبروا عليهِ حتى عبر بجنودهِ نهر حاصبيًا وقد استخفوا بالعرب لقلة عددهم فحملوا عليهِ حملة واحدة وهو يصف جيشهُ للقتال فتقهقر مشاة الافرنج مذعورين وكان جل الاعتماد عليهم اذ كانت فرسانهم دونهم تحنكًا وانتظامًا فلما رأى هؤلاء ما كان من المشاة لم يخرجوا من مراكزهم . وفي اليوم التالي عبر احد الافرنج النهر وقصد العرب يطلب المبارزة فخرج الامير نجم ابن الامير منقذ لمبارزتهِ . ولما دار بينهما الكرُّ والفرُّ والطعن والضرب ابتدرهُ الافرنجي بضربة فاس فقطع رمحهُ نصفين . فلما رأى الامير نجم ذلك وعلم ان ضرب السيف لا يقطع في قرنهِ الغائص في الزرد والفولاذ وثب على متن جوادهِ وتعلق بهِ فسقطا كلاهما عَلَى

الارض يتصارعان. وكان الافرنجي مثقلاً بالسلاح والحديد ولكنهُ لم يبالِ بذلك لضخم هامتهِ وعظم قوتهِ. فلما شعر الامير نجم بذلك احتال عليهِ فاستلّ خنجره (خنجر الافرنجي) من منطقتهِ وضربهُ بهِ فقتلهُ. وكان العرب قد اجتمعوا خفيةً في زيتون المخاضة اثناء هذه المبارزة ٱلَّتي جرت في سهل الخان حيث تقام اليوم السوق المعروفة بسوق الخان. فلما رأَوا ما كان عبرت فرسانهم على جسر النهر وخاضت نياقهم مخاضتهُ. وكان العدو نازلاً في تلك النواحي فارسل عليهم سهامهُ كالمطر الوابل وقتل منهم خلقًا كثيرًا واجبر ركاب النياق عَلَى ان يقفوا للمدافعة. واما الفرسان وكانوا نحو الالف فصعد بهم الامراء في طريق العرضيَّة تحت السهام حتى احدقوا بأسوار حاصبيا فكوموا هناك الحجارة والاخشاب لتقيهم من النيران ٱلَّتي يرميهم بها حامية المدينة من الحصون. فلما رأَى الافرنج ذلك تفرَّقوا ايدي سبا وصعد الركب وعددهم الف وخمسمائة رجل حتى انضموا إلَى الفرسان فسلموا النياق لمن يحرسها وانتظموا كالجند المشاة

وفي اليوم الثالث حاربوا العدو بالسهام حتى دنا الظلام فنضدوا الحطب على ابواب المدينة وتهددوا اهلها بحرقها ان ابوا التسليم. فخاف الكونت اورا سوء العاقبة وحسب ان قومهُ يمدونهُ بالرجال و يفرجون عنهُ الكرب بعد زمان قصير فسلمهم المدينة على ان كل افرنجي يسلمهم سلاحهُ و يبارح المدينة سالمًا واما هو فاصطفى خمسمائة بطل من قومهِ وحاصر بهم في قلعة المدينة (لعلها السراي) فشدَّد العرب عليهِ الحصار ونصبوا المنجنيق على ابواب القلعة واقاموا الحجارة الكبيرة في

ثلثة اماكن بجانب جدرانها حتى صارت على مساواة الحصون واستمرُّوا في الحصار عشرة ايام واورا وقومهُ يأبون التسليم آملين ان يأتيهم المدد حتى فتح العرب القلعة عنوةً وقتلوا كل من كان فيها بحد السيف سنة ١١٧١ للمسيح و بعث الامير منقذ برؤوسهم الى السلطان نور الدين يبشره بذلك النصر العظيم فارسل نور الدين الخلع السنيّة والهدايا الفاخرة لهُ ولامراء عائلتهِ وكبار قومهِ . وولاَّهُ على حاصبيا وما جاورها وظلَّت حاصبيا تحت حكم الشهابيين إلَى عهدٍ قريب

مذبحة حاصبيًّا سنة ١٨٦٠

وحاصبيا الآن قصبة وادي التيم ومركز الحكومة وهي واقعة عَلَى قاعدة جبل الشيخ الغربيَّة و بالقرب منها النهر الحاصباني المنسوب اليها وحولها كثير من الحدائق والبساتين ذات الاثمار والمناظر البهجة وعَلَى شواطئهِ كثير من شجر الدفلاء والدلب والحور و يكثر في حاصبيا الكرم والزيتون والتين وتوت الحرير و بالقرب منها معادن الحُمَّر المشهورة والحديد وعَلَى بعد نصف ساعة منها إلَى جهة النهر خان قديم يظن بانهُ من ابنية الصليبيين وفي كل اسبوع يوم الثلثاء يصير فيهِ سوق يأتيها الناس ببضائعهم من الجهات المجاورة فيروج سوق البيع والشراء و يتجر اهل حاصبيا مع وادي التيم ومرج عيون وفي حاصبيا سوق تحتوي عَلَى نحو مئتي دكان ومنظر ابنيتها حسنٌ وبأهلها ذكاءٌ وجمالٌ و بأسٌ ونشاطٌ عَلَى الاعمال وفيها كثيرون من الامراء الشهابيين الذين حافظوا عَلَى الاسلام

وفي هذه المدينة دور اهمها السرايـ ﭐلَّتي جرت فيها المذبحة الوحشيَّة كما سيأْتي وهي دار متسعة جدًّا تحتوي على القاعات الفسيحة والقصور الشاهقة و بناؤُها كان على طرز دور دمشق من حيث الترتيب والانتظام وقد كان عدد سكان اهالي حاصبيا في سنة ١٨٦٠ نحو ستة آلاف نسمة اكثرهم نصارى من طائفة الروم الارثوذكس والباقون دروز ومسلمون و بها جوامع وكنائس وللدروز بالقرب منها معابد مشهورة يسمونها بخلوات البياضة فيها بعض من اهل التقشف والزهد منهم. وقد كان بها سنة ١٨٦٠ نحو ٢٥ اميرًا من آل شهاب المسلمين وكان الشهابيون حكامها وحكام البلاد المجاورة لها وقد تعرفوا في كل ايام ولايتهم عليها بالحسنى مع النصارى وغيرهم ولذلك كان الناس يحبونهم الَّا الدروز لاسباب ذكرناها

وتقدمت تلك المذابح الدمويَّة الهائلة اعمال مريعة اقل منها جرمًا واتساعًا وكان النصارى يشكون من ذلك ويوصلون شكايتهم إلى آذان احمد باشا في دمشق بواسطة البطركخانات واخصها بطركخانة الروم الارثوذكس ﭐلَّتي كانوا يراسلونها كل يوم بما هو واقع عليهم من التعديات والخطر وهي مع غيرها تعرض ذلك على احمد باشا والي الشام وهو رجل اشتهر بالخبائث وسيأْتي ذكرهُ وتطلب منهُ تلافي الامور وكف العداء فكان يعدها باجراء ما يجب من هٰذا القبيل و يظهر لها التطمين و يدعي انهُ ساعٍ في حسم الشرّ وكفّ العداء عن المسيحيين وكان عند ما يخلو بأَصحابهِ ويدور الحديث بينهم على الحوادث الجارية الخطرة يقول ربنا أَهلك الكافرين بالكافرين واجعلنا بسلام منهم .

ومن الحوادث ألّتي سبقت مذبحة حاصبيا الكبرى في اثناء هياج الدروز واستعدادهم للثورة ان شقيًا من دروز لبنان وُجد قاطعًا الطريق عَلَى اطراف قضاء حاصبيًا وقد افسد الحال عَلَى المارة في تلك النواحي حتى صار المرور خطرًا فارسلت فرقة من العساكر لكف شرهِ فظفرت بهِ وقتلتهُ فكان قتلهُ امرًا عظيمًا عَلَى طائفتهِ زاد عنها على الامراء والنصارى . ثم حدث ان ثلاثة من امراء الشهابيين كانوا بمحل يسمى تل القاضي فسطا عليهم عشرون فارسًا من دروز حاصبيا ولبنان ومجدل شمس وسلبوهم خيولهم وسلاحهم وجرحوا احدهم جرحًا بليغًا في وجههِ لامتناعهِ عن تسليم سلاحهِ و بعد تفاقم شرّ الجماعة وازديادهِ حضر رجل يسمى حسن الطويل من دروز لبنان يصحبهُ خمسون فارسًا إلَى النهر الحاصباني وكمن في تلك النواحي لقتل من يجدهُ من النصارى فعلم الناس بامرهِ فتمنعوا عن المخاطرة بانفسهم فازداد تقدمًا ففقدت لذلك امنيَّة الطرقات و باتت السبل مقطوعة بالكليَّة واذ لم يتمكن هٰذَا الشقي ومن معهُ مما قصدهُ هجم ليلاً على قرية الحوش من قضاء راشيا الوادي وسكانها من النصارى فقتل ثمانية اشخاص منهم والباقون لجأُوا إلَى الفرار فنهب القرية واحرقها بالنار عن آخرها فتسبب عن عملهِ هٰذَا ازدياد خوف النصارى وقلقهم وظلت الحالة تؤذن بالخطر الشديد الى ان جاء يوم الجمعة في ١٢ ايار (مايو) شرقي حينما كان اهالي حاصبيًا والقرى المجاورة مجتمعين في سوق حاصبيا للبيع والشراء فحضر للسوق رجل درزي يسمى علي طيفور من اهالي قرية شويًا وصاح بقومهِ بقصد تهييجهم قائلاً هنا مثنا خيال من دروز حوران قد حضروا المرج شويًا

« فكل عنزة تلحق بقطيمها » وكان الخبر كاذبًا ولكن تسبب عنهُ ارفضاض السوق ومن ثمَّ أخذ الدروز يستعدون للقتال و ينقلون حريمهم واولادهم ومتاعهم إلَى قرية شويًّا الواقعة على مسير نصف ساعة من حاصبيا لانهم جعلوها نقطة مركزيَّة لحركاتهم الحربيَّة وانضمَّ اليهم فيها اكثر من الف مقاتل من دروز مجدل شمس واقليم البلان و بلاد راشيا حتى زاد مجموعهم عَلَى الفين وخمسمائة مقاتل. واما نصارى القرى التابعة لحاصبيا فلما رأوا من الدروز هذه الاعمال تواردوا بعيالهم ومتاعهم إلَى حاصبيا واستعدوا لمقاتلة اعدائهم عند ما يبدأ القتال

وفي غلس السبت الواقع في ١٩ ايار (مايو) شرقي سنة ١٨٦٠ ارسل الدروز شراذمًا منهم نهبوا واحرقوا قرى النصارى واخذوا بالاعتداء عليهم فقتل النصارى في ذلك اليوم وهم يحامون عن ديارهم بضعة اشخاص من الدروز عَلَى اطراف حاصبيا

وفي صباح الاحد الواقع في ٢٠ مايو شرقي خرج الدروز من قرية شويًّا فرقًا فرقًا بالبيارق والحداء (الاغاني الحربيَّة) ثم تجمعوا شطرين وهجموا عَلَى اطراف حاصبيا من الجنوب والشمال الشرقي حيث كانت جموع النصارى متهيئة لدفع قوات المهاجمين واشتبك الحرب بين الجانبين نحوًا من ساعة فوقع الفشل في صف النصارى الجنوبي وتقهقر رجالهُ فتبعهم الدروز يصلونهم نارًا حامية فأدخلوهم البلدة ودخلوا وراءهم واخذوا يحرقون بيوت النصارى . اما صف النصارى الذي كان يقاتل في الجهة الاخرى فانتصر عَلَى اعدائهِ غير انهُ لما رأى الحريق في البلدة وعلم بما اصاب الصف الآخر ترك مراكزهُ وعاد إلَى

البلدة وكان الدروز قد تمكنوا منها ودخل النصارى جميعاً إِلَى سراي الامراء الشهابيين حيث كان العسكر فأخذ الدروز حين ذاك يطلقون الرصاص عَلَى السراي فقابلهم الامراء والنصارى بالمثل وحمي وطيس الحرب حتى بلغت الساعة الحادية عشرة نهاراً فتقهقر الدروز تاركين عدداً من القتلى وهكذا انتهى القتال بذلك اليوم بخسارة نحو من اربعين شخصاً من الجانبين . وكانت عساكر السلطان واقفةً تشهد القتال ولا تبدي حراكاً

وفي اليوم التالي وهو الاثنين في ٢١ مايوسنة ١٨٦٠ اعاد الدروز وانتشروا قبالة السراي واطلقوا طلقاً اشارة اتفقوا عليها مع قائد العساكر التركيَّة لافتتاح الحرب فرام النصارى مقابلتهم بالمثل فمنعهم عثمان بك قائمقام العساكر وقال بما ان قتلاهم وقتلاكم متساوون عدداً فأنا اصلح بينكم وبينهم وخرج من السراي واجتمع بأعيان الدروز برهة في خلوة البياضة المشرفة على حاصبيا وعاد إِلَى السراي . وعقب ذلك الاجتماع ازدادت جراءة الدروز وقحتهم فأخذوا ينهبون كما يجدونهُ في بيوت النصارى عموماً ويحرقون ما كان باقياً منها حتى لم يبقوا على شيءٍ وأعين عثمان بك ورجالهُ تنظر ولسانهُ يكرر التطمين . اما الامراء الشهابيون فالتجأُوا إِلَى بعض بيوت الدروز وقايةً لارواحهم وبقي النصارى بنسائهم واولادهم محفوفين بالمكاره والرعب والجوع الاَّ عائلة غبريل بقيت خارج السراي لان كبيرها المرحوم ميخائيل غبريل منع عائلتهُ من دخولها والتجأَ بها إِلَى دار السيدة نائفة جنبلاط شقيقة سعيد بك جنبلاط اللبناني المار ذكرهُ

ومما هو خليقٌ بالذكر هنا ان الامر والنهي صار كلهُ إلى يد الست نائفة في انحاء حاصبيا حتى صارت هي المتحكمة المطلقة في الاموال والارواح. وكان الامراء الشهابيون من زمان بعيد يطلبون إلى احمد باشا والي الشام ان يساعدهم على حفظ الامن في البلاد ويرسل اليهم قوة عسكرية لهذا الغرض فلم يجب طلبهم الّا في هذه الاثناء اذ ارسل اليهم قائمقاماً عسكرياً هو عثمان بك ومعهُ خمسمائة جندي من الاتراك وكان ارسالهم لقتل النصارى لا لحفظ الامن كما ترى. ولما احدق الخطر بالنصارى جمعوا خمسمائة ليرا عثمانيةً وقدموها هديةً إلى عثمان بك ليرضى عنهم ويخلص في حمايتهم لانهم يعلمون ان التركي لايعمل الّا بالرشوة فأخذ هذا اللعين المال منهم ووعدهم بما يريدون وخان العهد شأن غيرهِ من بني قومهِ الغادرين. واغرب من هذا ان سعيد بك جنبلاط جاء حاصبيا بنفسهِ في هذه المرّة وتحدث مليًّا مع عثمان بك والاغا التركي الذي ارسل للمحافظة (كذا) على راشيا ومنع الاعتداء فيها وعاد إلى المختارة بعد ان اتفق على كيفيّة ذبح النصارى بالخيانة والغدر شأن الجبناء الانذال الساقطين فوافقهُ معتمد السلطان على ما اراد. وبعد انصراف سعيد بك ألحّ بعض النصارى على عثمان بك بضمان ارواحهم فأعطاهم كتاباً رسمياً بختمهِ يضمن لهم فيهِ المحافظة على ارواحهم واموالهم وحملهم على الطمانينة باسم السلطان. ثم ان هذا الضابط التركي منع الناس من ادخال الطعام إلى النصارى الذين أصبحوا سجناء في السراي فلم يدخل اليهم الّا الخبز والماء حتى لايذوق اولئك المساكين لذة ويبقى افرادهم على قيد الحياة ليقتلهم الدروز قتلاً

وكانت هذه الاخبار قد وصلت دمشق فثار البطاركة والقناصل واعيان النصارى و بعض اصحاب الذمة من المسلمين وتوجهوا كلهم في ساعة واحدة إلَى احمد باشا الوالي يد ألونهُ العمل على وقاية النصارى فتملل واعتذر بقلة العساكر في البلاد وشدة الاضطرار اليها لقمع الثورة في البقاع وحوران ولما لم يمكن لم اقناعهُ بارسال الجنود الكافية لرد الثائرين ووقاية الارواح في حاصبيا رجوهُ ان يأمر عثمان بك ومن معهُ بنقل النصارى عن بكرة ابيهم إلَى دمشق الشام فلم يقدر على الامتناع واصدر الامر بذلك وارسلهُ في الحال مع احد ياورانهِ ولكنهُ أتبعهُ بامر آخر يلغيهِ · ووصل الامر المذكور يوم وصول نجدات الدروز إلَى حاصبيا تحت أمرة كنج العماد وعلي حمادة كما سترى فقرأهُ عثمان بك للجماعة السجناء ففرحوا فرحًا لا يوصف و بدأُوا بالدعاء للسلطان والوالي وعثمان بك وهنأُوا بعضهم البعض ونسوا كل مصائبهم الماضية وهم يظنون انهم سيصيرون في دمشق في اليوم التالي فينجون من الخطر ويسلمون ولكن الامر لم ينفذ ووقع بالنصارى الذي حسبهُ لم العارفون

وقد كان عدد الدروز يتزايد يوميًا مما يردُ اليهم من الجهات المجاورة قصد الغنيمة والفتك فيزدادون بذلك شدةً وقوةً و يوم الجمعة في ٢٥ مايو طلب الدروز من عثمان بك المار ذكرهُ تسليمهم جميع أسلحة النصارى ليؤمنوهم على ارواحهم او انهم يدخلون السراي عنوة فيقتلونهم عن آخرهم فلبى عثمان بك طلب الدروز وطلب من النصارى اسلحتهم جميعًا ليسلمها لاعدائهم فتردد اولئك المنكودو الحظ لتصورهم بالامر

مكيدة وبكوا لديهِ قائلين ان أخذ سلاحنا شرك لهلاكنا فاعفنا منهُ حماك الله اما ذلك القاسي فلم يقبل لهم عذرًا واجبرهم على تسليم اسلحتهم مطمنًا لهم متعهدًا بحمايتهم حتى تمكن غشهُ منهم وفاز بمقاصدهِ . ولما استلم الدروز أسلحة النصارى فرَّقوها بينهم وأعين النصارى تنظر وقلوبهم تنذرهم بحلول القضاء وتؤنبهم من اجل سقوطهم في ذلك الشرك الوخيم

ولحظ بعض العقلاء ان القصد ذبح النصارى عن آخرهم في السراي وفي مقدمتهم ميخائيل غبريل فقبلوا اقدام الست نائفة ورجوها ان تقتصَّ من المعتدين وتعفو عن الابرياء المساكين فكانت تقول لهم ان لابدَّ من ذبح الجميع لان اخي سعيد بك يامر بقتل كل نصراني عمرهُ من سبعة إلى سبعة وسبعين وان الحكومة هي ألتي تريد قتل النصارى عن آخرهم

وفي يوم الاثنين رابع شهر حزيران (يونيو) شرقي الذي هو اليوم الثامن من بدء هذه الحادثة توفي كنج ابو صالح في قرية شويًّا وهو شيخ قرية مجدل شمس المتقدم ذكرها على أثر جرح أصابهُ في اثناء القتال فعظم أمر موتهِ على قومهِ فاجتمع سوادهم واحتفلوا لهُ بمأتمٍ عظيم في تلك القرية كان مدارهُ التهييج وطلب الانتقام وفي ذلك النهار (الاثنين) ذاتهِ حضر علي بك حماده من اعيان دروز لبنان مصحوبًا بمئتي درزي شاكي السلاح وعقبهُ وفد الشيخ كنج العماد اللبناني (وقد كان وقتئذٍ محافظًا من جانب الحكومة على بقاع العزيز) يصحبهُ نحوًا من ستين فارسًا مدججين بالاسلحة ومائة وخمسون شخصًا من نصارى قرية

القرعون أحضرهم معهُ مظهراً بأن قصده أخذهم مع الامراء والنصارى إلَى دمشق الشام حمايةً لهم

وبعد ورود هاتين النجدتين بساعات قليلة اخذت فرق الدروز تقوم من قرية شويَّا بهيجان عظيم متوافدة عَلَى حاصبيَّا متجمعة حول السراي ورأى النصارى قرب ساعة الخطر فحاولوا الخروج من السراي وخاف عثمان بك ان يفلتوا من يدهِ ويخلصوا من الذبح فعاد إلَى تطمينهم واطلق مدفعين في الهواء وهو يقول لهم انهُ قطع دابر الدروز بهذين المدفعين فسكت المساكين ولكنهم رأوا خداع هٰذَا التركي في الحال

وفي الساعة التاسعة من النهار اجتمع في جامع البلدة علي بك حمادة وكنج عماد المذكورين مع اكابر دروز بلاد حاصبيَّا مثل مشايخ بيت قيس وخلافهم واستمروا مجتمعين إلَى الساعة العاشرة ثم خرجوا وطلبوا من عثمان بك القائمقام ان يسلمهم الامير سعد الدين شهاب وصهرهُ الامير جهجاه واحد عشر شخصاً من كبار النصارى واعيانهم ليقتلوهم فلبى طلبهم عَلَى الفور واخذ يسلمهم المطلوبين واحداً فواحداً مبتدئاً من النصارى وكان الدروز كلما استلموا شخصاً أماتوهُ شرّ ميتة بتقطيعهِ ارباً ارباً واول من قتل على هذه الصفة جرجس الريس كان يومئذٍ اكثر النصارى وجاهةً وكاتم اسرار الحاكم الامير سعد الدين شهاب قيل انهم قطعوهُ اكثر من مائة قطعة فيالله من هٰذَا التوحش الفظيع والفعل المنكر

وبينما كان القائمقام مشتغلاً بعملهِ هٰذَا الدال عَلَى خيانتهِ العظيمة لسلطانهِ ورعيتهِ هجمت جماهير الدروز عَلَى السراي هجمةً واحدة

ودخلوها من ابوابها دون ان يمانعهم العسكر اقل ممانعة و بعضهم تسلق جدرانها واحتشدوا في ساحتها الداخلية ٱلَّتِي كانت غاصة بالجانب الاكبر من النصارى رجالاً ونساء واطفالاً فازدحم هؤلاء المساكين في الجهة الشرقيَّة من ساحة السراي وطير الموت حائم فوق رؤوسهم وكأني بهم وحالتهم هذه لحماً عَلَى وضم وقد اصطفت الدروز في داخل السراي صفوفاً مرتبة كالعساكر المنظمة لتفتك بفريسة ليس لها من وسائل الدفاع شيئاً وما الفتك بها وهي عَلَى هذه الحالة الا اهانة للفاتك واظهار لجبانتهِ . ولما انتظمت صفوف الدروز صعد علي بك حماده المذكور إِلَى شرفةٍ في أعلى جدران السراي وجلس عَلَى كرسي واشار إِلَى صفوف قومهِ باشارةٍ فهموها فأطلقوا الرصاص عَلَى النصارى المزدحمين في الجهة الشرقيَّة من الساحة كما مرَّ فتساقط هؤلاء المساكين موتى سقوط ورق الاشجار وعيون اعدائهم تشخص بهذه المناظر المريعة بدون ان تتأثر قلوبهم او ترق لرجال ونساء واطفال أُخذوا غيلة ومكراً وخديعة و بعد هٰذَا الطلق صاح علي بك بقومهِ ان يكفوا عن اطلاق الرصاص حذر اصابة بعضهم بعضاً وان يكملوا مذبحتهم الهائلة بالسلاح الابيض فسمعوا قولهُ وسلوا سيوفهم وخناجرهم ومديهم وانقضوا عَلَى فريستهم انقضاض الكواسر مغننين متنافسين بأعمال البربريَّة ٱلَّتِي تشيب لهولها الولدان وتقشعرُّ من ذكرها الابدان وكانوا كلما ازداد اولئك المساكين نواحاً واسترحاماً واستغاثة ازدادوا قساوة وفظاعة وخشونة وظلوا بأعمالهم حتى جاءوا عَلَى قتل جميع من كان بساحة السراي ومخارجها السفلى من الرجال مصحبين معهم رجال القرعون وهم الذين أُتي بهم من البقاع .

وقد تغطت ساحة السراي بجثث القتلى وخرجت دماؤهم من جدرانها وصار في ارضها بركة يسبح بها المقتولون ما بين مقطوع الراس ومبتور الرجل ومكسور اليد ومشقوق البطن ومطعون الصدر ومصاب الظهر. منظر تتفطر لهُ الاكباد وتتمزق من هولهِ القلوب. ولما أكمل هذا العمل في اولئك المساكين امام والدة ترى هلاك ولدها وزوجة عذاب زوجها وولد حتف ابيهِ واخت مصاب اخيها اخذ الدروز يدوسون اولئك القتلى بنعالهم ويبحثون بينهم عمن بهِ رمق من الحياة فيكملون عليهِ. ولما أنهوا هذا العمل المريع صعدوا إلى أعلى السراي حيث كان الامير سعد الدين والامراء والعساكر وبعض النصارى مع اكثر النساء وهناك استأنفوا عملهم فبدأوا اولاً بالامير سعد الدين ولم يمهلوهُ ليصلي ركعتين لله قبل موتهِ فقطعوا رأسهُ وطرحوهُ من أعلى السراي إلى خارجها قائلين خذوا يا ايها المسلمون راس اميركم وادفنوهُ وارسل راس هذا الامير إلى سعيد بك جنبلاط في المختارة ثم قتلوا صهرهُ الامير جهجاه واربعة آخرين من الامراء الشهابيين احدهم أعمى وأطرش وقصدوا ان يأتوا على قتل بقية الامراء الا ان هؤلاء لما رأوا ما حل بالامير سعد الدين ومن قتل معهُ من الامراء دفعهم هول المنيَّة وحب الحياة إلى الدخول بين نساء العساكر واحتمائهم بهنَّ فانكفأ عنهم الدروز خوف سوء العقبى. ثم اعملوا سيوفهم بمن كان باقياً من النصارى وافنوهم عن آخرهم ولم ينجُ منهم الا الذين رموا بأنفسهم من اعالي جدران القلعة ومن غلبت حياتهم على جراحهم الكثيرة البليغة وقد نهبوا جميع ما في السراي من متاع ومصاغ وملابس النساء ايضاً

ومن اغرب حوادث هذه المذبحة الفظيعة ان عثمان بك التركي الذي تعهد بشرفهِ وشرف حكومتهِ ان يقي رعيَّة السلطان من القتل كان قاعدًا إِلَى كرسي عَلَى باب السراي ورجالهُ من حولهِ وهو يرى تلك الاهوال ويقهقه ضاحكًا مسرورًا وكان العساكر يردون كل مسكين يقصد الباب طلبًا للنجاة ويرمونهُ بالرصاص فيقتلونهُ في الحال ووقع واحد من هؤلاء المساكين تحت قدمي عثمان بك فوضع رجلهُ عَلَى جثتهِ وبقي عَلَى هٰذَا الحال إِلَى ان انتهى الوحوش من فعلهم المريع الهائل . وبعد ان تمَّ تشخيص هٰذَا الدور الوحشي المريع عَلَى مرأى من عثمان بك ومن معهُ من الضباط والعسكر توجه عثمان بك إِلَى السيدة نائفة المذكورة وطلب اليها ان تأتي السراي وتنقذ العساكر (لانهُ رأى الثائرين طامعين بهم) ومن بقي من النساء والاطفال وبقيَّة قليلة جدًّا من الرجال فترددت عن اجابة طلبهِ ولكنهُ اعاد عليها الالتماس وساعدتهُ عائلة غبريل الموجودة بدارها فرضيت وحضرت إِلَى السراي في نحو الساعة الاولى من بعد غروب شمس ذلك اليوم المشؤوم (الذي هو يوم الاثنين في ٤ حزيران (جونيو) شرقي سنة ١٨٦٠) وطلبت من قومها الاكتفاء بما فعلوا فانكفأوا عن القتل فأخرجت العسكر ومن بقي بقيد الحياة من النصارى واتت بهم إِلَى دارها وفي تلك الليلة نفسها احرق الدروز السراي المذكورة عن آخرها . وكانت هذه الفاجرة المتوحشة حين حضورها إِلَى السراي تبتسم وتضحك وتهنئ رجالها الدروز عَلَى ما اتموا من العظائم وهم ما اتموا غير الغدر والخيانة شيمة الجبناء الانذال

وكان في اثناء هذه الحوادث قد لجأ بعض النصارى من اهالي

حاصبيا وضواحيها إلى السواحل فقتل الدروز اكثرهم في اراضي مرج عيون حيث كانوا لهم بالمرصاد

اما العسكر والامراء وباقي النصارى الذين يبلغون نيف واربعمئة نسمة فبقوا في ساحة دار الست نائفة المذكورة وكانت الدار محاطة بدائرة من الدروز يتهددون الذين داخلها بالقتل والعذاب و بعد ستة ايام من حادثة السراي ورد امر للعسكر بالذهاب إلى دمشق فذهب وصحبهُ علي بك حماده لقرية الديماس (تبعد عن دمشق ست ساعات) وودعهُ ورجع إلى حاصبيا

ويوم الثلاثاء في ١٢ حزيران (يونيو) سنة ١٨٦٠ الذي هو اليوم الثامن لمذبحة السرايے الهائلة اجتمع وجوه الدروز عموماً بدار الست نائفة واقرُّوا على اعدام اللاجئين بدارها من الامراء والنصارى وانتخبوا ثلاثمائة من رجالهم لانفاذ ذلك وقد حفظوا الامر سرًّا بينهم بيد انهُ لم يخفَ على المقضي عليهم حيث علموا بهِ وباتوا بخوف يترصدون حلول الساعة . وفي اليوم التالي (الاربعا) في ١٣ حزيران (يونيو) عند الساعة العاشرة عربيّة عزمت الست نائفة على ترك الدار والتوجه الى خلوة البياضة لينفذ القرار بغيابها فتعلق الامراء والنصارى بأذيالها واخذوا ينوحون لديها ويلتمسون شفقتها عليهم و بقاءها في الدار حفظاً لحياتهم . وبينما هم على هذه الحال وفد اليها من اخيها سعيد بك رسول بتحرير منهُ يحرّضها بهِ على وقاية حياة جميع من كان باقياً من النصارى بدارها ويلقي عليها مسئوليّة اقل ضرر يصيبهم ويأمرها ان تأتي اليهِ بجميع من عندها بنسائهم واولادهم . وكان ذلك خداعاً منهُ

يقصد بهِ التخلص من المسئوليّة حين اللزوم ولم يصدر هٰذَا الامر الّا بعد علمهِ بذبح النصارى على حسب تعليماتهِ المنكرة فأَبلغت هٰذَا التحرير عموم الدروز فأَطاعوهُ ومن ثمَّ اخذت جميع من عندها وتوجهت بهم الى قرية المختارة محل اقامة اخيها المذكور فبقوا هناك بضعة ايام ثم ذهبوا الى السواحل البحريّة عراة حفاة طلبًا للرزق وسدًّا للعازة فذاقوا مرارة العيش وشدَّتهِ واستمرُّوا يتعيشون من فضل المحسنين الوطنيين والاجانب حتى زالت الثورة · وقد اسفرت هذه الحادثة المشومة عن القتلى الآتي بيانهم :

قتلى نفس حاصبيًا وغيرها من المسيحيين

٥٥٩	شبان
٠٣٠	اطفال لم يتجاوز سنهم الخامسة ٢٠ ونساء ١٠
٠٥٥	من اهالي قرية الكفير
٠١٣	من اهالي راشيا الفخار
٠٠٨	من اهالي قرية ابو قمحة
٠٠١	من قرية ميمس (كاهن)
٠٠٧	من قرى اخرى
٠٥٠	الرجال الذين اتي بهم من القرعون كما مرَّ
٠٠١	من الشام ندرا طوًّا ابن شقيقة المطران جراسيموس فرح
٧٢٤	مجموع قتلى النصارى

وعدد قتلى الدروز ٤٠

فصل

في راشيًا الوادي ومذاهبها

هي قصبة قضاء باسمها في وادي التيم في الجهة الشماليَّة الغربيَّة من جبل الشيخ تبعد نحو ١٢ ساعة عن دمشق إِلَى الجنوب الغربي واقعة عَلَى جانبي راية في وسط وادي التيم تجاه اعلى قمم جبل الشيخ ولذلك سميت براشيا الوادي تمييزًا لها عن راشيا الفخار . وارتفاعها عن سطح البحر نحو خمسة آلاف قدم وهواؤُها جيد جدًّا موافق للصحة غير ان ماءها قليل ومناظرها جميلة وعَلَى الخصوص من اعلى الرابية فان الناظر يشرف منها على ارضٍ طويلة حولهُ من الجبال والاودية . ومن القرية يسرُّ النفس منظر قمم جبل الشيخ المكسوة بالثلوج . واهلها اقوياء اشداء صحاح البنية يعمرون طويلاً لجودة هوائها وتعوُّدهم الاعمال البدنيَّة قيل ان بعضهم يعمر فوق المائة وقلما يشكون مرضًا . وعدد اهلها جميعًا اكثر من ٤٥٠٠ اكثرهم نصارى من طائفة الروم الارتوذكس و بعضهم بروتستانت . واما تجارة راشيًا فمقتصرة عَلَى القسم الشمالي من وادي التيم واقليم البلان لكن كثيرًا منها يرسل إِلَى حوران وغيرها ولها تجارة ايضًا مع بيروت والشام واكثر محصولاتها من الحمص والتبغ والقمح والشعير واراضيها وما جاورها من القرى وعرة ولكنها مخصبة وهي قليلة

الفاكهة والخضرة لقلة مياهها فيأتيها ذلك من سوق وادي بردى واما الكرم فيها فكثير وعنبها جيد لذيذ . واما تاريخها فليس بقديم على ما يظهر وليس بها من الآثار ما يدل على قدميتها الّا اسمها السرياني ويظن انها لم تعرف تاريخيًا قبل الصليبيين وهؤلاء بنوا بها مركزًا حربيًا لمقاتلة العرب الذين قدموا وادي التيم من شهباء حوران فسموا الشهابيين وذلك على عهد صلاح الدين الايوبي اي في القرن السادس للهجرة . وهٰذا المركز هو برج موجود في القلعة ألّتي بناها الشهابيون عند ما اخذوا المكان عنوةً من الصليبيين وجعلوها مركزًا لحكمهم ودارًا لسكنهم . وقيل انهم كانوا قبل بناء القلعة يأتون البرج المذكور و يصطادون الطير قرب عين ماء هناك وبذلك كثر الريش عندها جدًّا فسمي البرج برج الريش . قيل ومن ذلك اسم القرية ولذلك النسبة اليها ريشاني . وبعد بناء القلعة وتمكن الشهابيين هناك اخذ العمران يزداد إلى ان كبرت القرية وجمعت كثيرًا من السكان وكانت فيها منازل قدماء بني الاطرش . وقيل كان بها منشأ الدعوة الدرزيَّة في وادي التيم . واشتهرت بها من الدروز عائلة بني العريان ألّتي طار ذكر كبيرها شبلي باشا العريان وقد مرَّ ذكره

مذبحة راشيا الوادي

كان الدروز والنصارى في راشيا الوادي على وفاق بعضهم مع بعض اكثر من غيرهم الّا ان مقاصد الدروز في سنة ١٨٦٠ ونوايا الحكومة غيرت الاحوال في تلك الايام وجعلت غاية الدروز دماء

النصارى واموالهم وقد كان نصارى راشيا الوادي في تلك الايام كغيرهم لا يظنون بان الامور تبلغ تلك الشدة والفظاعة لاسيما انهم رأوا حكومة احمد باشا في دمشق قد بعثت إلَى مدينتهم عدداً كبيراً من العساكر المنظمة وانزلتهم القلعة او سراي الامراء الشهابيين الآ انهُ لما رأى الراشانيون استفحال الامور كل يوم عن امسهِ في لبنان وامتداد الاعتداء إلَى وادي التيم ونهبهم قريتي الظهر الاحمر والحوش واحراقهما وزحفهم عَلَى حاصبيا بدون معارض زال اطمئنانهم واوجسوا شرًّا وباتوا باضطراب كمن يتقلب عَلَى جمر الغضاء خوفًا ورعبًا حيث علموا بان الدروز لا بدَّ من ان يقصدوهم فأخذوا من ثمَّ يعقدون الاجتماعات للنظر في الوسائل ألَّتِي تنقذهم من الويل المحدق بهم وبعد مداولات كثيرة لم يتفقوا عَلَى رأيٍ حميد وما ذلك الَّا لتأثير سطوة الدروز بهم واتفقوا عَلَى السعي وراء السلام والسلامة وقرَّروا ان يذهب كبراؤهم وقسوسهم وشيوخهم إلَى عقلاء الدروز ويعرضون عليهم بذل الغالي والنفيس استرضاء لخواطرهم وكفًّا لهم عن الشرّ فان نالوا بذلك السلامة والامان كان المرام والَّا فيدافعون عن انفسهم ما امكن وقد كان هٰذَا الرأي من انحس الآراء واشأمها واشدها شرًّا عَلَى النصارى لانهُ ازال من خواطر الدروز ما كان بهم من هيبة النصارى وخوف بأسهم · وفي يوم الاثنين الواقع في ٢١ ايار شرقي (مايو) سنة ١٨٦٠ ذهب منتخبو النصارى لقضاء مهمتهم وطافوا بيوت جميع كبراء الدروز يبذلون لهم الدرهم والدينار خاضعين متواضعين وصرفوا بذلك يومهم كلهُ وانتهوا في المساء راضين عما اظهرهُ الدروز لهم من

اللين والملاطفة والمواعيد الكاذبة والتطمينات الفارغة حتى ظنوا بانهم نالوا المرام وقد زاد غرورهم بما أولم لهم الدروز بذلك اليوم من الولائم وما سمعوا من القول اثناء تلك الولائم وهو « اننا واياكم اخوان في الوطن وما بيننا وبينكم الاّ العيش والملح والحب والسلام » وقد خرج في مساء ذلك النهار المنادون ينادون عَلَى الناس قائلين يا ايها الناس لايحسبنّ احدكم حساباً لمكروه ولا يظننّ بنائبةٍ وليذهب كلٌّ لاعمالهِ فان الجميع في توادّ وحب ولايوجد الاّ السلام والامان فاغترّ النصارى بهذه المناداة ومن ثمّ لم يعودوا يلتفتون إِلَى الاخطار المحيطة بهم ولا ينظرون إِلَى المحافظة عَلَى قوتهم لاسيما عند ما اكد لهم ضباط العساكر ما اكدهُ الدروز وقد تركوا اسلحتهم وابعدوا عنهم كل احتراس . وكان الاغا التركي قد تخابر مليًّا مع سعيد بك جنبلاط واتفق معهُ على اشارات معلومة يفهمها الدروز وعلى احاطة راشيا بالجند حتى لا يفر واحد من النصارى قبل المذبحة وسافر سعيد بك إِلَى المختارة بعد ان رأى اوامرهُ تعمل في راشيا . وبعد غروب شمس ذلك النهار بوقت قصير سمع صوت طلق بارود من جهة غربي البلد ولم يمضِ على ذلك خمس دقائق حتى ملأ الضجيج الفلاء وعلت الضوضاء ومزّق صوت البارود كبد السماء واطبق الدروز على النصارى من اكثر جهات البلدة فوقع النصارى في حيرة واندهاش لان الذي حدث نقيض ما صدقوهُ من وجود الامان وما وثقوا بهِ من الايمان ومع ذلك لموا شعثهم بقدر الطاقة وما سمحت بهِ الفرصة وحملوا اسلحتهم ووقفوا للدفاع بوجوه اعدائهم الغادرين وقد بدأت المناوشة اولاً من جهة الشمال واستمرت

وقتاً قصيراً دافع بهِ النصارى عن انفسهم دفاعاً حسناً وفي اثناء ذلك وجه الدروز قوام إلَى الجهة الغربيَّة من البلدة وحملوا على حارة النصارى وقد كان الدروز يحسبون حساباً لهذه الحارة لعلمهم بشدة رجالها وقوة بأسهم وقد وجهوا القوة اليها من ابتداء الامر فوقف النصارى لاعدائهم وقوف من يحامي عن دمهِ وديارهِ بقلوب اثبت من الجلمود وهمم كهمم الاسود وقد استعرت نيران الوغى بين الفريقين وتحصن النصارى ببعض الصخور فوق محلتهم ودارت رحى الحرب وعلى الاخص على رؤوس اكمة وعرة تدعى بالمنشار وقد جاء ساحة الموقعة كل نصراني شجاع في البلدة ينجد اخوانهُ ويساعدهم على ملاقاة الخطوب والدفاع ففاز النصارى فوزاً لم يكن لهم بحساب اذ انجلت هذه الموقعة عن نحو ٧٠ قتيلاً من الدروز واثني عشر من النصارى الَّا انهُ لسوء بخت النصارى كانت قوتهم محدودة وقوة اعدائهم متدفقة لاسيما وان العساكر كانت متواطئة مع الدروز باطناً ولاجل هذه الاسباب لم يكن فوز النصارى الَّا من جهة واحدة فقط لان الجهة الاخرى خلت من المدافعين فاغتنمت فرقة كبيرة من الدروز الفرصة وتقدمت إلَى بيوت النصارى ونهبتها واحرقتها عن آخرها ولما انقضى الليل واصبح صباح الثلاثاء في ٢٢ ايار (مايو) شرقي كثر وفود الدروز عَلَى هذه البلدة من جميع النواحي والاطراف فاظهر قائد العسكر الاشفاق عَلَى النصارى لتزايد عدد اعدائهم ودعاهم إلَى دخول قلعة البلدة صيانةً لهم فلبى النصارى ذلك واخذوا يدخلون القلعة فرقاً فرقاً وكان كلما دخلت فرقة يأخذ سلاحها بداعي انها صارت تحت حمايتهِ وهو المسئول بالمدافعة

عنها وكانت القلعة قريبة جداً من محل القتال فلذلك سهل على النصارى دخولها ولم ينتصف ذلك النهار « الثلاثا » حتى لم يبق في ساحة القتال من النصارى واحد وصار جميعهم في وسط للقلعة مجردين عن الاسلحة واسباب الدفاع · اما العسكر فقد تلقى المحتمين بهِ في بادىء الامر بالوجه الباش والمحيا الباسم تطميناً لهم وتسكيناً لخواطرهم فانخدعوا بهذا الملتقى وما لبثوا ان أُحيطوا بعدد وافر من الجند احاطة السوار بالمعصم فباتوا في شرك الموت لا يرون للمدافعة او الفرار سبيلاً

اما الذين لم يدخلوا القلعة من النصارى فقد ذهب جانب منهم والتجأ إلى بيت احد وجهاء الدروز المدعو خزاعي اغا العريان وكان اكثر هؤلاء النصارى من طائفة السريان الكاثوليك ونفر قليل منهم من الروم وما لجأ السريان بخزاعي العريان الا لما بين العناحلة السريان « العناحلة نسبة إلى عين حليا التي جاؤُوا منها » والعريان من الصداقة القديمة والاتحاد فان كلا الفريقين كان من الحزب الجنبلاطي وقد قبل خزاعي اغا من لجأُوا اليهِ وهم وثقوا بهِ ايضاً ووضعوا اسلحتهم في احدى زوايا بيتهِ الا ان اكثرها سرق من نفس اهل البيت وكان دخول هؤلاء الجماعة لبيت العريان مساء الاثنين في ٢١ ايار (مايو) اثناء ورود جموع الدروز بعد المناداة بالامان كما تقدم القول ولما حمي وطيس الحرب في ليلة الثلاثاء وازدادت خسائر الدروز تهدد الدروز اليزبكية خزاعي اغا لانهم اعداؤُهُ وانذروهُ بقتل جميع اللاجئين اليهِ وكان شهماً لا يخون اللاجىء بهِ لجاء دارهُ وخاطب المسيحيين الذين عندهُ وعددهم خمسون رجلاً قائلاً يشق عليَّ جداً ان اخبركم بثقل

الحال عليَّ وعليكم لان الدروز اضمروا الشر لي ولكم وليس بالوسع دفع اعدائهم فحياتي ابذلها دونكم ولكن ذلك لا يضمن لكم الحياة فلحفظ حياتكم اشير عليكم ان تنهضوا والليل راخٍ سدولهُ وتقطعوا جبل الشيخ والقوم مشتغلون عنكم بالقتال فتصلون دمشق و يكون لكم بها مأمن عَلَى انفسكم وقد كان هٰذَا الرأي دليلاً عَلَى امانة خزاعي اغا المذكور واخلاصهِ لان كل الذين خرجوا من دارهِ نجوا بأنفسهم ولم يفقد منهم سوى اثنين او ثلاثة فقط في دمشق الشام حين حادثتها

وقد هاجر ليلة الموقعة قسم كبير من النصارى قاصدين الجبال والبراري والبلدان الاخرى فمنهم من ذهب إلَى لبنان وزحلة ومنهم من جعل وجهتهُ دمشق ومنهم من سار إلَى الجنوب الغربي نحو لبنان فقتل كثيرون من الفارين في نواحي البقاع وجهات اخرى · وقد قتل عدد وافر في نفس البلدة ايضاً ممن لم يحضر الموقعة

وكان قد لجأ قسم آخر من النصارى إلَى بيوت وجهاء الدروز فأجاروهم في بادىء الامر الأَ انهم في اليوم الثاني (الثلاثاء) نهضوا عليهم وقتلوهم بدون اشفاق خائنين حرمة العهود والجوار وكان من اشر الذابحين اللاجئين اليهم المشايخ اولاد ذاكي والمشايخ اولاد نصار فانهم اتوا من فظاعة الاعمال ما لا يوصف · اما المشايخ من آل عريان غير خزاعي فانهم دافعوا وحاموا عمن استجار بهم وكلٌ يذكر بما صنع والله لايضيع اجر محسن وهكذا تفرّق القوم شذر مذر فكانوا بين قتيل وفار وملتجيء الى القلعة ومعتصم بآل عريان الكرام

اما الذين دخلوا القلعة فقضوا فيها نحواً من ثمانية ايام كانت عليهم

أمرّ من الصبر واصعب من غصص الموت ذلك لان العسكر بعد ان رحبوا بهم يوم دخولهم ولاطفوهم قلبوا لهم ظهر المجن وعاملوهم بالقسوة والاهانة وشتيمة عقيدتهم وتبشيرهم بما سيصير اليهِ حالهم من السوء وما ينتهي اليهِ امرهم من الميتة الشنيعة وانهُ لا مهرب لهم من الشرك الذي سقطوا بهِ فليتصوّر القارئ حالة اولئك المساكين في تلك الايام الصعبة لاسيما عند ما شعروا بسقوطهم في شرك لاخلاص لهم منهُ وان من كان واجب عليهِ حمايتهم اصبح خائنًا لهم ولم يكن لهم في سجنهم هٰذا مأكل ومشرب الاَّ انهُ سمح لنسائهم بالتردد عليهم وتقديم المأكل لهم مما بقي من النهب وقد استمرُّوا عَلَى هذه الحالة السيئة ينتظرون سوء المصير إلَى يوم الثلاثا في ٢٩ ايار (مايو) شرقي فانهُ في ذلك اليوم قدم وفود أُخرمن الدروز من جهات مختلفة فرُّوا براشيا. وكان اكثرهم من دروز حوران انجلوا عن حاصبيا بعد مذبحتها وقصدوا الانضمام إلَى الذين كانوا حول دير القمر من ابناء جنسهم فلما رآهم الاغا التركي اشار اليهم بالمجيء فجاؤُوا ودخلت الفرقة الاولى منهم من بابي القلعة واعين العساكر تنظر اليها وقلوبهم ترحب بها وكان بأَيديها السيوف والمدي والفؤُوس وهي تهلل تهاليل الظفر والفوز ثم تبعها شراذم الدروز ينشدون نشائد الانتصار ويطلقون البنادق و يتهللون كانهم في مرسح فرح ثم اطبق باقي الدروز عَلَى القلعة والعساكر حافظين منافذها كي لا يفرّ احد من اولئك المساكين الذين اضحوا فريسة للذبح

ولما استوت فرق الدروز داخل القلعة امام فريستها ورأى اولئك المساكين سوء مصيرهم وغراب البين حائم فوق رؤُوسهم جنحوا الى

العويل والاستغاثة بضباط العساكر طالبين الاشفاق والمرحمة فلم يكن من مشفق ولا راحم ثم جرد الدروز سلاحهم السيوف للذبح والسكاكين للنحر والفؤوس للتقطيع والدبابيس لكسر العظام والجماجم وهجموا عَلَى اولئك المساكين حيث كانوا مجتمعين في رواق قصر الامير فندي شهاب في القلعة وما طال الامر حتى جرت المذابح وانحدر الدم إِلَى اسفل حيث كانوا بعد ان يثخنوا الرجل جراحًا يذبحونهُ و يلقونهُ من من اعالي القلعة فيسقط إِلَى الحضيض متكسرًا مترضضًا عَلَى الصخور ولم ينجُ من كل من كان في القلعة الاَّ رجلٌ واحدٌ القى بنفسهِ من اعلى قصر في جهة الشمال وقد اطلق عليهِ الدروز الرصاص مرارًا فلم يصيبوهُ بسوءٍ فتخلص ولم يكن احد من الدروز اثناء هذه المذبحة الهائلة يرق لنواح امرأة تشق الجيوب وتنثر الشعور او يتأثر من دمع رجل يفقد حياتهُ وامرأتهُ واولادهُ او يشفق لصراخ اطفال ينادون والدهم او والدة تلثم الارجل ملتمسة البقاء عَلَى ولدها وفلذة كبدها . والغريب ان الدروز والعساكر كانوا يعجبون ويفتخرون بهذه الفعال مع ان قتل الرجال بالخيانة بعد تجريدهم من السلاح وحصرهم في القلعة اكبر آيات الجبن وفقد المروءة

ولما انتهى الدروز من فتكهم هٰذَا جمعوا رؤُوس الامراء الشهابيين الذين قتلوهم مع المسيحيين في القلعة وعددهم اثنا عشر اميرًا ورؤُوس اعيان النصارى ورتبوهم في ديوان الامير فندي كمجلسٍ حافلٍ ووضعوا في افواه اكثرهم عصيًا للتشفي والاستهزاء والسخرية

وفي اليوم التالي الذي هو يوم الاربعاء في ٣٠ ايار (مايو) شرقي

بكر الدروز واقاموا حفلة سرور وافراح وولائم في محل المجزرة الوحشيَّة فرقصوا وطبلوا وزمروا وانشدوا ابيات المعنى معرضين بذكر شنائمهم وشامتين بالذين ماتوا ضحيَّة عسفهم وجورهم اولئك المظلومين الذين لجأُوا إِلَى كنف حكومة احمد باشا براشيا واحتموا في قلعة عساكرها فخانتهم الحكومة وسلمتهم للانذال الجبناء الذين فتكوا بهم وهم لا يقدرون عَلَى الدفاع عن انفسهم

وكان المرحوم المطران جراسيموس فرح الدمشقي مطران ابرشيَّة وادي التيم وقتئذٍ لطائفة الروم الارثوذكس قد بذل غاية الجهد ليلاً ونهارًا في ملافاة الامور لدى مشايخ الدروز ووجهائهم وقواد العساكر في حاصبيًا وراشيًا لحقن الدماء وبعاد اسباب الخراب فخاب سعيهُ

وقد اسفرت حوادث راشيا الوادي عن قتل ٢٧٠ ذكرًا داخل القلعة ٠ و٢٣١ خارجها في اماكن مختلفة من البلدة وفي الخارج فيكون مجموع قتلى راشيا ٥٠١ ٠ هٰذَا غير الذين قتلوا في قرى اخرى من وادي التيم وحرقت ديارهم ونهبت كما حرقت راشيا ونهبت ٠ وقد قتل من قرى مرج عيون نحو العشرين والباقون هربوا إِلَى جهات مختلفة

فصل

في دير القمر ومذابحها

دير القمر قصبة مديرية عَلَى بعد ٧ ساعات من بيروت إِلَى الجنوب الشرقي ونصف ساعة عن بيت الدين وهي بحسب نظام لبنان الحديث مركزهُ ٠ ولما حضر داود باشا المتصرف الاول اقام فيها دوائر الحكومة إِلَى ان اشترى بيت الدين وجعل لها بعد ذلك مديرًا مستقلاً يراجع في الامور السياسيَّة المتصرف ومحكمة كمحاكم اقضية لبنان فتستأنف احكامها توًّا إِلَى محاكم المركز ٠ وعدد اهلها بحسب احصاء سنة ١٨٦٢ ٨٥٧ مارونيًّا و ١٧٢ كاثوليكيًّا و ١١ درزيًّا في خلوات جرنايا فالمجموع ١٠٤٠ ذكرًا ٠ واما الآن فعددهم نحو خمسة آلاف نفس وكانت هذه البلدة مدينة الجبل العظمى وقصبة الدروز اشتهرت بمصنوعاتها ونشاط اهلها واقدامهم ورواج تجارتها وابنيتها العظيمة من عهد الامراء المعنيين ٠ وقيل انهُ في سنة ١٨٦٠ كان اهلها نحو ٨٠٠٠ نفس بين مسلمين ودروز ونصارى و يهود فلما حدثت فيها المذبحة الكبرى في تلك الثورة قلّ اهلها كثيرًا بالقتل والمهاجرة وكانت قبل فتنة سنة ١٨٤١ موطنًا للمشايخ النكديين حكام القطيعة فلما وقعت الفتنة بين الدروز والمسيحيين في السنة المذكورة طردوهم منها ٠ واما ارزاق دير القمر فاكثرها توت وزيتون و كروم وكان لها تجارة واسعة مع بيروت وصيدا

والشام ولبنان ووادي التيم وكان ينسج فيها الاقمشة الحريرية والقطنية ولاهلها ذوق في الاقمشة الحريرية المنقوشة وفيها سوق عامرة يقصدها الناس كل يوم من الجهات القريبة والبعيدة لاجل البيع والشراء . وام حاصلاتها الزيتون والكرم والحرير والحبوب واهلها اصحاب جد واقدام وذكاء في الاعمال . وبعد رحيل ابراهيم باشا عن سوريا انصبت عَلَى الاعمال والعلم وقد زادت انصباباً عَلَى ذلك بعد الثورة الَّتي حدثت بها في سنة ١٨٦٠ بين الدروز والنصارى واشتدّ تمسك النصارى بعروة الاشغال والمدنيَّة والعلم بعد وضع النظامات الخيرية لان الامنيَّة زادت وفتئذٍ ووجد نصارى دير القمر بان تفرغهم للاشغال افضل لهم ممَّا سواهُ وقد أفلحوا بما اتوهُ حتى انحصرت تجارة شمالي لبنان وبعض اواسطهِ بهم . واشتهر من علمائهم المرحوم العلاَّمة ميخائيل مشاقه واخوهُ جبران وغيرها ولتاريخ هذه المدينة علاقة كبرى بتاريخ لبنان لاسيما في ايام امرائهِ وعشائرهِ واما في هذه الايام فقد انحط عدد سكان دير القمر عما كان عليهِ لما اصابها من حوادث سنة ١٨٦٠ ولما تقرر عند صرف مشكلها ووضع نظامات لبنان من ان لايسكنها بل لايطأها درزي ولكن مع ذلك فقد ازدادت ابنيتها عدًّا واتقاناً ممن رجع اليها من اهلها بعد تلك الحوادث

وفي ١٥ آب (اغسطس) سنة ١٨٥٩ عند ما بدأت حادثة بيت مري الاولى كما تقدم وامتدَّ سعيرها حسب مسيحيو دير القمر بان تلك الحوادث لا يتأتى عنها سوى التدمير والخراب وانهُ سيزداد شرها كلما ازدادت التحزبات واقل نتيجة في ذلك لدير القمر بوار اعمالها

ووقوف تجارتها فتلافياً لهذه الاخطار ودفعاً لما خشوهُ من المات اجهدوا النفس في دوام الالفة بينهم وبين الدروز وسعوا في كل ما يؤيد السلام والراحة و يوجد الطأنينة . وقد عجب جيرانهم الدروز من هذا السلوك وارتاحت افكارهم من جهة دير القمر و باتوا لا يخشون منها بعد ان كانوا يحسبون لها اشد حساب وقد امتدحت الحكومة المحليَّة وقناصل الدول العظمى في بيروت خطة الديربين واثنوا عليها ثناء عظيماً

اما الدروز الذين كانوا ينظرون إلَى تقدم دير القمر وزحلة بعين الحسد ويطمعون بما لمسيحيي هاتين البلدتين من الاموال فقد سرُّوا من جنوح نصارى دير القمر إِلَى السلام وتقاعدهم عن الاستعداد لحربهم وحسبوا بأن تقاعد دير القمر يجعلها مغنماً لهم لاسيما لما كانوا يعلمونهُ من سياسة احمد باشا ونواياهُ واعتقدوا بأن سقوط دير القمر يسبب سقوط زحلة ايضاً وبعد سقوط هاتين المدينتين وحاصبيا وراشيا يستقلون بالنفوذ في اواسط لبنان وجنوبيهِ وفي وادي التيم والبقاع وتمسي تلك البلاد لهم ولاجل بلوغ هذه الاماني لم يظهروا لدير القمر شيئاً من العداء في باديء الامر بل جاروها علَى ميلها السلمي محافظين بسرهم على ما كتموهُ لها من الشرّ لحين دنوّ الساعة حتى لا تفطن لما يبطنون فتأخذ بطرق الوقاية لنفسها . واستمرُّوا علَى ذلك لغاية شهر ايار (مايو) سنة ١٨٦٠

وفي نهار الجمعة الواقع في اول حزيران « يونيو » صباحاً بينما كان نصارى دير القمر ناعمي البال لايحسبون للشرّ حساباً خرجوا من بيوتهم

لمعاطاة اشغالهم عَلَى عادتهم فرأوا بلدتهم محاطة بجموع الدروز من كل جهاتها يقودهم مشايخ عائلتي ابي نكد وعماد وعدد الدروز ٢٠٠٠ رجل فدهشوا لذلك اذ لم يكن بحسبانهم ان الدروز تفاجئهم هذه المفاجأة حال كونهم عَلَى سلام معهم وفي البلدة عدد وافر من جند الحكومة المنظمة وظلوا يحسبون الامر سحابة صيف لظنهم بأن الجند تفرق جموع الدروز وتجلها عن البلدة . ولا عجب فانهم كانوا قد اطلعوا عَلَى امر خورشيد باشا والي بيروت وقتئذٍ الى حاكم دير القمر يمتدح بهِ سلوك نصارى دير القمر السلمي غاية الامتداح ويؤمنهم من اعدائهم ويعدهم بعضدهم والمدافعة عنهم بقوة السلاح اذا جدّ ما يخشونهُ او حدث ما يكدر راحتهم . الّا انهم ما لبثوا ان تأكدوا الغدر حيث ان تلك الجنود لبثت آويةً بقلعتها كانهُ ليس من امر وحاكم البلدة غير مهتم بشيء فالتزم النصارى اذ ذاك ان يدافعوا عن انفسهم بانفسهم مع ما هم عليهِ من عدم الاستعداد فذهب القادرون منهم إلَى اسلحتهم وخرجوا لدفع هجوم اعدائهم وهكذا اشتبك القتال والدروز يهجمون والنصارى يصدونهم بعزم شديد محامين عن ديارهم وذراريهم إلَى ما بعد الغروب بساعتين حيث عاد الدروز عن المدينة وكفوا عن الهجوم وبات النصارى يحافظون عَلَى مدينتهم خيفة ان يدخلها الدروز غيلة

وفي خلال القتال قصد البعض الالتجاء إلَى الحاكم في السراي فوجدوا الابواب موصدة فأخذوا يقرعونها مستجيرين بمن داخلها فلم يكن من يجيب واخيراً جنح بعض المتقدمين في السن إلَى قاضي الحاجات وهو الاصفر الرنان فسمع بهِ الحرس من خلال الباب فسمحوا لمن بذلهُ

بالدخول وهكذا صار لايدخل السراي احد الاَّ من جعل الرشوة الكثيرة ممهدة سبيلهُ اما النساء فكنَّ بذلك النهار باكيات نائحات مستجيرات مستغيثات ولكن اين من يجير او من يغيث . وقد كانت خسائر النصارى في ذلك اليوم ١٧ قتيلاً وبعض الجرحى اما خسائر الدروز فاكثر من مائة منهم ١٧ عسكريًّا كانوا باللباس العادي يساعدون الدروز

وفي غد اليوم التالي عاد الدروز إلَى القتال وهجموا عَلَى البلدة ليضطروا النصارى إلَى الخروج لقتالهم وهكذا اشتبك القتال فخرج القوم للدفاع واما كبراء النصارى واعيانهم فتقدموا لحاكم البلدة وضباط العساكر سائلينهم بالكتابة واللسان المحاماة عنهم ضد جيوش الدروز عملاً بوعد الوالي خورشيد باشا او يعطونهم ذخيرة وهم يحامون عن انفسهم واموالهم فأجابهم الحاكم والضباط باننا لم نبلغ او نؤمر البتة بالمحاماة عنكم او باعطائكم ميرة فلذلك لا رجاء لكم بمساعدتنا . انما ننصحكم اذا اردتم السلامة ان تتوجهوا إلَى سعيد بك جنبلاط وبشير بك ابي نكد «وكانا من حكام الدروز في الجبل» وتلقون بين ايديهما اسلحة النصارى وهما يكفان الشرّ عنكم . فعند ما رأى هؤُلاء الاعيان ما كان قصدوا الالتجاء إلَى اعدائهم لعلَّ في ذلك خلاصًا لهم فحرروا اعراضًا إلَى سعيد بك جنبلاط الذي كان وقتئذٍ في بيت الدين عند عبد السلام بك امير الاي العساكر المنظمة واخبروهُ بامرهم وانهم سيسيرون اليهِ ويكونون تحت اوامرهِ بشرط ان يفرج كربتهم وينقذهم من المخاطر المحيطة بهم ووضعوا هٰذا العرض مفتوحًا عند الحاكم ليرسلهُ

اليهِ . فتناول الحاكم العرض المذكور ووضعهُ ضمن تحرير منهُ مع نفرين من العسكر إِلَى صاحبهِ وبعد وقت قصير ورد الجواب من سعيد بك جنبلاط فحواهُ انهُ يجب الاجتماع عَلَى بعض وجهاء النصارى للمداولة في الامور الحاصلة فلبوا طلبهُ وحصلت جلسة دار الحديث فيها عَلَى وجوب خلود النصارى إِلَى السكينة والاطمئنان وتعهد البك بجلاء الدروز وما ارفضت الجلسة الَّا وصدرت الاوامر للدروز بالانجلاء عن دير القمر فانجلوا عنها ولكن يومًا واحدًا فقط وبعدهُ عادوا للتجمع

ونهار الاحد الواقع في ١٥ حزيران « يونيو » احاطت الدروز بدير القمر احاطة الهالة بالقمر فانقطع كل اتصال بينها وبين الخارج ونهبت البيوت الَّتي في ظاهرها وحرقت وقتل اثنان احدهما اسمهُ خليل دَبر والآخر اسعد الحلبي وقد قدمت شكوى للحكومة فيما هو جارٍ واخطرت بالاخطار العظيمة الَّتي تنجم عنهُ فاصدرت امرها بان لايخرج احد من الاهالي خارج البلدة او يقترب من البيوت الَّتي بظاهرها ومن يخالف هذه الاوامر وأُلحق بهِ ضرر فهي غير مسأُولة عنهُ كما انها في الوقت ذاتهِ حظرت عَلَى الدروز الغرباء دخول البلدة فاطمأَنت قلوب الناس نوعًا الَّا انهُ ما جاءَت ظهيرة هٰذَا اليوم نفسهِ حتى اظهر الدروز عدم الامتثال لامر الحكومة المذكورة حيث دخل البلدة كلٌّ من سليم بك وشاهين بك ابي نكد مع عدد غفير من الدروز وتوجهوا إِلَى السرايے وعوضًا عن ان يصادفوا من الحكومة وضباط العساكر الصد والمؤَاخذة قوبلوا بالبشاشة والترحاب والثغور الباسمة . وبعد وقت قصير ايضًا دخل جمهور آخر من الدروز وتفرَّق في البلدة واخذ يهين النصارى

رجالاً ونساء ويحول بينهم وبين السراي عند ما رأى فيهم الميل إِلَى دخولها وقد ادعى الجمهور الاول بان دخولهُ المدينة كان لمنع الجمهور الثاني عن دخولها . وما ذلك الاَّ مواربة ظاهرة عليها شرٌ كامن . وقد تسبب عن هذه الحوادث اضطراب افكار النصارى وقلقهم وسلب راحتهم

وعند غروب شمس ذلك اليوم اتى البلدة طاهر باشا كومندان عسكر بيروت ومعهُ اربعمائة جندي منظم وصحبهُ سعيد بك جنبلاط وعلي بك حماده وجمهورٌ غفيرٌ من الدروز مسلحين بالسلاح الكامل . وقبل ان يدخل طاهر باشا البلدة حصل بينهُ وبين من معهُ مداولة استمرت ساعة من الزمن تقريبًا حضرها بشير بك ابي نكد ايضًا . وبقي ما دار بها مكتومًا عن النصارى الاَّ ان ما حدث بعدها دلَّ عَلَى انها كانت لتحكيم الشرك عَلَى المسيحيين واغنيائهم . وبعد ارفضاض الجلسة تقدم طاهر باشا ومن معهُ إِلَى البلدة فلما اقترب منها خرج اعيان النصارى لاستقبالهِ والترحيب بهِ . واول شيء قالهُ لهم انهُ تكدر جدًّا من سلوكهم وعدّهم من الخائنين الذين يعملون على خراب الدولة واهاجة الفتن بغية ادخال الدولة الفرنساويَّة إِلَى لبنان . فتذلل القوم لديهِ وبرهنوا لهُ عَلَى طاعتهم وامانتهم فتظاهر بالاقتناع بعد ذلك الغضب وقال انهُ يأسف جدًّا مما أُلحق بهم وان السبب الوحيد الذي اضطرهُ ان يأتي لاغاثتهم هو لانهم رعايا امناء للباب العالي ولهم الحق الاكبر بان تحمى ذمارهم ومِنْ واجبات الحكومة ان ترفع العداء عنهم وانهُ هو ضامِن لهم حياتهم واموالهم وراحتهم وبعد ان سكن خواطرهم

وحملهم على الطأنينة صرفهم من حضرتهِ مكرراً مواعيده وشخص إلى بيت الدين « مركز حكومة لبنان » القريبة من دير القمر ولاجل زيادة اطمئنانهم ترك عندهم الجنود الذين كانوا معهُ

وفي الغد بعث طاهر باشا المشار اليهِ إلى دير القمر يستدعي وجوه النصارى ليوافوهُ إلى بيت الدين فساروا اليهِ على عجل فتلقاهم بغاية الترحيب والبشاشة مجدداً لهم المواعيد بصيانتهم وضمان حياتهم واموالهم وراحتهم ولكنهُ طلب منهم تعهداً مكتوباً على انفسهم بعدم اتيانهم ما يخلّ بالراحة وان يكونوا طوع ارادتهِ ويمتنعوا عن حمل السلاح في البلدة فحرّروا لهُ التعهد المطلوب وامضوهُ جميعاً وقدموهُ لهُ وطلبوا منهُ بالمثل ان يتعهد لهم كتابةً بضمان امنيتهم وما وعدهم فأبى عليهم ذلك وقال ان كلمتي هي تعهد كافٍ وان حكومة دير القمر وقوّاد العساكر يكونون تحت المسأوليَّة الشديدة الكليَّة اذا تقاعسوا عن السهر على راحتكم فاطمئنوا واذهبوا إلى اشغالكم واعمالكم واعلموا اهل البلدة بما تعهدت لكم بهِ لكن ليكن معلوماً عندكم ان الحكومة لا تكون مسأولة عن الضرر الذي يصيب من يخرج منكم خارج البلدة « وما غايتهُ بهذه الجملة الاخيرة الاَّ منع المهاجرة كي يبقى الكل داخل الشرك خرافاً للذبح لا يفلت منهم فالت » فركنوا إلى كلامهِ واطأنت قلوبهم بهِ وعادوا إلى البلدة وهم يظنون بلوغ المنى . وحدث في ذلك اليوم ان بعض اصدقاء سعيد بك جنبلاط من النصارى توجهوا بعيالهم قاصدين المختارة محل اقامة البك مخفورين ببعض رجالهِ فعند مرورهم بالقرب من بيت الدين امر طاهر باشا احد ضباطهِ ان يمنعهم من المرور وان

يرجعهم إلَى بيوتهم منكرًا عليهم ترك البلدة وان يعيد لهم التطمين والتأمين ففعل ولكن اذا طلب اولئك الرجال مداومة السير رفض طلبهم واستعمل هٰذَا الضابط القوة في ارجاعهم

وفي الغد «الثلاثاء» سابع عشر حزيران «يونيو» سنة ١٨٦٠ ذهب طاهر باشا من بيت الدين إلَى دير القمر واحضر الاهالي لديهِ وجدد لهم التأمينات والتطمينات والتعهدات الَّتِي ابداها لهم في الاجتماع السابق فشكروهُ مظهرين ثقتهم بهِ واتكالهم عَلَى حماية الحكومة لانهم من اولاد الدولة وعبيدها الامناء

وبعد هنيهة علموا بانهُ (اي طاهر باشا) مزمع عَلَى السفر إلَى بيروت تاركًا اياهم محاطين بالاعداء من كل جانب ومحظورًا عليهم الخروج خارج البلدة لجلب القوت وطلب الرزق وعرضوا عليهِ واقعة حالهم فأجابهم بما انكم ابناء الدولة ورعيتها فانا مهتم بشأنكم فلا اترككم الأَ وكلما يأول لراحتكم موجود عندكم فكونوا مطمئنين فأرضاهم جوابهُ وخرجوا من حضرتهِ داعين شاكرين

وبعد ذلك بيومين حضر من صيدا الى دير القمر خمسمائة عسكري منظم مع مدفعين وانضموا إلَى القوة العسكريَّة الموجودة فصارت مؤلفة من تسعمائة جندي جزء منهم في بيت الدين والباقي في دير القمر

وبعد وصول هذه القوات اتى طاهر باشا دير القمر حيث كان ذهب إلَى مقرهِ بيت الدين واستدعى اعيانها وجدد لهم مواعيدهُ وتعهداتهِ وقال ينبغي ان تكونوا بغاية الاطمئنان بوجود الجنود السلطانيَّة بينكم وانني اصدرت الاوامر اللازمة للضباط ليحاموا عنكم

وقت الضرورة وعليهِ فلا يلزمكم ويلزم الاهالي الاَّ الاهتمام باشغالهم واعمالهم واسباب معاشهم فقط · وبعد هٰذا الحديث طلب مناديًا واطاقهُ ينادي في كل البلدة بوجود الامان والطأْنينة وان لايلتفت الناس لشيء الاَّ لاشغالهم ومصالحهم فقط فسكن روع الناس واطأْنت نفوسهم وذهب ما كان عندهم من الخوف واهملوا وسائط التوقي

وفي الوقت نفسهِ امر طاهر باشا حاكم البلدة ورؤساء العساكر بالانتباه واليقظة وان لايدعوا البتة درزيًا مسلحًا يدخل البلدة · ورتب حرَّاسًا وخفراء يطوفون ليلاً ونهارًا حول البلدة · وامر رؤساء العسكر ابدًا بجلب الحنطة لعوز الاهالي والسعي في كما فيهِ راحتهم وبعد ان اكمل دور اعمالهِ وبات النصارى في الحالة ٱلَّتي يريدها هو ورئيسهُ احمد باشا (اي وجودهم في قفص حديدي لا مخرج لهم منهُ ابدًا) سافر مودعًا بشكر الاهالي وثنائهم

وبعد سفر طاهر باشا بقليل عاد الدروز واحاطوا بالبلدة احاطة السوار بالمعصم واخذوا كل المؤونة الواردة اليها وقد خرج ثلاثة من النصارى اصحاب العيال لكرم ازاء البلدة ليحضروا منهُ شيئًا لاجل قوت عيالهم فقتلوا للحال · وقد اعرض النصارى واقعة الحال لحكومة البلدة والضباط واعربوا لها عن حاجة البلدة للمؤونة وعن تعرُّض الدروز لذلك فكان الجواب تشديد منع الخروج من البلدة واعلانها عدم مسؤوليتها عمن يخالف هٰذا الامر ولو اصابهُ اي ضرر كان فرضخ النصارى لذلك محتملين الشدة واثقال العوز الى المؤونة واستمرَّ الحال عَلَى ذلك حتى نهار الاربعاء في ٢٠ حزيران (يونيو) سنة ١٨٦٠

وكان الدروز في الليلة السابقة يستعدون للهجوم و يعطون الاشارات بعضهم الى بعض فرأى النصارى تلك الاشارات وفهمها بعضهم ولكن القسم الاكبر ظنها من قبيل الفرح والالعاب النارية

وفي ذلك النهار اي ٢٠ حزيران (يونيو) اخذ الدروز يدخلون البلدة فرقًا فرقًا من كل ناحية ومعهم الاسلحة مدعين بأنهم آتين من قبل المقاطعجي (مدير المقاطعة) للمحافظة عَلَى الاهالي ومنع كل أذية عنهم الأ ان النصارى لما رأوهم عَلَى هذه الصفة توجسوا شرًّا ولاسيما عند ما نظروا ان العسكر لم يبدِ لهم أدنى معارضة خلافًا لما امر بهِ طاهر باشا قبل سفرهِ فأعرضوا الامر لحاكم البلدة والضباط فهؤلاء حالاً نهضوا وطافوا في البلدة منادين بالامان وان لا خوف عَلَى النصارى ابدًا محظرين عليهم (اي عَلَى النصارى) حمل السلاح و بينما المنادي ينادي والحاكم والضباط في تطوافهم سمع بغتة صوت الطبل فدخل بعض العسكر السراي وابتدأ الدروز ومعهم البعض الآخر من العسكر ينهب وسلب كلما وصلت اليهِ ايديهم بدون معارض وعندغروب الشمس قتلوا نصرانيًا اسمهُ حبيب الباحوط امام باب السراي بحضور رجال الخفر و بعد ذلك بوقتٍ قصير قتلوا راهبين في ذلك المحل بعينهِ . واستمرّ الدروز ذلك الليل بطولهِ طائفين بالبلدة رجالاً ونساء عَلَى انوار المشاعل ناهبين سالبين والنصارى بحيرة وارتباك لا يدرون ماذا يفعلون فان دافعوا عن انفسهم خافوا انقلاب الحكومة عليهم بمخالفتهم ما تعهدوا لها بهِ وان صبروا عَلَى البلوى واتكلوا عَلَى الحكومة فهي متغاضية متقاعسة والمسألة مسألة اموال وارواح .

وكانت الحكومة قبل ذلك النهار قد جمعت كل ما امكن لها جمعهُ من سلاح النصارى كما تقدم

وفي الغد وهو الخميس ٢١ حزيران (يونيو) وصل دير القمر جماهير كثيرة من الدروز وافدين من جهات لبنان ودخلوها بأسلحتهم بدون ان يصادفوا من الحكومة اقل معارضة. ولما رأى ذلك النصارى تاكدوا اشتداد الحال عليهم و بلوغهم شفا هاوية الهلاك والدمار وانهُ لم يبقَ لهم من طريقة لنجاتهم بحسب ما ظنوا الأَ الالتجاء للسرايے والاحتماء بكنف الحاكم والعساكر الموجودين فيها فلجأ بعضهم اليها آخذين معهم ما تيسر لهم اخذهُ من الامتعة اَلَّتي امكنهم اخفائها من النهب فتلقاهم العسكر بالقبول فظنوا انهم بلغوا دار الامان . وقد لجأ جانب منهم الى بيت الدين فاستقبلهم قائمقام العساكر المنظمة عَلَى الرحب والسعة وبقي بعضهم مختفياً بالبلدة

ومن بعد ما نهب الدروز البلدة بغير ان يروا صادًّا او ممانعًا يمنعهم عن شرهم اخذوا بالتفتيش عَلَى الانفس فقتلوا كل من صادفوهُ من الرجال والاولاد حتى وبعض النساء ايضاً وقد أجروا من الفظائع والاعمال البربريَّة ما تقشعرُّ منهُ الابدان لانهم كانوا يذبحون الاولاد في احضان امهاتهم والرجال عَلَى ركب نسائهم ويحرقون كثيرات من الناس وهنَّ احياء في الطرق والشوارع متفاخرين بتلك الاعمال الشنيعة متهللين متنافسين وكانوا يذرون رماد اولئك المساكين في الفضاء ليصعد الى طبقات السماء مع الرياح ويشهد لملائكتها كما شهدت دماؤهم لاهل الارض بما عوملوا بهِ من الوحشيَّة والظلم

ولما انتهوا من البلدة ولم يبق لهم بها من يفحونهُ على مذبح شرورهم تجمهروا وقصدوا السراي ليذبحوا اللاجئين اليها من النصارى وكانوا نيف وثمانمائة رجل وجمهورٌ غفيرٌ من النساء والاولاد فنظر اليهم النصارى وتوقعوا الشرّ ودنوّ الاجل لانهم باتوا داخل قفص من حديد لاشيء من اسباب الدفاع لديهم بعد ان اخذت اسلحتهم منهم الاّ انهم كانوا يعللون النفس بالسلامة و يدفعون تلك المخاوف بتذكر مواعيد طاهر باشا وضماناتهِ واعتقادهم بانهم في حمى الحكومة فلا يجسر الدروز على الهجوم عليهم لحرمتها . الآن كل هذه الاماني المعقولة زالت من اولئك المساكين بوقتٍ قصير وانقطع كل رجاء منهم حيث لما كمل تجمع الدروز امام السراي او القلعة تقدم احد الجنود (باشارة من رؤسائهِ) وفتح الابواب امام الحاكم وقائمقام العساكر وكثيرين من الضباط فدخل الدروز للحال وانقضوا على فريستهم انقضاض الكواسر و بأيديهم الفؤوس مشهورة والسيوف مسلولة والحراب مجرّدة واخذوا بقطع الرقاب وطعن الصدور و بتر الاعضاء وارتكاب الشرّ والتفنن في الوحشيَّة والعسكر يرى مقهقهاً ضاحكاً على اولئك المساكين الذين راحوا ضحيَّة الخيانة والغدر. وقد تفنن الدروز بشرهم تفنناً غريباً فعذبوا الابرياء بأنواع العذاب المرّ فكان بعضهم يقطع الرأس ويبتر الاعضاء عضواً عضواً ولا يبالي بأنين المصاب و آلامهِ و بعضهم يقطعون اصابع النصراني مخاطبينهُ خطاب الجمع قائلين بهذه الاصابع كنتم تكتبون طالبين المساعدة والصيانة فخذوا الآن جزاء ما جنيتم واجوبة ما كتبتم ثمَّ لا يلبثون ان يهدروا دمهُ

قائلين تغسل بهِ وتنعم آخر نعيم بدنياك و بعضهم كانوا يصبون عَلَى راس النصراني ماء غاليًا اتوا بهِ من العسكر و يقولون (بل بهِ وها السيف مز ينك بعده) و يقطعون رأسهُ بعد قطع آذانهِ وانفهِ وتشويه خلقتهِ وبعضهم يأتون بالولد و يذبحونهُ بحجر والدتهِ وبعضهم يجرُّون الزوج و يجندلونهُ عَلَى ركبة امرأتهِ وقد جاءوا غير ذلك من الاعمال القاسية البربريَّة ممَّا يضيق لوصفهِ الصدر و يفرغ من تلاوتهِ الصبر . ومن امثلة ذلك ان امرأة فارس الحداد ذبح زوجها على حجرها وبقي طفلها الرضيع على ذراعيها فخافت عليهِ والتمست الاستجارة والعفو عنهُ فما كان جواب نداها الاَّ اخذ طفلها من يدها وذبحهُ امام عينيها . واخرى كانت حاضنة طفلها الرضيع فأُخذ منها وصراخهُ يجرح الفؤاد واستجارتهُ بأمهِ تلين الجماد ودُفع في الفضاء واستلقي بالسيف فقدَّ شطرين ثم دفعهُ لوالدتهِ المسكينة وقيل لها ها قد سكتناهُ لكِ فالوالدة تأثرت من روع العمل وقضت نحبها في الحال . واخرى هي زوجة عبد الله ابي نجم ذبح اولاً زوجها عَلَى ركبتها فاستغاثت واستجارت وكان نتيجة عملها ان جرَّ اولادها الثلاثة وذبحوا عَلَى ركبتها واحدًا بعد واحد . واخرى اذ رأت ابنها ذبح امامها فقدت رشدها فأتوا بأخشاب ووضعوها عليها وحرقوها حيَّة وقد قتلوا كثيرات من النساء والاولاد . واستمرَّ الدروز عَلَى عملهم هٰذَا حتى لم يبقَ امامهم نصراني ظاهر فأخذوا يفتشون في جهات القلعة حتى لا يبقى من يفلت من ايديهم وكان العسكر يساعدونهم عَلَى ذلك كما انهُ اثناء دخول الدروز وهٰذَا عملهم كان اذا رام نصراني الالتجاء إِلَى العسكر والدخول بينهم للاحتماء بهم من وجه مطارديهِ او

اختفاء من اعدائهِ يدفعونهُ بالحراب . وقد اماتوا بعضاً بطعن حرابهم وتمكن اثنان من النصارى من الفرار إلَى سطوح السراي فعلم العساكر بهم فصعدوا اليهم وطرحوهم إلَى الاسفل عَلَى البلاط فما وصلوا الارض الاَّ وقد قضي عليهم و بعد ان كمل ذبح المختفين عاد الدروز ففتشوا بين النساء الباقيات فعثروا ببعض الرجال فأماتوهم شرّ ميتة واستمرُّوا بعملهم هٰذا كل ذلك اليوم وقد نهبوا جميع ما جاء بهِ النصارى إلَى السراي من متاع ومصاغ ودراهم وشاركهم العسكر بذلك . هنا يقف القلم ونترك الشرح للقارئ

كل هذه الحوادث جرت واعين الحاكم وقائمقام العساكر وضباطهم وجميع العساكر ناظرة ولم يكن من يتأثر او يبدي اقل شفقة وكانت ضجّات اولئك المساكين واستجاراتهم ونحيب نسائهم وعويل اولادهم لاتؤثر شيئاً في اولئك الذين تعهدوا لهم بالحماية ودفع الملمات عنهم بل انهم عوضاً عن اغاثتهم والنظر اليهم كانوا يشددون قلوب مفترسيهم ويحضونهم عَلَى العمل و يبدون المسرة والفرح عند ما يرون بحيرة الدماء اَلَّتِي تكوّنت في ساحة السراي تزداد تدفقاً وارتفاعاً وتلك الذبائح ذبائح الظلم والعداء والخيانة والغدر والجبن تسبح بها شاكية امرها لباريها . وقد كان منظر السراي عند انتهاء الحادثة مخيفاً هائلاً يدل عَلَى توحش الاتراك والدروز وخيانتهم وتبروء الانسانيَّة منهم . و بعد ان أنهى الدروز عملهم داخل السراي او القاعة خرجوا منها تاركينها تغمر جسوم القتلى فودعهم الحاكم والضباط والعسكر باشارات الرضى والشكر وقد خرج من بقي بها من نساء النصارى باكيات نائحات

قائلين تغسل بهِ وتنعم آخر نعيم بدنياك و بعضهم كانوا يصبون عَلَى راس النصراني ماء غاليًا اتوا بهِ من العسكر و يقولون (بل بهِ وها السيف مز ينك بعدهُ) و يقطعون رأسهُ بعد قطع آذانهِ وانفهِ وتشويه خلقتهِ وبعضهم يأتون بالولد و يذبحونهُ بحجر والدتهِ وبعضهم يجرُّون الزوج و يجندلونهُ عَلَى ركبة امرأتهِ وقد جاءوا غير ذلك من الاعمال القاسية البربريَّة مما يضيق لوصفهِ الصدر و يفرغ من تلاوتهِ الصبر . ومن امثلة ذلك ان امرأة فارس الحداد ذبح زوجها على حجرها و بقي طفلها الرضيع على ذراعيها فخافت عليهِ والتمست الاستجارة والعفو عنهُ فما كان جواب نداها الاَّ اخذ طفلها من يدها وذبحهُ امام عينيها . واخرى كانت حاضنة طفلها الرضيع فأخذ منها وصراخهُ يجرح الفؤاد واستجارتهُ بأمهِ تلين الجماد ودُفع في الفضاء واستلقي بالسيف فقدَّ شطرين ثم دفعهُ لوالدتهِ المسكينة وقيل لها ها قد سكتناهُ لكِ فالوالدة تأثرت من روع العمل وقضت نحبها في الحال . واخرى هي زوجة عبد الله ابي نجم ذبح اولاً زوجها عَلَى ركبتها فاستغاثت واستجارت وكان نتيجة عملها ان جرَّ اولادها الثلاثة وذبحوا عَلَى ركبتها واحدًا بعد واحد . واخرى اذ رأت ابنها ذبح امامها فقدت رشدها فأتوا بأخشاب ووضعوها عليها وحرقوها حيَّة وقد قتلوا كثيرات من النساء والاولاد . واستمرَّ الدروز عَلَى عملهم هٰذا حتى لم يبقَ امامهم نصراني ظاهر فأخذوا يفتشون في جهات القلعة حتى لا يبقى من يفلت من ايديهم وكان العسكر يساعدونهم عَلَى ذلك كما انهُ اثناء دخول الدروز وهٰذا عملهم كان اذا رام نصراني الالتجاء إِلَى العسكر والدخول بينهم للاحتماء بهم من وجه مطارديهِ او

اختفاء من اعدائهِ يدفعونهُ بالحراب · وقد اماتوا بعضاً بطعن حرابهم وتمكن اثنان من النصارى من الفرار إلَى سطوح السراي فعلم العساكر بهم فصعدوا اليهم وطرحوهم إلَى الاسفل عَلَى البلاط فما وصلوا الارض الاَّ وقد قضي عليهم و بعد ان كمل ذبح المختبئين عاد الدروز ففتشوا بين النساء الباقيات فعثروا ببعض الرجال فأماتوهم شرّميتة واستمرُّوا بعملهم هٰذا كل ذلك اليوم وقد نهبوا جميع ما جاء بهِ النصارى إلَى السراي من متاع ومصاغ ودراهم وشاركهم العسكر بذلك · هنا يقف القلم ونترك الشرح للقارئ

كل هذه الحوادث جرت واعين الحاكم وقائمقام العساكر وضباطهم وجميع العساكر ناظرة ولم يكن من يتأثر او يبدي اقل شفقة وكانت ضجَّات اولئك المساكين واستجاراتهم ونحيب نسائهم وعويل اولادهم لاتؤثر شيئاً في اولئك الذين تعهدوا لهم بالحماية ودفع الملمات عنهم بل انهم عوضاً عن اغاثتهم والنظر اليهم كانوا يشددون قلوب مفترسيهم ويحضونهم عَلَى العمل و يبدون المسرة والفرح عند ما يرون بحيرة الدماء ألَّتِي تكوَّنت في ساحة السراي تزداد تدفقاً وارتفاعاً وتلك الذبائح ذبائح الظلم والعداء والخيانة والغدر والجبن تسبح بها شاكية امرها لباريها · وقد كان منظر السراي عند انتهاء الحادثة مخيفاً هائلاً يدل عَلَى توحش الاتراك والدروز وخيانتهم وتبروء الانسانيَّة منهم · وبعد ان أنهى الدروز عملهم داخل السراي او القلعة خرجوا منها تاركينها تغمر جسوم القتلى فودعهم الحاكم والضباط والعسكر باشارات الرضى والشكر وقد خرج من بقي بها من نساء النصارى باكيات نائحات

نادبات عرايا حفايا مكشوفات الراس تايهات في الجبال والقفار متأسفات متحسرات عَلَى من فقدنَ متأثرات من روع المناظر ٱلَّتي نظرنها والاهوال ٱلَّتي جرت عليهنَّ · و ياللهِ يا للهِ من هٰذَا الهول وهٰذَا المصاب العظيم

وقد ذهب الدروز من دير القمر بعد ان تركوها خراباً تبكي مجدها وما كانت عليهِ بالامس اذ لم يبقَ بها من معالم عزّها الاَّ بقيَّة قليلة واتوا بيت الدين فدخلوا سراياها و ذبحوا جميع النصارى الذين كانوا قد لجأوا اليها مع مائة وتسعة اشخاص آخرين من قرى بيت الدين والمعاصر بعد ان نهبوا تلك القرى ولم يبقوا عَلَى شيءٍ فيها وحرقوها امام اعين القائمقام والعسكر فكان لهيبها يتأجج ودخانها يتصاعد حتى حجب الشمس وكان منظرها المخيف يصل مسافة بعيدة فيسرُّ الدروز ويكدر النصارى وكل هٰذَا جرى وهيئة الحكومة المحليَّة راضية عنهُ و بعض ايدي عمالها مشتركة بهِ وكل ما أنعم بهِ العسكر من الشفقة عَلَى النصارى في حادثة بيت الدين هو تسليمهم النصراني اللاجيء اليهم لسيف الدرزي · ومن غرائب الخيانات ان احد الضباط كان لهُ خادم نصراني خدمهُ بأمانة مدة طويلة ولكي يجازيهُ بالخير على خدمتهِ النصوحة لهُ سلمهُ بيدهِ للموت فأماتهُ الدروز امام اعين سيدهِ شرَّ ميتة وسيدهُ يقهقه ويضحك · ولم يروَ إِلَى الآن ان احد البهائم او الوحوش اتى مثل هٰذَا الشرّ الهائل

ومن بعد ما أنهى الدروز مذابح بيت الدين وفتكوا ونهبوا وحرقوا القرى المجاورة لها رجعوا ثانيةً إِلَى دير القمر للفتك بدير الرهبان الذي

كان باقياً فيها وللايقاع ببيت خليل الجاويش احد اعيان النصارى وقتل المعتصمين بهِ ونهب اموالهم فهجموا على دير الرهبان وتمكنوا منهُ ودخلوهُ وقتلوا جميع الرهبان الموجودين فيهِ وقطعوهم ارباً ارباً ثم اخذوا بنهبهِ فلم يبقوا بهِ شيئاً وكان فيهِ كثير من اموال الاهالي وامتعتهم الغالية. ثم دخلوا كنيستهُ وخربوا هياكلهُ ومزقوا صورهُ واهانوا اوانيهِ وسحقوا اجراسهُ وعطلوا قبابهُ ثم ألقوا النار فيهِ وفي البلدة · وقد كان عدد من قتل في حوادث دير القمر وبيت الدين والقرى التي حولها إلى ذلك الوقت نيف والف وخمسمائة رجل خلا النساء والاولاد والبنات والاطفال ولم يبقَ للدروز ما يفتكون بهِ الاَّ بيت الجاويش وكان هذا البيت متسع النطاق متين البنيان حصيناً وصاحبهُ من ذوي الوجاهة والاقتدار ولما دخل الدروز المدينة قبل حادثة القلعة كما مرَّ بك لجأ اليهِ نحو من ثلاثمائة وخمسين رجلاً من النصارى بأموالهم واسلحتهم اذ ابوا الدخول إلى السراي لانهم خافوا الغدر من العسكر بداعي ما رأوهُ من اهمالهم وعدم اكتراثهم بحماية المسيحيين بحسب ما تعهد لهم طاهر باشا وتحالف هؤلاء الرجال على الذود عن انفسهم واموالهم وعيالهم إلى آخر نسمة من حياتهم · وقد هابهم الدروز بادئ الامر ولم يهاجموهم خيفة الفشل فاعتمدوا على الفتك اولاً بمن سهل عليهم الفتك بهم نظير الذين في قلعتي دير القمر وبيت الدين والقرى حولها كما تقدم القول ومن ثمَّ بقي ذلك البيت منفرداً فسهل عليهم الغلبة عليهِ لان جميع النصارى خارجهُ صاروا طعاماً لشفار السيوف وقراهم ودورهم باتت مطمعاً للنار وحملوا على البيت المذكور حملات هائلة

قصدوا واستمرّوا ينازلونهُ فلنتركهم هنا الآن ولنذكر للقارىء ما صار في اثناء ذلك

ان دخول الدروز لدير القمر بالحالة الّتي ذكرناها ووقوع المسيحيين في تلك المخاطر المار ذكرها بلغ بيروت فأعرضت عنهُ البطركخانات ووكلاء الدول العظيمة إلَى واليها فالوالي لم يسعهُ الاَّ ان ركب قاصدًا بيت الدين بدعوى انهُ يتلافى الامر ويكف العداء عن النصارى فسافر في ٢١ حزيران « يونيو» من بيروت إلَى محل قصدهِ (وكانت تدبيرات طاهر باشا في ذلك اليوم آخذة مفعولها والمذابح قائمة على قدم وساق في دير القمر وبيت الدين في حمى العساكر وفي القرى المجاورة وفي دير الرهبان) فوصل مساء ذلك اليوم إلَى بيت الدين وكان امرها منتهيًا والدروز في دير القمر ينازلون بيت الجاويش فبات بها تلك الليلة مستريحًا من مشقة السفر واتعابهِ وثاني يوم توجه إلَى دير القمر لينظر في امورها ويصلح احوالها بحسب زعمهِ وكان الدروز ينازلون بيت الجاويش و يشددون عليهِ فلم يتعرض لامرهم

اما الذين كانوا في بيت الجاويش فلما رأَوا ما حاق بهم من الخراب والحريق وكثرة جموع الدروز عليهم وانهُ لا ناصر لهم وعددهم كبير وليس لهم من المؤُونة ما يجعلهم يتابعون الدفاع تشاوروا واقرُّوا عَلَى اتخاذ طرق سلميَّة مع الدروز يكون من ورائها سلامتهم واخراجهم من الخطر الذي صاروا اليهِ فراسلوا بذلك بشير بك ابي نكد احد كبراء الدروز واعيانهم معرضين عليهِ رغبتهم في كفّ القتال وحجب الدماء من الجانبين و يعرضون عليهِ افتداء انفسهم بكل ما يملكونهُ وما

هو موجود في البيت من الاموال وكان شيئاً كثيراً فقبل منهم بذلك ووعدهم باجابة طلبهم الاَّ انهُ ما لبث ذلك الترتيب ان نقض وما وعدوا بهِ استحال إِلَى ضدهِ وتفصيل الامر هو ان الدروز لما رأَوا بأَن ما أُعرض عَلَى بشير بك ابي نكد لا يوافق مقاصدهم وان المال في كل حال لهم واذا جروا عَلَى وعد بشير بك يسلم من النصارى ٢٥٠ رجلاً جنحوا إِلَى نقض الوعد بطريقة تمكنهم من القوم براحة ولا تكلفهم خسارة رجل وذلك ان احد امراء الدروز من آل ارسلان اتى قصد ان ينجي خليل الجاويش وعائلتهُ لما بينهما من الود والحب فأَتى البيت فأَنس بهِ النصارى سيما لما رأَوهُ عاملاً عَلَى خلاص زعيمهم فظنوا بأَن ذلك من مقدمات طلبهم الذي أُجيب الاَّ انهُ ما أُخرج خليل الجاويش وعائلتهُ من البيت الاَّ واغتنم الدروز فرصة اطمئنان النصارى واركانهم حتى هجموا عَلَى البيت هجمة واحدة مخيفة قيل انها كانت باشارة من الارسلاني ودخلوا البيت واعملوا السيوف بمن فيهِ وما طال الوقت حتى قتلوهم ثم انتهبوا تلك الاموال الغزيرة واوقدوا النار بارجاء البيت . ثم أَضحى البيت مأكلاً للنار نظير بقيَّة بيوت البلدة وهكذا انتهى امر دير القمر وصارت رماداً بعد ان كانت بالامس وما قبلهُ جنة لبنان ومركز قواهُ وتجارتهِ وغناهُ

وبعد ان تمت هذه المذبحة الفظيعة الهائلة اطلق الوالي المنادي ينادي بالامان . ولكن لمن ؟؟ وامر الدروز بترك البلدة وقتئذٍ مظهراً التشديدات الكليَّة فأَجابوا النداء حالاً ممتثلين الامر غير مراجعين ولا مخالفين وما ذلك الاَّ لان المدينة امست قاعاً صفصفاً ولم يبقَ من

غرض لهم بها وصار غرضهم سواها فجلوا عنها مظهرين الطاعة لاوامر الوالي وهو مظهر الرضاء من رضوخهم له . وبعد انجلاء الدروز اطلق حضرتهُ مدفعاً تاكيداً لحلول الامان وكف التعديات ظاناً انهُ يطمن سكان تلك الخرابات الذين تلاشوا عن آخرهم واضحوا رمماً مطروحة في الشوارع والازقة والخرب وسراي دير القمر وبيت الدين وهكذا انصرف عن دير القمر مفتخراً بايجادهِ الامن ولكن للاموات

وفي ٢٣ حزيران (يونيو) اضرم الدروز النار في منزل الامير قاسم شهاب الكائن في بيت الدين امام سراي الوالي ولم يمانعهم احد في ذلك

اما رؤساء الدروز الذين حضروا وقائع دير القمر هذه ورتبوا امرها فكانوا سعيد بك جنبلاط والمشايخ العماديين ومشايخ وبكوات عائلة ابي نكد وجميع آل حماده وغيرهم

وبقيت جثث القتلى في محل مذابحها مدة للطيور ووحوش البريَّة اذ لم يكن من يدفنها او يواريها التراب واهتم اهل الدير بجمع عظام موتاهم بعد الحوادث المذكورة ودفنوها في مكان بالدير ويسميها البعض عظام الشهداء

وقد لجأ الهاربون والنساء والاطفال بعد معاينتهم ما جرى إلى الشطوط البحريَّة فنظر اخوانهم وقناصل الدول الاجنبيَّة لحالهم وعاملوهم بالانسانيَّة والحسنى وسداد عوزهم بما تيسر

فصل

في مذابح المتن والساحل

ان واقعة بيت مري الاولى ٱلَّتِي حدثت في ١٥ آب (اغسطس) سنة ١٨٥٩ وتجدد بسببها تنافر قلوب الاهالي ونتج منها حريق ثلاث قرى للنصارى وهي قريتي راس الحرف · ودير الحرف·وقرية اخرى بيد الشيخ يوسف عبد الملك كما تقدم لنا القول كانت سببًا لدخول ارباب المقاصد والغايات من غير الاهالي في ميدان المباراة والمناظرة سعيًا وراء ما يبتغون وسبيلاً لاجراء تدبيرات احمد باشا ومن جاراهُ من الحكام عَلَى تنفيذها كخورشيد باشا وغيرهِ

ولا ريب في ان عدم حزم خورشيد باشا وميلهِ عن جانب العدالة والانصاف باهمالهِ قصاص المعتدين في الشرّ الاول روّج تلك السياسة ٱلَّتِي قصدها احمد باشا منذ فتحت لهُ هذه الثغرة الوطنيّة ورام ان يتخذها موصلاً لمقاصدهِ السيئة · ولسوء الحظ قد جاءت كل الاحوال موصلة لذلك السبيل الرديء وداعيةً لسفك دماء الالوف من رعايا السلطان الامناء ونهب اموالهم وخراب ديارهم

ولقد كان كثيرون من عقلاء اهالي لبنان وغيرهِ من مدن سوريا وارجائها يرون سوء الحالة ويحسبون لعواقبها المشومة حسابًا ويسعون جهدهم في تلافي الامور· الاَّ ان قلتهم حالت دون منع البلاء

ولكنها نفعت في جهات كثيرة وترتب عليها حجب الدماء ومنع الدمار ثم ان عدم قصاص المعتدين في حادثة بيت مري الاولى شجع الدروز وحذر النصارى ولما ذهب فصل الشتاء ووافى الربيع ورأى اولو السكينة آمالهم خائبة من جهة الامن واستقرار الراحة وان مقدمات الشرّ عَلَى اتساع ولهيبهُ عَلَى ازدياد وقد اتصل إلَى جهات كثيرة وان المعتدين يزدادون تمردًا وعتوًّا بما ينالونهُ من المساعدات السريَّة والتنشيطات القويَّة حتى باتت الطرقات مقطوعة عَلَى النصارى وصاروا في خطر وتعطلت اعمالهم وتلفت مزروعاتهم ولم يبقَ لهم للمعاش سبيل وان الحالة صارت اردأ مما كانت عليهِ في الخريف الماضي اعرضوا لخورشيد باشا الامور الحاصلة ونبهوهُ إلَى سوء المصير فأظهر الاهتمام وابطن السرور وصرف القوم عَلَى نيَّة التبصر بالامر وما ابدى بالفعل الاَّ الاغضاء وما كان الشرّ الاَّ برضاهُ وتدبيرهِ

ولما رأى النصارى حالتهم التعيسة وان شكواهم ذهبت سدًى وكلما يجري حولهم وما يرونهُ بأعينهم يدلُّ على احداق الخطر بهم اندفعوا بسنة حفظ البقاء والحرص على الحياة والمقتني إلَى الاعتناء بشؤُونهم لدفع البلاء عنهم فرأَوا ان قوَّتهم لا تعادل قوة الدروز الساكنين بينهم والمحيطين بهم وان يوم البلاء قريب فاستنجدوا باخوانهم من سكان كسروان فاهتمَّ الكساروة في الاستعداد لنجدتهم ولما علم خورشيد باشا بذلك ورأى الحاح وكلاء الدول الاجنبيَّة عليهِ في بيروت بتلافي الامور وايجاد الامن ذهب إلَى الحازميَّة بجانب من عسكرهِ المنظم وجانب آخر من عسكر الباشبزوق مؤَلف من شراذم

من البشناق وخلافهم ومن بكاوات بلاد عكار ورجالهم وعسكر هناك وتظاهر بأن قصده رفع العداء عن النصارى وحسم الشرّ وايجاد الامن في الطرقات وما شاكل ذلك. الاّ انهُ لم يطل الحال الاّ وجاءت الامور على عكس ما اعلن واظهر وكانت نتيجتها الايقاع بالمسيحيين ايقاعاً شنيعاً

واول شيء عملهُ عند احتلالهِ الحازميَّة هو اظهارهُ الرغبة بتقريب قلوب النصارى والدروز بعضها إلى بعض فاستدعى وجهاء الملتين وابان لهم رغبتهُ في السلم وصالحهم وصرفهم من حضرتهِ الاّ ان صلحهُ لم يكن على اساس متين لاقتصارهِ على الظاهر واضرابهِ عن تسوية الامور المهمة والحزم اللازم في مثل هذه الامور. وقد اكتفى بهِ على وهنهِ واعلنهُ لوكلاء الدول الاجنبيَّة في بيروت مبيناً لهم انصراف المشكل وايجاد الامن. فالنصارى سرُّوا من ذلك واطمأنت خواطرهم اليهِ وظنوهُ مبدأ زمن راحتهم الجديد الذي كانوا يسعون اليهِ بعد ان فقدوا الامن مدة طويلة ولكن خابت آمالهم اذ لم يطل الحال الاَّ وانتقض هٰذا الصلح الفاسد بيد الدروز ولم يكن من يسألهم عما فعلوهُ فانهم (اي الدروز) لم يخرجوا من حضرة الباشا بعد عقد الصلح بوقت قصير الاَّ واستأنفوا ما نهاهم الصلح عنهُ وازدادوا عداء واعتداء للنصارى وشددوا الضغط عليهم وزادوا حالتهم ضغطاً وشدةً فذهب عن النصارى ما نالوهُ من الطمأنينة والارتياح إلى السكينة باحتلال الباشا وعساكرهِ الحازميَّة والصلح الذي عقب ذلك فأعرضوا الامر للباشا وذكروهُ بوعدهِ آن الصلح من موآخذة الظالم وانصاف المظلوم فوعدهم

بالاقتصاص من المعتدين على عجل وطمن خواطرهم وصرفهم فوثقوا بقوله وما وصلوا ديارهم ومضى الوقت القصير الاَّ وازدادت حالتهم تعاسة وشناعة واصبح امنهم مفقودًا وجموع الدروز المدججة بالاسلحة الكاملة تحيط بهم من كل ناحية متوقعة دنوَّ الساعة للفتك بهم

وحدثت في يوم ٢٦ ايار (مايو) غربي سنة ١٨٦٠ مظاهرات عدائيَّة كثيرة من الدروز واناشيد حربيَّة متواترة على مسمع ومرأى من المعسكر والعسكر لم يبدِ اقل ممانعة فوقع النصارى بخوف ويأس واخذ كثيرون منهم يرحلون بحريمهم واولادهم إِلَى بيروت مصادفين في طريقهم انواع التعدي والخسف من عساكر السلطان والذين بقوا منهم في اماكنهم وطدوا النفس واقروها على حفظ ديارهم واموالهم ودمائهم بقوتهم وبالعونة الكسروانيَّة اَلَّتِي اتصل بهم خبر قدومها تحت قيادة شبعان آغا العضيبي الصرباوي وآخر من الرجال المشهورين بالشجاعة والاقدام

وفي ٢٧ ايار (مايو) غربي سنة ١٨٦٠ · تزايدت مظاهرات الدروز العدائيَّة واخذوا يقطعون الطرق على الفارين إِلَى بيروت ويقتلون كل من ظفروا بهِ منهم ولو كان عاجزًا وممن قتلوا في ذلك اليوم من الاعيان الامير بشير قاسم شهاب المعروف بأبي طحين «وهو الذي كان حاكمًا على لبنان بعد الامير بشير عمر الشهابي المعروف بالمالطي» ظفروا بهِ وهو خارجٌ من سرايهِ وفارٌّ إِلَى بيروت وقتلوهُ على الطريق بين جنائن قرية الحدث وكان وقتئذٍ كفيف البصر وبالغًا من العمر ثمانين سنة · وقتلوا ايضًا في جوار وادي شحرور الامير

عباس سلمان الشهابي وهو فارٌّ إِلَى بيروت وكان اعرج يبلغ الستين من العمر وقتلوا بعضاً من حاشية المذكور وفقد الامن من البلاد

وفي ضحى هٰذَا اليوم بنفسهِ وصلت النجدة الكسروانيَّة مؤَلفة من نحو اربعمائة مقاتل تحت قيادة من ذكرنا فاطمأَنت بها انفس النصارى وتشددت وحلت مهابتها في قلوب الدروز الَّا انهُ لم يطل بها المقام ولم تسترح من تعب السفر (وكانت قد عسكرت في جهة بعبدا) حتى علم بامرها خورشيد باشا فأَرسل حالاً واستدعى وجوه النصارى اليهِ في الحازميَّة وطلب منهم صرف قواتهم والقاء اسلحتهم اتقاء تفاقم الخطب واتساع نطاق الفتنة فشرحوا لهُ عن الاخطار المحدقة بهم وما يأْتيهِ الدروز كل يومٍ من التعديات غير مراعين جانب الصلح ولا جانحين إِلَى السكينة وان عدم امتثال الدروز لاوامرهِ يبعد الطأْنينة عن النصارى ويجعلهم مضطرين للذود عن انفسهم فأَجابهم بأَن يمتثلوا لامرهِ وهو يكف ايدي المعتدين عنهم وينيلهم راحتهم ويقتص لهم من اعدائهم وانهُ خيرٌ لهم ان يسلموا مقاليد امورهم إِلَى الحكومة ويلقوا اتكالهم عليها وهي تحافظ عليهم كاولادها الطائعين فامتثلوا امرهُ ووثقوا بقولهِ وخرجوا من لدنهُ واملوا ان بواسطتهِ يزول كربهم ويرتفع الشرّ عنهم وتنصرف جموع الدروز المحيطة بقراهم

وبعد هذه المواجهة والمواعيد الَّتِي اطمأَنت لها خواطر النصارى رأَت النجدة بانهُ لا لزوم لها لان الامن صار يحسب موجوداً بناء عَلَى مواعيد الباشا وتعهداتهِ . فقفلت من ساعتها راجعة عن طريق بيت مري تاركة الاهتمام بشأْن القتال والكفاح . ولم تسر قليلاً وتتوسط

الطريق ما بين بيت مري والعبيدية حتى انقضَّ عليها جماهير الدروز تحت قيادة رجال من بيت عبد الملك وغيرهم فانتشب القتال وقتاً قصيراً خسر به كلٌّ من الجانبين نحواً من عشرين قتيل وجريح . ولما رأى الباشا النصارى يتأهبون لنجدة فرقتهم ٱلَّتي انقضَّ عليها الدروز غيلة ويستعدون للايقاع بالدروز تقدم بعسكره الباشبزق مصحوباً ببعض المدافع وطمن خواطر النصارى واظهر لهم كدرهُ من الدروز وانهُ تقدم للانتقام لهم منهم فارتاحوا لقولهِ لانهم رأوا منهُ دلائل الاهتمام بالعمل . وهكذا سارت النجدة في سبيلها معتقدة ان خورشيد باشا سيقتص من الغادرين ويرجع الامن . وقد اصدر الباشا اوامرهُ للدروز بالكف عن التعدي والرجوع عن اعمالهم المغايرة فكانت نتائج هذه الاوامر رجوع الدروز إلى مراكزهم الاولى ٱلَّتي غادروها عند تأثرهم النجدة واحتياطهم بقرى النصارى ثانيةً متهددينها بالويل والثبور . ولا ريب ان حالة كهذه جعلت النصارى عَلَى غير رضى وشك عظيم بمواعيد الباشا ٱلَّتي كثر تكرارها عليهم فلذلك رأوا الاهتمام بحفظ حياتهم وديارهم من اعدائهم ضربة لازب فأخذوا يتظاهرون بالقوة والاستعداد للدفاع وعمل ما يحسب دليلاً على القدرة والشجاعة بحسب عرف اهالي الجبال وعوائدهم المألوفة كل ذلك لكي يلقوا الرعب في انفس اعدائهم

ولم يطل الامر على الحوادث ٱلَّتي ذكرناها قليلاً الاَّ واطلق خورشيد باشا مدفعاً من معسكرهِ تبعهُ تقدم عسكرهِ الباشبزق إلى الامام فظن النصارى بأن الطلق ارهاباً للدروز وتقدم العساكر لتفريق جموعهم بالقوة فاندفع عنهم بذلك ما خامرهم من الريب بمواعيد الباشا

وتعهداته وعللوا انفسهم بقرب انفراج كربتهم ولكنها كانت اشارة اتفق عليها مع الدروز لاشهار الحرب ولم يمضِ على هذه المظاهرات نحو نصف ساعة الَّا وتحوَّل اطمئنانهم إلَى خوف وهلع لان جموع الباشبزق انضمت إلَى الدروز وهجموا جميعًا على قرى النصارى ومزارعهم منشدين اناشيد الحرب والظفر مشهرين السيوف ومجردين الاسلحة آخذين بالقتل والنهب والحرق فدافع النصارى مدةً الَّا انهُ بالنظر لهذه المباغتة لم يكن بوسعهم الثبات فوقع الخلل فيهم واستولى الخوف على قلوبهم وكان كلٌّ يهتم في الفوز بنفسهِ او الاعتناء بنجاة امرأتهِ وصغارهِ وقد كان اعداؤهم كثيرين لا قبل لهم بمقاتلتهم لاسيما بعد ان انضمَّ إلَى الدروز عساكر الباشبزق . فلذلك لم يطل الوقت حتى اضحت تلك القرى مرسحًا للتعديات والاعمال الوحشيَّة على انواعها واتون نار ملتهبة لا تسمع منهُ الَّا صراخ النساء وبكاء الاولاد وانين القتلى وترنمات المعتدين ولا يمثل ضمنهُ الَّا كل عمل شنيع وفعل فظيع وقد جاء الباشبزق في ذلك اليوم من الاعمال البربريَّة والافعال الوحشيَّة ما تشيب لهولهِ نواصي الرضع فانهم كانوا اذا ظفروا بشيخ اقعدتهُ الايام واحناهُ الهرم اخذوا بفصل اعضاء جسدهِ واحدًا فواحدًا بسيوفهم ومَديهم وتركوهُ يموت في اشد العذاب وان صدفوا شابًا تسابقوا اليهِ بسلاحهم فلا يتركون جثتهُ الَّا وفيها مئات من الجراح وان وجدوا طفلاً شطروهُ بسيوفهم شطرين . وان كان على يد والدتهِ رفعوهُ الى الفضاء واستلقوهُ على رؤوس الحراب ومن ثمَّ يسلمونهُ لوالدتهِ وهي تبكي وتتوسل اليهم ان يكفوا عنهُ قائلين خذي ابنكِ

اننا سكتناهُ لكِ وكفيناكِ شرّ تعبكِ بذلك فادفعي اجرتنا ويقبلون عليها فاذا كان باذنها قرط اختطفوهُ شارمين الاذن او بيدها سوار اخذوهُ وان تعذر اخراجهُ سريعًا قطعوا اليد واخذوهُ وان كان معها شيء من النقود اخفتهُ للاستعانة بهِ ابتزوهُ منها واكرهوها على تسليمهِ وان تمنعت طعنوها وهكذا اتوا كل امرٍ قاسٍ بربري والدروز نظيرهم لا يبقون عَلَى شيء فلم يطل الحال حتى صارت تلك القرى ميدان خراب ودمار وبقعة جهنميَّة تجري في وسطها انواع الفظائع والاهوال مما ذكر ومما لم يذكر ولهيب النار صادر من جميع ارجائها والنهبة السالبون حولها آخذين اسلاب اولئك المنكودين وما كان لهم من المقتنيات والاثاث والمؤونة والدينار وكل لوازم الحياة ولم يبقَ من دير او صومعة او بيت او دكان او زريبة الاَّ والنار تلعب بها والريح يموج اللهيب والدخان عاقد سرادقهُ في الفضاء يحجب نور الغزالة ويعلن البعيد والقريب بما حلّ بتلك البقعة من الويل والثبور ومن جهة ثانية كنت ترى من اسعدهُ الحظ من تلك القرى وفاز بالنجاة بحالة من اشد الحالات يهيم قاصدًا ملجأً امينًا والخوف ملء قلبهِ وغبرات الموت عَلَى وجههِ . وكم من امرأةٍ كانت تنعي زوجها وتقود ولدها وتندب اخاها وتبكي طفلها والحيرة تلازمها لا تعلم أين تسير وإِلَى اين تلتجي ان التفتت إِلَى الوراء ازدادت نحيبًا اذ ترى ما صارت اليهِ من الشقاء وما يقطع آمالها من الاجتماع بمن لها من الاعزاء وبالاجمال كان كل خائف لا يعي الاَّ عَلَى ما بهِ من الخوف والحذر من السقوط بيد الاعداء . وكانت مدينة بيروت قريبة فلجأ اليها معظم

الفارين ولقوا من مسيحييها ووكلاء الدول والجمعيات الخيريَّة والاديرة فيها اشفاقًا وقبولاً اذ أوى المذكورون اولئك المنهزمين الحزانى العراة الجياع واهتموا بشؤونهم واجروا لهم الرزق اليومي اعالةلهم وتخفيفًا لمصابهم

وقدكان بدء الهجوم عَلَى قرية بعبدا واتصل منها لغيرها في وقت قصير وكان الهاجمون عند ما يدخلون القرية يجتهدون في القتل اولاً وارتكاب الشنائع حتى اذا لم يبقَ امامهم احد يأخذون بالنهب ثم بالحرق ثم بتتبع الفارين من وجوههم والايقاع بمن يظفرون بهِ منهم. وقد حرق في ذلك اليوم من قرى الساحل الجنوبي وادي شحرور العليا والسفلى وبعبدا والحدث ومزرعة اللويزة. ومن المتن الاعلى بيت مري وبرمانا ومزارعهما مع بعض قرى صغيرة مجاورة لها . وكل ذلك جرى واعين خورشيد باشا تنظر اليهِ وقد بذل جهدهُ بزيادة الحراب والشرّ بواسطة عسكرهِ الباشبزق

ومما يحسن بالمؤرخ في هذا المقام ذكرهُ ما جاء بهِ المرحوم الامير محمد ارسلان حاكم الشوف في ذلك الوقت فان هذا الامير الخطير والعالم الشهير لم يشأْ ان يجاري ابناء طائفتهِ الدروز ويشترك معهم بما اتوهُ من المنكرات بل كان مضادًا لما جاءوا بهِ ومجتهدًا بكف اسباب العداء والخصام وكان من شأنهِ حمل قومهِ عَلَى السكينة والسير بحسب مطالب الانسانيَّة والسلام ولما اعيتهُ الحيل ولم يجد لارشاداتهِ مصغيًا ولنصائحهِ مجيبًا اتخذ على نفسهِ صيانة بلادهِ وسلامتها من كل شرّ وعمل عَلَى ايجاد الامن في انحائها ففاز بمقاصدهِ ولم يحدث في بلادهِ اقل ضرر لاحد الناس. وقد قال البعض بان ذلك كان سياسة منهُ

غايتهُ بها نفع قومهِ لانهُ بواسطتها منع النصارى الكثيري العدد في مقاطعتهِ عن انجاد اخوانهم والحال ان هٰذا القول بعيد عن الواقع بمراحل فان تصرُّف الامير المذكور لم يكن الاَّ عن حكمةٍ وسريرة جيدة ورغبة اكيدة في السلام

ولما ضاقت صدور القناصل في بيروت من فعال خورشيد باشا ورأوا ان ذهابهُ إِلَى الحازميَّة لم يكن الاَّ بقصد منع الفارين من النصارى من الالتجاء إِلَى بيروت وان عساكرهُ قتلت من ابرياء النصارى اكثر مما قتل الدروز ذهبوا اليهِ كلهم وتهددوهُ بالاساطيل والجيوش الاوربيَّة اذا هو لم يرجع عن فعالهِ الرديئة فتظاهر بالطيبة والاسف على ما جرى للنصارى وقال انهُ خلص كثيرين منهم واتى ما في قدرتهِ لمنع الاعتداء عنهم ولكنهم هم الذين كانوا يثيرون الحرب على الدروز فاذا امتنعوا عن العدوان بطل الاعتداء عليهم وهو يضمن ان الدروز لا يحركون ساكناً الاَّ في الدفاع عن انفسهم فقال القناصل ونحن نضمن ان النصارى لا يعتدون ولا يحاربون فاتفق معهم على ان يرسلوا إِلَى النصارى بالعدول عن الاستعداد للحرب وهو يأمر الدروز بالهدو والسكينة واكد لهم انهم اذا قاموا بوعدهم وسمع النصارى قولهم لم يبقَ موجب للقلق فصدقوهُ ورجعوا من عندهِ فارسل قنصل فرنسا وانكلترا الرسل إِلَى النصارى بالسكون وعدم حمل السلاح واما خورشيد باشا فلم ينهَ الدروز عن شرهم وهكذا لعبت الخيانة دورها مرة أُخرى اذ اخذ النصارى على غرةٍ ومنعوا من الاستعداد لوقاية انفسهم في حين ان الاتراك والدروز كانوا يعملون في كل يوم على الفتك بهم

فصل

في ما اصاب صيدا ونواحيها

ان حوادث بيت مري وغيرها وتصرف الحكام زاد جراءة كل من يروم عداء وانتقاماً واوجب على النصارى ان يوجهوا اهتمامهم إلَى حالتهم الخطرة . ولذلك لما سمع نصارى اقليم التفاح الكائن على مقربةٍ من صيدا بحوادث بيت مري ألّتي تقدم ذكرها ورأوا الشرّ متقدماً نحوهم اهتموا لملافاة الخطوب ورفعها عنهم فانضموا بعضهم إلَى بعض تحت قيادة رجل منهم مشهور بالبأس والاقدام بينهم يسمى يوسف المبيّض من قرية درب السين وهي على مسيرة ساعة عن مدينة صيدا لجهة الشرق الجنوبي كما انهُ في الوقت نفسهِ اخذ دروز تلك الجهات والمسلمون في اقليم الخروب المجاور يسعون بالايقاع في جيرانهم النصارى وينضمون تحت قيادة رجل درزي مشهور في تلك النواحي اسمهُ قاسم يوسف

وفي يوم الجمعة سنة ١٨٦٠ (كان عيد العنصرة عند جميع النصارى في يوم واحد لانها كانت سنة كبيس) هجم قاسم يوسف برجالهِ على اربع قرى للنصارى في وقت واحد فقام يوسف المبيض برجالهِ لصدهِ فالتقى الجيشان فوق بساتين صيدا في سهل واقع بين الهلاليّة والبراميّة ودارت بينهما رحى القتال وكاد جيش يوسف المبيض

يفوز بالغلبة الاَّ انهُ عند ذلك جاءت نجدة عظيمة لجيش قاسم يوسف من الدروز ومسلمي صيدا ولكثرتها تمكنت من الاحاطة بجيش يوسف المبيض احاطة السوار بالمعصم · ولما رأى يوسف المبيض انهُ صار في حالة لا تمكنهُ من الفوز اشار عَلَى رجالهِ بالانهزام ولكن اذ كانت الاعداء محيطة بهم من كل صوب لم يقدروا ان ينهزموا منضمين فوقع الخلل في ترتيبهم وتفرَّقوا ايدي سبا فبعضهم أمَّ ابواب صيدا لاجئًا اليها وبعضهم قصد طريق لبنان وبعضهم غيرها وكان اعداؤهم يطاردونهم ويقتلون كل من يظفرون بهِ منهم

وقد بلغت اخبار انكسار يوسف المبيض مدينة صيدا والمسلمون في الجوامع للصلاة فاخذ مفتي صيدا يخطب في الناس محرضاً اياهم عَلَى قتال النصارى والجهاد والايقاع بهم فخرج القوم من الجوامع متهيجين وممتلئين حنقاً سادين آذانهم عن سماع نصائح اولي العلم والتعقل الذين لم يروا في ما قالهُ المفتي اصابةً بل خطأً وتمادياً في التهور · وكان هٰذا يذهب لسلاحهِ وذاك لعصاهُ خارجاً لمشاركة المعتدين بشرورهم موقعاً بمن صادفهُ من النصارى ضرباً وشتماً وقتلاً وتجديفاً فاستولى الرعب على انحاء المدينة وكثر فيها الهياج والخوف فأُقفلت الدكاكين والمخازن وتوارى النصارى واستولى عليهم الهلع الشديد وباتوا ينتظرون الهلاك دقيقة فدقيقة لعلمهم بانهُ ما من حكومة تدافع عنهم لان رجالها مع الثائرين وليس لهم اسباب للدفاع عن انفسهم · وزد عَلَى ذلك قلة عددهم بالنسبة لجيرانهم فلم يمضِ القليل حتى خلت شوارع المدينة من النصارى حيث صار بعضهم ضمن جدران بيوتهم وعدد

كبير منهم في خان الافرنج حيث كان مسكن الموسيو دريكلو قنصل فرنسا ومسكن راهبات القديس يوسف للافرنج وقد فضل الاغلبون الالتجاء إِلَى هٰذَا الخان لاعتقادهم بان الثوار لايدخلونهُ اولاً للعادة القديمة المتوارثة وهي احترام الخانات اثناء الثورات وثانياً لحرمة قنصلاتو فرنسا الموجودة فيهِ. ولجأَ لهذا الخان عدد ليس بقليل من اهالي الجبل الذين امكنهم النجاة من الذبح امام صيدا ومن كانوا في المدينة قبل حدوث واقعة ذلك الصباح

ولما رأَى اولئك الثوَّار ان النصارى تواروا من امامهم وعلموا بان الفارين من الجبل كثيرو العدد وانهم اخذوا بالالتجاء لصيدا تركوا امر نصارى مدينتهم لحسبانهم انهم في قبضة يدهم ينالون منهم مآربهم متى شاؤُوا وتوجهوا إِلَى باب المدينة وبساتينها ليترصدوا الوافدين اليها من الهاربين من الاعداء ويوقعوا بهم وقد نفذوا ما نووهُ تنفيذاً تاماً كما سيجيء بك

وكان الذين هربوا الى جهة الجبل بعد انكسار يوسف المبيض عدداً غفيراً والاعداء في أَثرهم ولكي يتخلصوا من حالتهم الخطرة ويفوزوا بانفسهم ارتأَى بعضهم الاجتماع في جزين والانضمام إِلَى اهلها النصارى اذ بذلك تكثر قوتهم ويكون لهم اقتدار عَلَى دفع الاعداء عنهم فيصيرون عَلَى نوعٍ ما بأَمن على حياتهم ولكن خاب فالهم فان جزين في ذلك اليوم كانت في اشد الضيق والوبال لمهاجمة الدروز لها مهاجمة عنيفة واليك البيان

جزين بلدة كثيرة عدد السكان وحولها قرى عامرة من النصارى

تجمع عدداً كبيراً من الرجال الاشداء وكان الدروز يحسبون انهُ اذا انضمَّ اهالي جزين إلَى اقليم التفاح تعسر عَلَى الدروز الايقاع بهم وربما دارت الدائرة عليهم (اي عَلَى الدروز) اذا نازلوهم فلاجل التخلص من هذه الصعوبة الخطرة رأى عظماء الدروز ان الحكمة تقضي عليهم ان يسعوا بعدم انضمام اقليم جزين إلَى اقليم التفاح لكي يتسهل لهم بذلك الفوز والغلبة عَلَى الاقليمين وسعوا بانفاذ ما رتبوهُ . فان سعيد بك جنبلاط اكبر حكام الدروز في ذلك الوقت واعظمهم نفوذاً واقتداراً وغنى حرَّر إلَى اهالي جزين امراً مضمونهُ ان لا خوف عليهم من شيء من الحركات الجارية وانهم في مأمن من كل طارىء بشرط ان لا يبرحوا بلدتهم ولا يتداخلوا مع سواهم في مسائل الحرب الجارية فصدقوهُ وصدعوا بامرهِ واتبعوا تلك المشورة اذ حسبوا ان تداخلهم في الحوادث الجارية كان للذود عنهم ودفع العداء عن ديارهم فلما نالوا هذه الغاية عَلَى اهون سبب بما كتبهُ لهم سعيد بك المذكور امتنعوا عن كل تداخل وزال عنهم الاضطراب وباتوا لا يحسبون حساباً لما هو جارٍ حولهم . وذهبوا إلَى حقولهم ومصالحهم بحسب عوائدهم تاركين اسلحتهم في بيوتهم ولم يفطن اولئك المساكين إلَى ان ما كتب لهم دسيسة يقصد منها اخذهم غنيمة باردة عَلَى اهون سبب واقرب طريق . وفي يوم الجمعة المذكور بينما كان القوم في مأمن يعملون في حقولهم دهمهم الدروز وشددوا في قتالهم واخذوا في نهب بلدتهم وما حولها من القرى واعملوا فيها النار والسيوف وقتلوا كل من وقع في ايديهم من رجالها . ولما رأى اولئك المساكين ما حلَّ بهم من الويل والثبور وعدم اقتدارهم

على الوقوف امام اعدائهم لجأوا إِلَى الفرار مشتتي الشمل والسيف وراءهم لا يعلم احد منهم عن سواه شيئاً وكانت حالتهم تفتت الاكباد وتذيب الجماد وكلٌّ منهم يطلب النجاة وهو مضطرب البال لا يعلم بما اصاب ذويهِ واقاربهِ واما النساء فحدّث عن حالتهنَّ ولا حرج كانت الواحدة منهنَّ لا تعلم بما اصاب زوجها او ابنتها لان البليَّة حلت بهم على حين غفلة وهم متفرقون في الحقول والمزارع وقد لجأ نحو الف نفس من جزين وقراها إِلَى غاب قريب منهم وتواروا بهِ من اوجه اعدائهم ظانين ان بهِ النجاة لهم ولكن لسوء بختهم علم الدروز بمجاهم فأَتوا واحاطوا بهِ واوقدوا النار في جميع اطرافهِ وما مضى القليل حتى اضحى ذلك الغاب شعلة نار نظير القرى الَّتي كان يعمل بها لسان اللهيب فمات اولئك المساكين ضمن ذلك الاتون الجهنمي ولم يفلت منهم الاَّ القليل · ومعظم الفارين من هذه النوائب قصدوا صيدا لظنهم بأَنها دار أمان لهم · فكانوا يصادفون في اثناء هربهم الموت الاحمر فان شراذم الدروز ومن معهم كانت لهم بالمرصاد تقتل كل رجل تظفر بهِ بغير اشفاق ولكن لاتساع فسحة البر تمكن كثيرون من السلامة ووصلوا إِلَى بساتين صيدا وابوابها وهناك لقوا من ثوّار صيدا شرًّا ما لقوهُ في اثناء هربهم فان اولئك الثوّار كانوا يظفرون بغنيمتهم في بقعةٍ ضيقة من الارض فيذيقونها الموت الاحمر على ما يحلو لهم من طرق العذاب الوحشيَّة وكانت تلك الغنائم ترد عليهم فرقاً فرقاً فيتمكنون منها ويعملون اسلحتهم فيها بحسب ما يشتهون ويرغبون ولم يكد يفلت واحدٌ من يد اولئك الجلادين القساة · ولم يقتصر الحال في التعدي

امام ابواب صيدا وفي بساتينها عَلَى الفتك بالرجال والفتيان بل تناول الاطفال والاعراض ايضاً وكل نوع من انواع المحارم والعياذ بالله وكانت تلك الجثث بعد ان تنال حظها من العذاب والهوان تبقى في محلات جزرها مأكلاً للطيور ووحوش البر

اما فرق الدروز الَّتي قامت بتلك الاعمال المنكرة في ذلك اليوم الهائل فكانت كلٌّ منها مرؤوسة باحد مشايخهم او احد كبار طائفتهم. وكانوا لايدخلون قرية من قرى النصارى الَّا وسلبوا جميع اموالها ومقتنيات اهلها واضرموا النار في ارجائها ونهبوا كنائسها واحرقوها واستاقوا ماشيتها وقطعوا اشجارها حتى لايبقى لاهلها شيءٌ من اسباب الحياة ووسائل المعاش

ولم تكن هذه التعديات في ذلك اليوم قاصرة على ما ذكر بل تناولت اديرة الرهبان والراهبات ايضاً فان دير المخلص وما جاورهُ من اديرة الروم الكاثوليك ودير مشموشة وما جاورهُ ايضاً في جزين وغيرها من اديرة الموارنة ان كانت للرهبان او للراهبات جميعها سلبت ونهبت وحرقت عن آخرها ولم يسلم من اهلها الَّا من لم يكن موجوداً بها وكثيرون من رهبانها قضوا على ابواب صيدا مثل غيرهم

وكان منظر الجبل من صيدا في مساء ذلك اليوم الهائل مكرباً محزناً فان نيران القرى الملتهبة كانت تضيءُ كل تلك الجهات وما حولها إلَى مسافة بعيدة والدخان المتصاعد منها يعقد سرادقهُ المظلمة في الفضاء فيحجب منظر القمر والنجوم البهيَّة عما تحتهُ من البقاع. وكانت مياه نهر الاولي تأتي مصبوغة بالدماء حاملة جثث الضحايا الَّتي القيت

فيهِ وتأثير هذه المناظر في الناس عَلَى نوعين متباينين فالنصارى وعقلاء الاسلام كانوا ينظرون اليها بأسفٍ وغمٍ والدروز وجهلاء الاسلام من سنيَّة وشيعيَّة ينظرون بفرح وابتسام يحسبونها من ادلة انتصارهم وفوزهم · هؤلاء هم الذين يريدون الاستقلال من سيطرة الاوربيين

اما الذي دمر في ذلك اليوم فلا يقل عن خمسين قرية خلا الاديرة وعدد الضحايا البشريَّة حوالي الف وخمسمائة قتيل منهم ٢٥ راهبًا مارونيًا و ١٥ راهبًا وقسيسًا كاثوليكيًا وعدد قليل من قسوس الروم الارثوذكس

وفي مساء ذلك اليوم سكن حال اولئك الثوار نوعًا في صيدا واظهرت الحكومة شيئًا من الاهتمام فصادف النصارى بعض الطمأنينة الَّا ان الخوف لم يفارقهم وكانوا دائمًا ينتظرون الفتك بهم وقد استمرَّ الحال عَلَى ذلك بضعة ايام وشراذم الفارين من المذابح تفد عَلَى صيدا وتدخلها بما يتسهل من الوسائط وتلتجئ إِلَى خان الافرنج المار ذكرهُ حتى تجمع فيهِ اكثر من اربعة آلاف نفس من اولئك المصابين جلهم من النساء الثكالى والارامل والاطفال الايتام الذين نكبوا في تلك المذابح الهائلة · وكان بينهم كثيرون من الرجال الجرحي وقد ضاق بهم ذلك الخان عَلَى سعتهِ ولم يمكن تفريق هٰذَا الجمع إِلَى محلات اخرى لان الخوف فيما سواهُ على النصارى كان كثيرًا وكان التهديد مستمرًّا والعداء شيئًا مرًّا

اما الموسيو دريكلو قنصل فرنسا في صيدا والراهبات اللواتي كنَّ

معهُ في ذلك المكان فقد اهتمّوا باولئك المساكين غاية الاهتمام وجعلوا يفرقون عليهم من الملابس ما يقدرون عليهِ حتى لم يبقَ للقنصل والراهبات من الملابس الاّ الاثواب ألّتي عليهم . وكان اولئك الراهبات يشتغلنَ ليلاً ونهاراً في تمريض الجرحي والاعتناء بالمرضى ومواساة الحزانى من اولئك الضيوف التعساء . وقد كان القنصل يصرف على اطعام الجمع الذين عندهُ كل يوم خمسة آلاف رغيف وغير ذلك من الاطعمة وساعد اهالي صيدا ومن بها من الاجانب في اعالة اولئك المساكين ولكن العدو كان عظيماً والضيق الخارجي شديداً فلذلك لم تكن عناية القنصل من هذا القبيل مع مساعدات الآخرين كافية لاعالة اولئك المساكين المصابين مع شدة الحالة وضنكها من الخارج فمات بعضهم جوعاً واعين المعتنين تنظر وقلوبهم تتمزق اشفاقاً وحزناً وليس بالامكان رفع كل تلك الاثقال عن عاتق الذين خانهم الدهر . وكان اولئك التعساء في حالة تنفطر لها الاكباد لا درهم لهم ولا متاع ينظرون إلَى حالتهم التعيسة بأعين دامعة وقلوب منفطرة من الاحزان ومملوءة من الشكر والامتنان لمن اووهم واعتنوا بهم وكان كل حديث هؤلاء الجماعة في من فقدوهُ وما خسروهُ فكنت لا ترى الاّ امهات نائحات وزوجات نادبات واولاداً باكين واباء متحسرين آسفين وجرحى متوجعين ومرضى واطفال صارخين . حالة تفتت الاكباد ويتمزّق لهولها كل فؤاد . وكل ذلك لم يؤثر في ثوّار صيدا شيئاً وزادهم رغبةً في سفك دم جيرانهم واللاجئين اليهم فكان المصابون يسمعون ذلك فتزداد بلواهم ويتعاظم حالهم

وقد كان اهالي صيدا النصارى في خوف مستمر لان الهياج كان كل يوم بازدياد والحالة باشتداد والايقاع بهم كل يوم باقتراب فباتوا لاينتظرون الاَّ دنوّ ساعتهم غير موَّمنين بشيء من السلامة والنجاة الاَّ باعجوبة خارقة العادة فان عقلاء الاهالي من المسلمين باتوا عاجزين عن كبح جماح الثائرين ومتسلم البلد مال إلَى الثوّار والمفتي وبعض الاعيان اتخذوا مبدأً التهييج وحض الناس عَلَى الشر والعداء فلذلك كان دأب نصارى صيدا والمصابين الذين بها التوسل لله والطلب منهُ اناء الليل واطراف النهار ان يدبر لهم مخرجاً من الاخطار اَلَّتِي صاروا اليها . وبينما مفتي صيدا ومتسلمها عَلَى وشك اعطاء الاذن للثوّار بالهجوم عَلَى خان الافرنج وذبح من بهِ من الغرباء واهل المدينة اللاجئين اليهِ والايقاع بمسيحييها الذين خارجهُ ونهب بيوتهم وحرقها حدث بغتةً ما عرقل تلك المساعي وخلص مدينة صيدا من المذبحة المعدة لها واليك تحرير الخبر :

في آخر مدة اشتداد الخطر عَلَى صيدا وفدت عَلَى بيروت اساطيل اجنبيَّة لتسكن الحالة المضطربة في سوريَّة وكان من ذلك اسطول فرنساوي كبير فبوصول الاسطول إلَى بيروت بلغ اميرالهُ ما صارت اليهِ صيدا من الضنك الشديد والخطر العظيم فحالاً بعث بارجة من بوارجهِ إلَى صيدا ليستكشف حالها ويسعى في خلاصها فذهبت تلك البارجة عَلَى جناح السرعة فبلغت صيدا والخطر محدق بمسيحييها والثوّار عَلَى وشك الهجوم عليهم دفعة واحدة لاعدامهم ونهب اموالهم واحراق ديارهم فخرج ربّان البارجة إلَى البر حال وصولهِ وذهب إلَى المتسلم

بين هياج الثائرين وجلبتهم وسأله عن الاحوال الواقعة وطلب منهُ ان يحفظ ويهدئ هياج الشعب ويردع الناس عن مقاصدهم ويوطد الامن والطأنينة فاجابهُ المتسلم اني لست قادراً على حفظ المدينة ساعة واحدة . فتركهُ الكومندان اذ ذاك ونزل إلى سفينتهِ في الحال واقلع من صيدا ولم يمضِ ساعتان من الزمن حتى ظهرت امام صيدا بواخر الاسطول الفرنساوي مع بعض بواخر حربيَّة انكليزيَّة فرست هذه البواخر امام صيدا كجبالٍ رواسٍ او كاطوادٍ شوامخ وقد اطلقت حين وصولها بعض مدافع فانتبه لها الثوَّار فانهلعت قلوبهم وذلت وارتدوا عما كانوا يقصدونهُ من النهب والقتل

ولم يطل الامر حتى طلع اميرال البوارج الفرنساويَّة ببعض عساكرهِ إلى البر فسكن الهيجان تماماً وانفصمت عروة الثورة وتفرّق رجالها ولم يبقَ لها من أثر واطمأنت قلوب النصارى وزال ما كان قد ألمَّ بهم من الخوف وأمن الناس من الشرّ وخرجت نساء المصابين من محبسهنَّ في ذلك الخان الذي أقمنَ بهِ اياماً كثيرة تحت اثقال الشدة والخوف المستمرّ وصرنَ يقبلنَ الارض بين يدي ذلك الاميرال الذي اعتبروهُ مخلصهنَّ وتخلص من معهنَّ واخذنَ يبكينَ دموع السرور والحزن معاً ويدعينَ لهُ بطول العمر فالاول لنجاتهنَّ ونجاة مَنْ بقي لهنَّ من رجالهنَّ بعد ان مرّت عليهم كل تلك الاهوال والثاني لفقدهنَّ مَنْ فقدنَ بتلك المذابح الهائلة ولما قاسينَ من الشدائد والاهوال والجوع والمرض . وقد كانت ساعة مؤثرة ومنظراً محزناً انسكبت لهُ دموع الاميرال ورجالهِ شفقة واسفاً فجعل ينهضهنَّ ويعزيهنَّ ويطيب خواطرهنَّ

ويعدهنّ بأخذ حقوقهنّ والاقتصاص من ظالميهنّ . ثم دخل الخان فوقع نظرهُ عَلَى ذلك الجمع المصاب فازداد غمّاً وتأثرًا فطيب خاطر الموجودين بكلام عذب حسبوهُ بلسمًا لجراحهم البالغة وقد اقام في صيدا ريثما استتبّ الامن تماماً ولم يبقَ ما يخشى منهُ واحضر مقداراً كافياً ليفرقهُ عَلَى اولئك المساكين كل يوم فصارت توزّع عليهم احتياجاتهم فشكروا واثنوا وانطلقت حريتهم فصاروا يخرجون من الخان متى شاءوا ولا يخشون شرًّا وبعد ذلك عاد امير البحر إِلَى بيروت وتبعهُ اليها عدد عديد من مهاجري حاصبيًّا ومرج عيون وغيرها

وبعد حوادث اقليم التفاح وقضاء جزين المار ذكرها تحركت الخواطر في بلاد بشارة ايضاً وفي بلاد عكا وصفد وطبريا ولكن بكوات بيت علي الصغير منعوا حدوث ذلك في بلادهم (بلاد بشارة) وحالوا دون كل شرّ يقع على نصارى مقاطعتهم . واما في بلاد عكا وصفد وطبريا والناصرة فحال دون اجراء هذا الشرّ العظيم ذلك الشهم البدوي عقيله اغا الحاسي المغربي الاصل شيخ عرب الهنادي في تلك الاطراف وكان ذلك منهُ اجابةً لمطالب شهامتهِ وتتميماً لارشاد الامير عبد القادر الجزائري نزيل الشام الذي سيأتي ذكر ما كان لهُ من الايادي البيضاء في حادثة دمشق وما ابداهُ من الشهامة والمروءة والانسانيّة

فصل

في واقعة زحلة سنة ١٨٦٠

كان الدروز وجميع اهالي البقاع والعشائر القديمة في تلك الايام يهابون مدينة زحلة ويخشون بأسها لشدة رجالها وشجاعتهم ولما ابلتهم بهِ ايام حروبهم السالفة وكان اسمها عنوانًا للشدة والبأس بين جميع القبائل والعشائر وصيتها منتشرًا في جميع انحاء سوريَّة . وقد زادت مهابتها في اعين جيرانها والدروز عمومًا لما اتسعت تجارتها واعمالها وصارت نقطة تجاريَّة عظيمة لجميع تلك البلاد وقد كان الدروز لحسدهم لها وطمعهم في اذلالها يترقبون الفرص للتنكيل بها واذلالها حتى يصفو لهم جوّ النفوذ . ولما حدثت الحوادث المار ذكرها ونالوا من المساعدات ما جعلهم يفوزون فوزًا مبينًا لاح لهم ان خراب زحلة يمكنهم من نوال السطوة العظيمة ويجعل نصارى لبنان جميعًا في قبضة ايديهم واهل بلاد البقاعين وبعلبك ووادي التيم وحوران عبيدًا لهم فلذلك وجهوا انظارهم لمحاربة زحلة وتدميرها كما دمروا دير القمر وغيرها ولكنهم كانوا يخشون بأسها ويحسبون لها حسابًا فرأوا ان يتخذوا كل الطرق ٱلَّتِي تجعلهم في امان من الفشل فاكثروا من عقد الاجتماعات فيما بينهم وترتيب امورهم لكي يحملوا عليها بقوة عظيمة فضموا اليهم قبائل كثيرة من العربان

وجموعاً غفيرة من اسلام بلاد بعلبك المتاولة والبقاعين واستدعوا دروز حوران لمساعدتهم فأتاهم الشيخ اسماعيل الاطرش اشهر مشايخ دروز حوران واشجعهم ومعهُ حوالي ثلاثة آلاف مقاتل ما بين فارس وراجل وهم فرق كل فرقة يقودها شيخ صغير من مشايخ دروز حوران . ولما تكامل الجمع وبلغ عدد المقاتلين ١٥ الف رجلٍ مؤلفين من دروز لبنان وحوران والمتاولة والمسلمين والعربان حملوا عَلَى زحلة ٱلَّتي لم يمكنها ان تقاتل هذه الجموع الغفيرة . فتلقتهم زحلة بثبات عظيم وفازت بابعادهم عنها مرات متوالية موقعةً الخسائر العظيمة في صفوفهم عَلَى قلة رجالها كما تقدم حتى صاروا يهابونها ويخشون ان يرجعوا مدحورين عنها . وبينما نيران الحرب تستعر بين المتحاربين والفوز مرجح لاهالي زحلة وفد جيش كبير من العسكر المنظم تحت قيادة نوري بك بأمر خورشيد باشا المار ذكرهُ وموافقة قناصل الدول في بيروت وذلك لردع البغاة واجلائهم عن زحلة وتسكين الامور والمحافظة على النصارى . وعند وفود هذه القوّة فعوضاً من ان تبادر لانفاذ ما بعثت لاجلهِ انضمَّ قائدها لجيش الدروز واخذ يحاول خداع اهل زحلة ليأخذ سلاحهم ومن ثمَّ يذبحهم كالغنم كما جرى في حاصبيا وراشيا ودير القمر ففطن النصارى لمكيدتهِ هذه ٱلَّتي تكرَّر حدوثها وعرفت نتائجها فأبوا اجابة مطالبهِ وذكروهُ بأموريتهِ وما يجب عليهِ بحسبها من العمل على تفريق جيوش المعتدين العظيمة وايجاد الامن للنصارى في زحلة والبقاع وتلك الاطراف جميعها . واما هو فاصرَّ على مطالبهِ الخداعيَّة واجتهد بكل دهاهُ ان يصيد بها الزحليين ليجعلهم غنيمة

باردة بيد اعدائهم واذ لم يفز بما قصد جنح اخيراً إلى التهديد واعلن الزحليين بانهُ يعتبرهم عصاة طغاة اذا ابوا اجابة مطالبهِ واعرضوا عن آرائهِ فأنكروا عليهِ ذلك وقالوا انَّا عبيد الدولة وطوع عدالتها ولكن كيف يتأتى لنا تسليم اسلحتنا وهذه الجموع الغفيرة المدججة بالاسلحة محيطة بنا من كل ناحية وصوب تقصد لنا الشرّ ولا تهاب الحكومة كما جرى لها في جهات كثيرة قريبة العهد فكان النصارى بعد تسليم اسلحتهم عرضة لشرّها وقد اوقعت بهم بالفعل وتركت بلادهم مطعماً للنار ورجالهم لطيور السماء واموالهم مغنماً للعصاة ونساءهم هائمين في بلاد الله فخذ اسلحة هذه الجموع واجلها لاوطانها لنرتاح من الخوف منها ومن ثمَّ ترانا اطوع لك من خيالك في كل ما تأمر بهِ . فأبى سماع احتجاج الزحليين وقال اذًا انتم غير مطيعين لما امرتكم بهِ فوجه قواهُ ضدهم وساق جيوشهُ عليهم فتلقوها بالصد وفازوا عليها وردوها عنهم فتأكد وقتئذٍ نوري بك القائد المذكور ان الاستمرار عَلَى منازلة اهالي زحلة لا يجدي نفعاً ويضيع كل آمالهِ من نكاية زحلة وخرابها لانهُ كان يعلم بان الخبر لا يلبث ان يصل لبيروت فترد لهُ الاوامر بالانكفاء عنها . ومن جهة ثانية تعزَّز قوَّة زحلة ايضاً بالنجدة الَّتي كان ينتظر وصولها اليها من كسروان تحت امرة يوسف بك كرم البطل المشهور فتقوى بها عَلَى تلك الجموع كلها وتفرقها ايدي سبا فعمل عَلَى اخذ زحلة بالحيلة قبل ان يحول دون رغائبهِ مانع

ولما صمم نوري بك عَلَى ما نواهُ اجتمع على رؤساء الدروز وغيرهم واعرب لهم عما رآهُ من الميل إلى اخذ زحلة بحيلة جديدة وما ارتآهُ

في ذلك من الطرق فاستحسنوهُ ورتبوهُ ترتيباً جيدًا وصار الدروز ومن معهم يتظاهرون كأنهم جيش يوسف بك كرم فيغشون بذلك الزحليين وينالون منهم مآربهم

وفي اليوم الثاني الذي هو يوم الاربعاء في ٤ لوليو (تموز) سنة ١٨٦٠ كان ترتيب المكيدة قد تمّ تماماً فأصبح الزحليون للدفاع عن مدينتهم كالعادة في الايام السالفة منذ احاطت بهم جموع الاعداء ورأوا من جهات لبنان جيشاً كثيفاً يحمل رايات النصارى وبيارقهم المختصة بهم اثناء الحرب وهو مقسم فرقاً كل فرقة يتقدمها رجل حاملاً صليباً والجميع ينشدون نشائد الحرب ويطنبون بيوسف بك كرم ويظهرون بأن فرقهم هذه تحت قيادتهِ ويعرضون بذكر الانتقام من الدروز فظنّ الزحليون بان تلك كتائب يوسف بك كرم ألّتي كانوا ينتظرون قدومها لمساعدتهم في تلك الاوقات الحرجة ففرحوا غاية الفرح ولم يبقَ عندهم ريب في تلك القوة وخصوصاً عند ما رأوا بيارق الصليب تتقدمها فخرجوا للقائهـا واستقبالها استقبال الصديق لصديقهِ إلَى مسافة بعيدة عن زحلة غير حاسبين حساباً لشيء ولا عالمين بأن تلك المظاهر مظاهر غش وخداع تظاهر بها اعداؤُهم ليهون عليهم الفتك بهم . ولما اقترب الزحليون من اولئك القادمين وعرفوا سرّ الامر اضحوا وهم على غير استعداد محاطين من كل جهة بجموع تفوق عددهم نحواً من خمس مرّات وتعمل بهم بسيوفها واسلحتها النارية عملاً هائلاً ولكنهم ابلوا بلاءً حسناً وهم في وسط حلقة من الاعداء وحاربوا حرب الابطال الاشداء وتمكن العدد العديد منهم من

خرق تلك الصفوف والفوز بالنجاة وكانت تلك الساعة هائلة سقط فيها في تلك السهول عدد غفير من الرجال الاشداء من الجانبين

اما زحلة فقد بقي فيها في ذلك اليوم نحو اربعمئة مقاتل لاجل المحافظة عَلَى البلدة والذراري والاموال ولما رأت هذه الفرقة ما حلَّ بالرجال الزحليين وكيف اخذوا غيلةً تأكدت بأنهُ لا قبل لها بحفظ المدينة من هجمات تلك الجموع الغفيرة وبعد المشورة رأوا بأن احسن سبيل للنجاة الهرب بمن في المدينة وبما يمكن حملهُ من المتاع والالتجاء الى الجبال والبراري وهكذا تمَّ وهرب من زحلة في ذلك الوقت القصير من امكنهُ الهرب وبقيت المدينة خالية من رجال الحرب ولم يبقَ الاَّ العاجزون وعددٌ عديد من النساء فتقدم نحوها الدروز ومن معهم يصحبهم عسكر منير بك فنهبوا المدينة وقتلوا من رأوهُ بها من المتخلفين وهم قلائل رأوا الموت في سبيل الذود عن وطنهم افضل مغنم وبعد ان تمَّ النهب اوقدوا النار في انحاء المدينة ولم يمضِ زمن قصير حتى باتت زحلة مدينة الاشداء وبلدة التجارة والفن شعلة نار وقد جاء العسكر في ذلك الوقت باعمال همجيَّة تقشعرُّ منها الابدان لانهم اعتدوا وارتكبوا كثيرًا من المنكرات لاسيما في دير الراهبات وكان عددهنَّ ٢١ راهبة اتوا المنكر معهنَّ وقتلوا بعضهنَّ . اما نجدة يوسف بك كرم فحضرت بعد ان انتهى الامر واضحت زحلة خرابًا تلعب النار في ارجائها فرجعت النجدة آسفة عَلَى دمار تلك المدينة الزاهرة

وقد امتدت الثورة في ذلك اليوم الى قرى النصارى في البقاع

و بعلبك ونهبت وحرق كثير منها وقتل عدد غفير من رجالها · وفرَّ الباقون من الاحياء الى جهات مختلفة واختبأ بعضهم في الغابات و بين الصخور والمغاير · وقد كانت خسائر زحلة عَلَى ما اكدهُ العارفون

٤٠٠ قتيل وخسائر بلاد البقاع وبعلبك ٥٠٠ والجملة ٩٠٠
من الرجال الابرياء ذهبوا ضحيَّة الدسائس
التركيَّة مثل غيرهم من ابرياء الجهات
الاخرى



فصل

في ما اصاب بيروت ونواحيها من اهوال سنة ١٨٦٠

من اغرب ما يقال في هذه الرواية المكربة والاخبار الهائلة ان الله ابقى في صدر الدروز بقيَّةً من المروءة والفضيلة نحب ان نذكرها لهم هي انهم كانوا يحافظون عَلَى حياة النساء وصيانة اعراضهنَّ محافظةً غريبةً ويلاطفونهنَّ بالكلام الطيب بعد قتل احب الناس اليهنَّ عَلَى مرأًى منهنَّ. واحترام النساء والاعراض عادة في الدروز واما بقيَّة الذين عاونوهم عَلَى الفتك بالنصارى فاتوا كل منكر وكل رذيلة ولم يظهروا ما اظهرهُ الدروز من هٰذَا القبيل. ولما كان هٰذَا مبدأ الدروز فقد عني مشايخهم من آل ابي نكد وحماده بايصال نساء دير القمر بعد مذبحتها المريعة الى مدينة بيروت وساقوا منهنَّ حوالي الفي امرأة اكثرهنَّ عَلَى وشك الموت من الجوع والحزن المفرط والقنوط الزائد والخوف الشديد والهمّ الذي لا يطاق وحدث انهُ وصل ميناء بيروت في تلك الايام سفينتان انكليزيتان فلما علم بهما الدروز ارسل احد مشايخهم إلَى امير البحر في احداها يطلب اليهِ ان يرسل بعض رجالهِ لاستلام النساء فذهل الامير لهذه القحة الزائدة وعلم من هٰذَا الطلب ان الدروز كانوا يظنون انهم لم ياتوا امرًا منكرًا في قتل النصارى

وانهم عملوا الواجب عليهم ونفذوا امر حكومتهم ولكنهُ لم يمتنع عن الاعتناء باولئك المساكين لجاء اليهنّ ولما رأينهُ ترامينَ عَلَى اقدامهِ وهنّ يولولنَ و يندبنَ من فقدنَ ويصحنَ قائلات « ان الترك فعلوا بنا كل هذه الفعال . الترك قتلوا رجالنا . الترك نهبوا اموالنا» . . . ولم يذكروا الدروز بشرٍّ فشهدنَ بذلك عَلَى توحش الاتراك وظلمهم . ثم جالت السفينتان بين بيروت وصيدا فوجد رجالها اناساً كثيرين من الفارين اكثرهم نساء وجاءوا بالجميع الى بيروت حيث بدأ اصحاب الاحسان من اهل اوروبا والوطنيين يرسلون اليهم الطعام والكساء الى ان انفرجت الازمة وعاد كلٌّ الى مقرهِ او مقرّ اجدادهِ

وكانت دسائس الاتراك وفعال الدروز قد هيجت مخاوف المسلمين واحقادهم في بيروت مثل سواها من المدن لحدث انهُ قتل في تلك الاثناء شاب من المسلمين في مدينة بيروت قيل ان الذي قتلهُ تركي مسلم فعل ذلك بامر الوالي خورشيد باشا فهاج المسلمون وماجوا وشاع الخبر بينهم في الحال ان النصارى قتلوا هذا الشاب وعزموا عَلَى الانتقام العاجل فأُقفلت الدكاكين وتوقفت حركة الاعمال وعمّ الخوف والقلق ولجأ معظم المسيحيين الى بيوت القناصل والاجانب و بعضهم استعان بأشراف المسلمين واصحاب الذمة والمروءة منهم وصار اشرار المسلمين يتوعدون النصارى بالذبح و يطلبون معرفة القاتل حالاً او يفتكون بكل اهل ملتهِ واهانوا قنصل انكلترا وقنصل فرانسا وكانوا عَلَى وشك القيام للذبح والفظائع الاخرى لولا ان يتهددهم قبطان الباخرة الانكليزية باطلاق المدافع عَلَى بيوتهم وتدميرها . وكان في الميناء باخرة

عثمانيَّة قائدها رجل انكليزي اسمهُ اسماعيل باشا (الجنرال كمتي) ساعد عَلَى اخماد الفتنة عَلَى قدر طاقتهِ وتهدد الثائرين بانزال عساكرهِ وعساكر الباخرة الانكليزيَّة الى البرّ لمحاربتهم اذا لم يرجعوا عن غيهم ولكن غيظ هؤلاء الاشرار لم يخمد الاَّ حين شاع في المدينة انهم وجدوا القاتل وكان فتىً نصرانيًّا في شرخ الشباب عرف بين ذويهِ ومعارفهِ بسلامة القلب وحسن الخصال فجرَّهُ الثائرون الى سراي الحكومة ولا ذنب لهُ غير ان بعض الحاقدين عليهِ دلهم اليهِ واشاع ذلك الخبر عنهُ وبدأت محاكمتهُ في الحال فحكمت عليهِ المحكمة بالاعدام بعد نصف ساعة من القاء القبض عليهِ ولم يسمع ان قاتلاً حوكم واعدم بمثل هذه السرعة اذ ليس يمكن ان تجمع الادلة عَلَى ادانتهِ في مثل هٰذَا الوقت الضيق . ورأى الشاب ان الخلاص بعيد عنهُ فصاح في رجال المحكمة « اني بريء . اني بريء كما يعلم الله ولكن اذا كان قتلي يهدّي الخواطر ويفيد بني قومي فهذا عنقي اقطعوهُ الآن » واعدم هٰذَا البريء مثل غيرهِ من الذين سخط عليهم الزمان واوقعهم في مخالب الاتراك فراح هٰذَا الفتى الشريف ضحيَّة عن قومهِ ولم نعثر باسمهِ في الكتب الَّتي نقلنا هٰذَا الخبر عنها

عَلَى ان هٰذَا لم ينفِ الخوف ولا امات الاحقاد فقد كان الدروز يجيئون بيروت افواجًا والدم البريء عَلَى ملابسهم واسلحتهم وكان المسلمون يصافحونهم ويعانقونهم ويهنئونهم بالنصر مع ان الدرزي عدوٌّ المسلم من يوم نشأتهِ والمسلمون يعلمون ذلك ولكنهُ التعصب الذميم والحسد الوخيم والعياذ بالله من فعل الشيطان الرجيم . وعاد الاضطراب إلى

اكثر من سابق حالهِ بعد حين فوقفت التجارة وقوفًا تامًا واقفلت المخازن وعادت البضائع الواردة إلَى بيروت قبل ان تفرغ فيها وهاجر العدد الكثير إلَى اثينا ومالطه واسكندرية وغيرها وشحن البنك العثماني كل ما كان فيهِ من المال والورق وارسلهُ إلَى انكلترا ورحل اكثر الاجانب وصار تطمين الخواطر مستحيلاً لان النصارى عن بكرة ابيهم اعتقدوا اعتقادًا تامًا ان نصيب اخوانهم في دير القمر وحاصبيا ينتظرهم يومًا بعد يوم ما داموا في مدينة بيروت وكانوا يفرّون خوفًا من عساكر الاتراك لا من الدروز

واشتدَّ في ذلك الحين الخوف عَلَى بلاد كسروان وجبال الموارنة لان خورشيد باشا امر بعض جنودهِ بالتقدم عليها « حتى يحمي النصارى » وكان الناس يعلمون معنى هذه الحماية بعد الذي رأوهُ من فعال الاتراك وعساكرهم فرأى القناصل ان الخطر شديدٌ عَلَى الموارنة وهم لا يقلون عن نصف مليون نفس وارسل المستر مور قنصل انكلترا الجنرال مذكرات إلَى بقيَّة القناصل يدعوهم إلَى الاجتماع في بيتهِ للمداولة فجاءوا اليهِ في الحال وبعد المشاورة قرَّ رأيهم عَلَى ان المذاكرة مع الغادر الكاذب خورشيد باشا لا تفيد شيئًا (وكانوا قد طلبوا من دولهم القوَّات العسكريَّة) قبل ان تصل النجدة من اوربا ما دام هٰذا الخادع قد خدعهم مرارًا واظهر انهُ ادنى المتوحشين وعزموا عَلَى ارسال قرارٍ منهم جميعًا إلَى مشايخ الدروز ينهونهم فيهِ عما كانوا ينوون من مواصلة القتل والذبح ويحذرونهم من العواقب لانهم علموا ان المروءة والشعور والانسانيَّة لم تفقد من صدر الدروز كما فقدت من

الاتراك وعلى ذلك كتبوا مذكرة على ان ترسل إلى سعيد بك جنبلاط وغيرهِ من زعماء الدروز وهذه ترجمتها

« نحن وكلاء دول انكلترا والنمسا وفرنسا وبروسيا وروسيا قد علمنا بملء الاسف ان القتل والسلب والتدمير لم تزل إلى الآن تعمل على نمطٍ يوجب اللوم الشديد . وعليهِ فنحن نكفلكم رسمياً بأن توقفوا كل هذه المصائب ونحذركم بصفتنا وكلاء عن الدول الاوربيّة وبناء على تفويضٍ جاءنا من السفراء من عواقب هذه الامور . ونعلمكم ان المسؤوليّة ٱلّتي ستلقى عليكم في المستقبل ثقيلة عظيمة خصوصاً اذا جدت منكم او من قومكم حركات اخرى ضد المسيحيين او ضياعهم او املاكهم . فلاجل الوصول إلى هٰذا الغرض نرى من الضروري ان نكلفكم ونشدد عليكم ان تعقدوا الصلح بأقرب ما يمكن من الوقت وان تأمروا فرق جيشكم الموجودة الآن في انحاء دمشق وصيدا وزحلة ودير القمر وكسروان وغيرها بالرجوع عنها . فأمعنوا النظر في النتائج الوخيمة ٱلّتي تنتج عن عدم قيامكم بمطالبنا هذه واعلموا ان حكوماتنا لا تطيق السكوت عن حالةٍ مثل هذه »

ولم يجسر احد الاهالي على اخذ هذه المذكرة إلى مشايخ الدروز لان البلاد كانت في حالة الاضطراب والحرب يومئذٍ فتقدم انكليزي اسمهُ جراهام لهذه المهمة وطار بالانذار إلى المختارة قرية سعيد بك جنبلاط فلما رآهُ الدروز لم يتعرَّضوا لهُ لانهم كانوا يتحاشون التعرض للاوربيين فدخل على سعيد بك واعطاهُ الكتاب فلما قراهُ وقف على الاقدام ورفع الورقة إلى رأسهِ علامة الاحترام والاكرام وتذلل امام

المستر جراهام وقال ان طاعة القناصل محتمة عليهِ و بالاخص قنصل الدولة الانكليزيَّة ولكنهُ ادَّعي الضعف وقال ان الدروز ليسوا تحت امرهِ فاجتهد المستر جراهام باقناعهِ ليسمع النصيحة ورأى منهُ عين الغدر والمحاولة وتاكد بعد الجهد الجهيد ان هٰذَا الغادر لا يريد العدول عن مقاصدهِ السيئة فعمد إلَى بشير بك ابي نكد وكان يومئذٍ في المختارة (وهو الذي اقسم ان يضع جماجم النصارى في اساس بيتهِ على مقربةٍ من دير القمر) فألحَّ عليهِ هٰذَا الانكليزي الهمام بمساعدتهِ في ابطال الحرب واجابهُ الدرزي بمثل ما اجابهُ سعيد بك . و بذل المستر جراهام جهدهُ في الامر حتى أقنع سعيد بك بعد اللتيا والَّتي بكتابة الاوامر إلَى بعض الانحاء بكف العداء وكان من هذه الكتب واحد ارسل إلَى حاصبيا خلص بوصولهِ جماعة من النصارى في منزل الست نايفه وقد مرَّ ذكرهُ . ودار المستر جراهام بعد ذلك على كل مشايخ الدروز واكابرهم يريهم الانذار ويرجوهم بكل لسان ان يساعدوهُ على قمع الثورة وابطال الحرب فكان اكثرهم يتذلل بين يديهِ و يعد بالامور الطيبة او يقول انهُ اضعف الناس لا يقدر على شيءٍ وعاد الرجل وهو يعلم ان الدروز لا يسمعون النصح ولا يرضخون لغير القوة

كل هذه الامور كانت تجري وعساكر الدولة الفرنساويَّة مسافرة قاصدة سوريَّة بأمرٍ من دول اوربا لابطال هذه المذابح ومقاصة الثائرين فوصلت في ١٦ اغسطس سنة ١٨٦٠ وكان فؤَاد باشا معتمد السلطان قد سبقها ليخفي الحقائق و يسكت الذين يريدون التظلم واظهار ما يكنهُ الفؤَاد وخلد الدروز والمسلمون من بعد وصولهِ الى السكون ولكن بعد ان حصلت المذابح التي مرَّ ذكرها

فصل

في مذبحة دمشق سنة ١٨٦٠

ليس من نيتنا ايراد تاريخ دمشق في هٰذَا الفصل كما اوردنا تاريخ غيرها من المدائن الصغرى وذلك لاشتهار هذه المدينة واطلاع الناس على تاريخها واحوالها. يكفي ان يقال انها اعظم مدن الشام واكبرها وانها جنة الله في ارضهِ ولاهلها عَلَى اختلاف اشكالهم شهرة في طيبة القلب واللطف وانها كانت مركز حكومة الشام من بعد دخول الجيش المصري إلَى هاتيك الربوع وفي دمشق حوالي مائة وخمسين الفًا من السكان تسع اعشارهم من المسلمين وللمسيحيين منهم حارة خاصة بهم تعرف بباب توما

وقد ذكرنا الاسباب الكثيرة ألَّتِي هيجت احقاد المسلمين عَلَى النصارى في سنة ١٨٦٠ واهمها دسائس الحكام . وكان في دمشق والٍ اسمهُ احمد باشا اعطي في ذلك الحين رئاسة الامور الاداريَّة والعسكريَّة معًا ولم يسمع في تاريخ الاتراك بأخبث من هٰذَا اللعين ولا أميل منهُ إلَى المفاسد والمكايد . هٰذَا جعل همهُ تحريك الخواطر وتمهيد اسباب المذابح حتى تمَّ ما تمَّ في المدائن الاخرى وكانت مذبحة حاصبيا وراشيا عَلَى يدهِ وبأمرهِ والذين قاموا بها من عساكر الاتراك كانوا رجالهُ . ثم ان الظروف ساعدت ايضًا على الهياج في تلك

الايام واهمها ان السلطان اصدر امرًا يقضي بالمساواة بين رعاياهُ وكان ذلك الامر بمقتضى معاهدة باريز فلما احسّ المسلمون بان الترفع عن النصارى ضاع منهم وان الكل اصبحوا سواء وان معشر النصارى ما لبثوا ان تحرَّروا حتى فاقوهم في الثروة والجاه والعلم وكل امرٍ آخر نقموا عليهم واضمروا لهم الشرّ . وكان في معاهدة باريز بند يقضي على الحكومة التركيَّة بأَخذ الجنود من طوائف المسيحيين كما تأْخذهم من المسلمين ولكن الحكومة لم تقم بهذا الشرط لاسباب معلومة ففرضت على النصارى مالاً كثيرًا — خمسين ليرا عن كل شخص — بدل العسكريَّة وكان هٰذَا المال فوق الذي يقدر القوم على دفعهِ فتشكوا مرارًا وطلبوا إِلَى حكومتهم ان تخفف الحمل عنهم او ان تعفيهم من هٰذَا المال وتاخذ منهم الرجال فلم تقبل والحت عليهم في سنة ١٨٦٠ الحاحًا زائدًا في دفع المتأَخر عنهم من هٰذَا المال وكان في ذلك الحين مطران الروم الارثوذكس يونانيًّا لا يعرف لغة الاهالي واخلاقهم فجاءهُ القوم يطلبون توسطهُ في رفع هٰذَا المال وتجمهروا حول مسكنهِ فأَراد تفريقهم بقوة الجند وكتب الى الوالي يقول لهُ ان النصارى في حالة الهياج والثورة من جرَّاء ضرب الاموال العسكريَّة الفادحة ويرجوهُ تفريقهم عن مسكنهِ ففرح الوالي بهذه الكتابة وحفظ الورقة في جيبهِ لانهُ حسبها دليلاً على ما كان ينوي الاحتجاج بهِ حين اللزوم من بعد المذابح أَلَّتِي كان يريد اتمامها حتى اذا سئل عن الامر قال هذه شهادة مطران القوم انهم كانوا عصاةً يريدون الثورة والقلاقل فاخمدنا ثورتهم بقوَّة السلاح

وكان هياج المسلمين في دمشق يشتدُّ يوماً عن يوم بفعل دسائس احمد باشا حتى صار القوم يسمعون اخبار المذابح ٱلَّتي حصلت في حاصبيا وراشيا وزحله ودير القمر و يطربون وكانوا يحسبون لابطال زحله حساباً كبيراً فلما جاءتهم الانباء بسقوطها وذبح رجالها زينوا المدينة واقاموا الافراح والنصارى من حولهم ينظرون ولا يجسرون على الاعتراض الاَّ ان بعض الوجهاء وارباب الفضل من المسلمين لم يرق لهم هٰذَا الصنيع فاطفأُوا الانوار وداروا على الناس يحرّضونهم على التعقل والسكينة فلم تجدِ مساعيهم المحمودة نفعاً لان الحكومة واشقياء الاهالي كانوا اقوى منهم وسوف نذكر اسماء هؤُلاء الافاضل في آخر هٰذَا الفصل حتى يحفظ ذكرهم وذكر فضلهم في التاريخ اقراراً بجميلهم واعترافاً باحسانهم . وكان هياج المسلمين كما قلنا يشتد يوماً عن يوم والنصارى يهانون ويشتمون ويرون كل بليَّة ويتظلمون ولا ينصفون حتى رأَوا ان الالتجاء إِلَى عدل الحكومة عبث فلزم اكثرهم بيوتهم وانقطع التجار والمستخدمون منهم عن الخروج إِلَى اشغالهم وجعلوا يقضون الليل والنهار في الصلاة والتفكير والهم والتدبير والشرّ يزيد يوماً عن يوم حتى صار الموت قريباً منهم

وكان القناصل يرون هذه الامور و يبعثون بالتقارير إِلَى دولهم حتى اذا زاد الخطب اجتمع الكل في بيت قنصل الانكليز بناء عَلَى طلبهِ وتداولوا في الذي يجب اتخاذهُ من الطرق لمنع المذابح فقرّروا ان تفتح بيوتهم للملتجئين اليها اذا حصل ذبح او نهب وان يحذروا الوالي تحذيراً من سوء العواقب وانتدبوا احدهم وهو قنصل الدولة اليونانيَّة

لمخابرة الوالي في هٰذَا الامر بالنيابة عنهم لانهُ كان يعرف اللغة التركيَّة فذهب الرجل وحاول جهدهُ ان يستفيد ويفيد في اخماد الهياج ولم يفلح وكان احمد باشا في اول الامر يتجاهل ويظهر ان البلاد في راحة وامان ثم لما مرَّت الايام ولم يعد في امكانهِ الانكار صار يعتذر ويحتجُّ بقلة العساكر لديهِ وعدم امكانهِ رد الاشقياء من الاهالي عما يضمرون ثم بدأ باظهار التعجب والاهتمام مما صارت اليهِ الحالة ولكنهُ لم يأمر امرًا واحدًا من مقتضاهُ منع العساكر واوباش المسلمين من التعرُّض للمسيحيين وكان كلما اشتدَّ بهِ الهياج في جدالهِ مع جناب القنصل المفوَّض بمخابرتهِ يقول لهُ ان النصارى قد عصوا امر الدولة وهم يحاولون خلع طاعتها وعندي الادلة عَلَى ذلك من كتابة اساقفتهم ورؤساء دينهم . ثم ذهب القناصل برمتهم إِلَى دار الوالي والحوا عليهِ الحاحًا شديدًا في ان يعمل عَلَى تحسين الحال فلم يرَ بدًّا من اجابة طلبهم ووعدهم بعمل ذلك فاصدر امرًا الى عامة الناس والعساكر بالتزام السكون وعدم التعرض للنصارى في امورهم وعاد هٰذَا الامر ببعض المطلوب فاحسَّ النصارى بانفراج الضيق نوعًا وارسل الوالي وراء عمال الحكومة منهم يحملهم عَلَى الطمانينة ويأمرهم بالحضور لاستلام اعمالهم فقاموا بالامر ورأوا ان الهياج قلَّ وانشرحت بذلك الصدور وكاد الناس يصدقون ان المياه عادت إِلَى مجاريها

ولكن احمد باشا لم يكن ينوي ابقاء السكينة زمانًا فعاد إِلَى الدسائس وعاد العساكر والاهالي إِلَى هياج اشد هولًا من الاول وعاد النصارى إِلَى الاختفاء والمواراة عن عيون الاعداء واحس الجميع

بقرب الخطر فحاول قنصل انكلترا وقنصل اليونان عَلَى حمل بعض الوجهاء من المسلمين عَلَى مساعدتهم في تسكين ذلك الهياج وساعدهم نخبة من اخيار دمشق ممن ستذكر اسمائهم ولكن الامر لم يفد شيئًا فان الاضطراب ظلَّ يزيد وزاد شوق الاشقياء إلَى سفك الدماء زيادةً كبرى وسمع بذلك العرب والمسلمون المجاورون لدمشق فجاؤُوها من كل صوب يريدون شفاء ما في انفسهم من الحقد بقتل النصارى ونهب اموالهم . وحدث لسوء الحظ ان الذين سلموا من حاصبيا وصلوا في ذلك الحين إلَى دمشق وكانهم جاؤُوا بعدوى الذبح والقتل فلم يعد للاشقياء صبر وصار الدروز من خارج المدينة والمسلمون من داخلها يلحون عَلَى الحكومة باصدار الامر لهم بالتقدم للذبح والفتك وهتك الاعراض وسلب الاموال وحرق البيوت . ورأى احمد باشا ان الوقت دنا لاتمام غايتهِ فزاد الطين بلة في انهُ اشاع بين الناس ان النصارى ينوون الهجوم عَلَى حارات المسلمين ليلاً والفتك بهم مع ان النصارى في دمشق من اضعف خلق الله ليس بينهم واحد يعرف طريقة استعمال السلاح ولم يخطر في بالهم غير وقاية انفسهم من الخطر بالاسترحام والاختفاء وصار هٰذَا الوالي اللئيم كلما حضر للصلاة يصف الجنود حول الجامع بدعوى ان النصارى ينوون الهجوم عليهِ حتى وصل كره المسلمين من هذه الاشاعات والمفاسد إلَى درجة لم يعد من الممكن البقاء عَلَى السلم معها . ثم نقل الوالي عائلتهُ إلَى القلعة وحصنها بالمدافع ففهم الناس من ذلك ان الوقت قرب وجعلوا يستعدون للعمل عَلَى ملاشاة النصارى عن بكرة ابيهم من دمشق وهاجت الجموع وماجت

وعمَّ الخطب وزاد الكرب وبلغ الاستعداد للفتك حدهُ وانقطع كل امل عند النصارى في النجاة

وارسل الوالي بعد كل هذه الامور فرقةً من العساكر إِلَى باب توما — حارة النصارى — لوقايتهم وكان النصارى قد سمعوا بأَخبار الوقاية اَلَّتِي اتاها هؤُلاء الاتراك في مذابح الشام الاخرى فأَيقنوا بقرب الذبح وقالوا ان هذه العساكر ما جاءت الاَّ للفتك بنا وزاد خوفهم وقلقهم زيادة فاحشة لما علموا من بعض الذين لجأُوا إِلَى بيوتهم من بقيَّة اهل حاصبيًّا ان هٰذَا الالاي بنفسهِ هو الذي كان في حاصبيًّا وساعد عَلَى ذبح النصارى فيها فكانهُ اعتاد فعل الشرّ وجاء دمشق حتى يفعل فيها الذي فعلهُ في حاصبيًّا وكانت علامات الشرّ تلوح عَلَى وجوه العساكر فسلَّم النصارى الامر لله وانقطع رجاؤُهم من الحياة وصار بعضهم يحاول الفرار والالتجاء إِلَى بيوت الاخيار من المسلمين وبعضهم يهاجر المدينة سرًّا اذا لم يمنعهُ العساكر من ذلك والبعض الآخر وهم الفريق الاكبر يحاولون استرضاء العساكر وضباطهم ويعطونهم الاموال والهدايا الكثيرة حتى صار افقر اولئك الاتراك العتاة من زمرة العساكر اغنى من اكثر النصارى وجاهةً وانتقل مال اولئك المساكين كلهُ الى هؤُلاء الوحوش الذين أُرسلوا للمحافظة عَلَى ارواحهم ففتكوا بهم وخانوا عهد الله وعهد الاسلام وعهد المروءة

ولما علم احمد باشا ان الانتظار بعد كل الذي حصل يضرُّ ولا يفيد وانهُ لم يبقَ عَلَى اتمام الامر الاَّ اعطاء الاشارة جعل يفكر في عمل يهيج المسلمين إِلَى حدٍّ يدفعهم من عند انفسهم إِلَى الهجوم وابتداء

المذبحة من دون رأي الحكومة ووجد الواسطة في الحال ذلك ان الاتراك والمسلمين اكثروا من اهانة الدين المسيحي الشريف في ذلك الحين فشكا بعضهم الامر إلى الوالي مرارًا وتكرارًا ولما اراد في آخر الامر فتح القتال امر بضبط ثلاثة اولاد من المسلمين لانهم اهانوا الصليب علنًا وكتفهم وبعثهم تحت الحفظ الى حارة النصارى ليكنسوا شوارعها جزاء ما فعلوه . ورآهم المسلمون على هذا الحال والعساكر يقولون انهم ذاهبون ليكونوا عبيدًا للنصارى لانهم اهانوا الصليب فأوقفوهم عند مدخل الجامع الاموي وفكوا قيودهم والعساكر لا يعارضونهم ثم دخلوا الجامع وتشاوروا مليًا في الامر حتى اذا خرجوا بدأ بعضهم ينادي بأعلى صوته « يا لدين محمد . يا لغيرة الدين . يا لله من النصارى الكافرين » وامتدّ هذا النداء من فم الى فم والتهبت الصدور وتعاظمت الامور وحلّ القضاء المقدور فهجم رعاع المسلمين عندئذٍ من كل صوبٍ على حارة النصارى وهم كالذئاب الخاطفة يريدون اطفاء ما في قلوبهم بذبح النصارى وسفك دمائهم وهكذا ابتدأت المذبحة الهائلة .....

وكان بعض الثائرين يقول للبعض الآخر وهم يهاجمون حارة النصارى لا تخشوا مداخلة الحكومة ولا تحسبوا ان العساكر يعارضوننا في هذا الجهاد فاقتلوا النصارى عن آخرهم في هذا النهار واجعلوا مساكنهم مطعمًا للنار واذيقوا نسائهم مرارة العار وتخلصوا من بعد طول الصبر من هؤلاء النصارى الكفار . وأُطلق مدفع على كنيسةٍ للروم الارثوذكس بأمر الوالي ولم يكن فيه غير البارود فأصاب حصرًا

واضرم النار فيها وحينئذٍ فطن الناس الى النار فأضرموها في حارة النصارى من كل جانب ودخلوا ينهبون ويقتلون وكان عساكر الاتراك يفتحون الابواب للقادمين ويمنعون النصارى من الفرار ولم ينتصف ذلك النهار حتى صارت حارة النصارى كلها نارًا متقدة وكان منظرها في الليل التالي مما يشيب الاطفال لاسيما اذ كان بعض المساكين يحاولون الفرار من بين انياب النار فتسقط بهم الجدران ويموتون في عذابٍ لا يطاق حتى اذا جاء الصباح واحسّ الانذال ان السلب والنهب قد تمّ اعملوا السلاح في الذين نجوا من النار فذبحوا كل من وجدوهُ من النصارى ولم يبقوا عَلَى طفلٍ ولا عاجز وفتكوا بالامهات وهتكوا البنات واتوا كل اشكال المنكر والموبقات وسال دم القتلى في شوارع دمشق غيثًا مدرارًا وعمّ البلاء الهائل حتى لم يعد يرى في حارة النصارى غير راس ينهال عليهِ الرصاص من بنادق العساكر انهيال السيل وصدر تدقهُ سنابك الخيل واجسام اكلتها النار وصيرتها رمادًا او فحمًا اشد سوادًا من حالك الليل وويل في ويل في ويل . وصعد صراخ الاطفال والنساء إلَى السماء وجرت دماء القتلى في الشوارع تستغيث من هول هٰذا البلاء حتى خيل للناظرين ان لم يبقَ نفس نصرانيَّة حيَّة الاَّ اللائي خلصهنَّ بعض الاوباش لغايات دنيئة وكنَّ يطلبنَ الموت ويرضينَ بهِ عن طيب نفس بعد الاهوال الَّتي رأينها وذهبت الالوف فريسة حقد الاتراك ودسائسهم فيا أيها القارئ الكريم مثّل لديك باقي هٰذا الهول الفظيع ودع القلب يتقطع وخلِّ العين تدمع والنفس تتوجع والفؤاد يتفجع فقد قتل في ذلك اليوم

ستة آلاف نفسٍ بريئة بعد ان تحملت مرارة العذاب الذي لايطاق زماناً طويلاً ونال الاشقياء مرامهم وكانما الارض خلت من الكرام فيا لله يا لله من شرور الظالمين

هنا ينتهي القلم من وصف امور القتل والذبح والتعذيب والهتك ألّتي اتاها الاتراك ومن ساعدهم رفقاً بقرّاء هذا الكتاب ولكن الله سوف يجزي هؤلاء الوحوش شرّ الجزاء ويذيقهم المرّ والعذاب في يوم الحساب

عَلَى ان الارض لم تقفر من الكرام في ذلك الزمان المرّ ولا يخلو زمان مهما كثُر توحش اهلهِ من بقيّةٍ تبقى من اهل الفضل والمروءة فقد وجد في وسط اولئك الوحوش الظالمين رجلٌ عظيم المقام رفيع القدر عالي الهمة كثير التمسك بفضائل الاسلام شريفٌ في الحسب والنسب اميرٌ ساد بالسيف وساد بالادب بطلٌ مغوار وليثٌ كرار شهد الحروب والاهوال وفعل فيها فعال الابطال وكان اخصامهُ في ايام عزهِ اناسٌ من المسيحيين فحاربهم كما يحارب الرجل الرجال ولما خانهُ الدهر وضاعت مملكتهُ من يدهِ آثر الانزواء في دمشق ليقضي بقيّة عمرهِ الشريف في ما يرضي الله وكان يكرهُ قتل الضعفاء بالدسيسة والغدر وينهي عما يحرمهُ دين المسلمين فظهر من بين تلك الجموع المنحطة مثل لؤلؤة في وسط حجارة صماء سوداء وعلت نفسهُ علوّاً كبيراً عن دسائس الاتراك ومكايد المفسدين وفعال المتوحشين. هو السيد السند والفرد الامجد والبطل الاوحد الامير الخطير والمليك الشهير عبد القادر الحسني الجزائري صاحب بلاد الجزائر طيب الله ذكرهُ

ورحمة الف رحمة ورحمة واكثر الله من امثاله بين الآدميين . هٰذَا هو الرجل العظيم الذي اشتهر بالمروءة والنخوة بين جماعة من المفسدين والجبناء والساقطين واللوماء والغادرين

وكان هٰذَا الامير العظيم قد رأى امارات الشر ونيات السوء بادية عَلَى الوجوه ولحظ من تقاعد الحكام عن ردع الاشقياء ان لهم ضلعًا في هذه الامور او انهم هم الذين كانوا يثيرون الخواطر بقصد ان يقدم الناس عليها فاجتمع يومًا بوجوه المسلمين في حضرة احمد باشا الوالي وبعد المداولة الطويلة اقنعهم ان مثل هٰذَا الغدر بفئة ضعيفة لاتبلغ عشرعدد الساكنين في دمشق (هٰذَا غير الجنود وغير ان النصارى كانوا لا يعرفون امور القتال) يعد جبنًا ونذالةً وعارًا عَلَى المسيء وان الايقاع بآل الذمة ما داموا في طاعة الحكومة الاسلاميَّة منافٍ للشرع الشريف ولا يجوز في دين من الاديان . فلم يرَ الوالي بدًا من التسليم برأيهِ واتفق معهُ عَلَى ان يعمل عَلَى تهدئة الخواطر والذود عن المسلمين حتى ان الامير عبد القادر برَّد الله ثراهُ لما علم بذهاب الالاي الذي ذكرناهُ الى حارة النصارى قبيل المجزرة اطمأنَّ بالهُ وظنَّ انهُ قام بالواجب عليهِ ونجح في فعلهِ الشريف . ولكن الحاكم التركي ومن معهُ لم يفكروا في شرف ولا في شرع غير الرغبة في القتل وحب السلب والنهب فخانوا العهود واتوا ما اتوا مما مرَّ ذكرهُ ولما شعر بذلك الامير بعث رجالهُ في الليل في كل ناحية من انحاء دمشق فجعلوا يدورون في جوانبها ويفتشون عَلَى النصارى فيقودونهم إِلَى سراي الامير اينما وجدوهم ويردون عنهم جموع الهائجين . ومضى

الليل كلهُ والنهار التالي والامير عبد القادر يجمع هؤلاء المساكين في بيتهِ وهو يطعمهم ويسقيهم من مالهِ ويواسيهم ويلطف احزانهم ويعدهم بتخفيف الكرب ويهدئ روعهم وما سمع الناس بأشرف من هذا السيد العظيم . وكان هو يخرج بنفسهِ في احيان كثيرة فيمرُّ في الشوارع التي يكثر القتل فيها ويرد القاتل عن فريستهِ بيدهِ الشريفة ويقصد الحوانيت والكنائس ومنازل القناصل حيث اجتمع الفارون بالمئات والالوف فيخلصهم ويقودهم إلى دارهِ ثم يعود إلى تخليص غيرهم وهو كلما لقي واحداً من رجالهِ الكرام يفعل هذا الفعل شجعهُ ورجاهُ الاجتهاد في ذلك العمل المبرور حتى اجتمع لديهِ حوالي اثني عشر الف نفس فضاق بيتهُ ذرعاً عن مواواتهم ورجا الوالي الوحشي احمد باشا ان يأمر بقبولهم في القلعة بعد ان تعهد لهُ هذا التركي باعظم الايمان انهُ لايمد إلى هؤلاء المساكين يد سوء فوضع هؤلاء المنكودو الحظ في القلعة حيث ظلوا اياماً واسابيع بلا كساء ولا غطاء ولا غذاء وذاقوا كل لون من الوان الشقاء بعد ذلك المصاب وذلك البلاء والله يعلم مقدار حسرة هؤلاء المساكين على الذين فقدوا لهم وكانوا أعزّ الناس لديهم وعلى الذي ضاع منهم وعلى ما صاروا اليهِ من الهوان سيما وان اكثرهم كانوا يخافون ان تكون القلعة شركاً لهم مثل سراي حاصبيا ودير القمر وراشيا وان تفتح الحكومة يوماً ابوابها فتأمر الدروز والاتراك بقتلهم عن آخرهم كما فعلت باخوانهم من قبلهم وقوي فيهم هذا الظن يوماً اذ جاء ضابط تركي من قبل الوالي وامر ان يفصل النساء من عن الرجال لغايةٍ لم يعلمها القوم فأيقنوا بالهلاك وضاعت آمالهم في

السلامة واستعدوا للموت وهم يطلبون الرحمة للذين سبقوهم إلَى دار البقاء والذين امكن لهم السلامة في دار الشقاء ولكن هٰذا لم يحصل لحسن الحظ وكان اكثره بمساعي ذلك الشريف سيد المروءة والبسالة ورب الانسانيّة والشهامة الامير عبد القادر واما مساعي القناصل فلم تجدِ نفعاً لان الحكام كانوا يعدونهم في جملة الاعداء ويريدون الفتك بهم

ولما كثر عدد اللاجئين إلَى بيت الامير عبد القادر رحمهُ الله عداد حسناتهِ — هٰذا غير الذين ارسلوا إلَى القلعة — قصد اشقياء المسلمين من دمشق ان يقتلوهم عن آخرهم ونقموا على هٰذا الامير العظيم كيف انهُ اعان النصارى عليهم فتجمهروا حول دارهِ افواجاً كثيرة وبدأوا يصيحون ويصخبون ويطلبون اليهِ تسلم النصارى في الحال او يحرقون بيتهُ ويهلكونهُ مع الذين حماهم وظنوا ان عبد القادر مثل بعض انذالهم يخاف من التهديد او يؤثر فيهِ الوعيد . فلما سمع هٰذا الضرغام نداءهم امر بجمع رجالهِ في الحال حول قصرهِ وكانوا من نخبة الابطال المجرَّبين حضروا المواقع الهائلة مع سيدهم الباسل وانتصروا على جيوش الغرب الاقصى يوم حاربهم سلطانها في المولايا وكان جيشهُ ستين الفاً وهم الفان وخمسمائة سبعٍ من سباع الحرب . هؤلاء حافظوا على الولاء لمولاهم الطيب الذكر وجاء الذين سلموا من المعارك منهم معهُ إلَى دمشق فلما ناداهم في ذلك اليوم العصيب داروا بهِ في الحال من كل جانب حتى اذا رأى اشقياء دمشق مناظرهم وهيئة الاقدام تلوح عليهم عولوا عَلَى الفرار من وجههم وعند ذلك تقدم الامير رحمهُ الله

وحده الى وسط اولئك الانذال الثائرين وخاطبهم بما معناه ان خسئتم يا كلاب الاسلام ويا انذال الانسانية . أبمثل هذا تكرمون النبي وتطيعون اوامره الكريمة يا اكفر الكافرين . أبمثل هذا اوصاكم رسول الله في آل الذمة الآمنين في ظلكم . او بمثل هذا تقضي عليكم البسالة العربية سحقاً لكم من انذال خائنين تغدرون بالنصارى وتفتكون بهم وهم اقل منكم عدداً واضعف حالاً وتعدون هذا شهامة وهو العار بنفسه فارجعوا في الحال او اني لا اغمد هذا السيف حتى ارويه من دمائكم وآمر رجالي بالهجوم عليكم فلا يبقى منكم جبان يخبر بقصة اخوانه واعلموا انكم سوف تتوبون وتندمون حين يأتيكم الافرنج للدفاع عن هؤلاء النصارى المظلومين . حين يجعلون جوامعكم كنائس ويجعلونكم عبرة للمعتبرين . فارجعوا الآن وانتهوا عن غيكم او اجعل هذه الساعة آخر عمركم واقتص منكم على ما اتيتموه من المنكر والاثم الفظيع

وكان لهذا المولى العظيم مهابة في القلوب ارجفت اولئك الانذال الخائنين فعادوا على اعقابهم خاسرين وسلم ١٢ الف نفس بواسطة هذا الشهم الفريد . وسوف يبقى ذكره ما ذكر الشرف وماذكرت المروءة

واما كرام المسلمين واصحاب العقل فيهم من اهل دمشق الذين دافعوا ما استطاعوا عن المسيحيين فكثيرون لم نعثر بأسمائهم كلهم ولكننا نذكر هنا بعضهم او اشهرهم قياماً بواجب الشكر لاناس خدموا المروءة حين كانت في حاجة كبرى الى بنيها وندون اسمائهم مع اسم سيد اصحاب النخوة والمروءة — الامير عبد القادر — حتى تشهد هذه السطور لهم بالفضل باذن الله في كل اين وآن قدر ما شهدت

لمعشر اللؤماء وحكام الاتراك بضده . فمن هؤلاء الافاضل الشيخ سليم العطار والشيخ مسلم الكزبري والاثنان من وجهاء دمشق وكرامها . ومنهم صالح اغا المهايني . وعمر اغا العابد . والعلامة الشيخ عبد الغني الميداني وكان لهؤلاء الثلاثة الكرام فعال تذكر في قسم الميدان خلصوا فيهِ الوفاً من الذبح وحموهم في منازلهم وكان اشهرهم صالح اغا المذكور وهو الذي رد انذال الدروز عن دمشق ولولا همتهِ لدخلوها وقتلوا كل من فيها من النصارى . ومنهم هاشم اغا متسلم القلعة كان رجلاً عاقلاً حازماً اجتمع بالامير عبد القادر مراراً وعاونهُ على صيانة النفوس البريئة وكان يجاهر بمقاومة الوالي في فعلهِ ويقول انهُ يطلق الرصاص على كل من يقرب القلعة بسوءٍ ما دام النصارى فيها . ومنهم آل حمزة العلماء الاعلام والسادة الكرام اخصهم المرحومين محمود افندي مفتي دمشق سابقاً واخوهُ اسعد افندي الذين ادخلوا إلى بيوتهم جمعاً غفيراً من الهاربين وظلوا اياماً يعولونهم ويدافعون عنهم فحفظ لهم النصارى كل ذكر جميل وهم يكرمونهم الى هذا اليوم اكراماً كبيراً

هذه خلاصة الحكاية الهائلة قصصناها هنا فليتأمل القارئ في هذه الفعال وليقل في نفسهِ ما شاء . وقد كان عدد الذين قتلوا في دمشق وضواحيها ستة آلاف نفسٍ والذين قتلوا في بقيَّة الانحاء يقربون من هذا العدد وكل ذلك حدث في خلال شهر يونيو من سنة ١٨٦٠ السوداء . واما الذين نكبوا واصبحوا بلا مأوى ولا مال ولا ملجأ فيزيدون عن مائة وخمسين الف نفس بشريَّة . وعدد الذين صاروا في جملة الارامل والايتام لا يقل عن عشرين الفاً . وعدد البيوت

ألَّتي أُحرقت بالنار وكانت لابرياء النصارى حوالي سبعة آلاف بيت. وعدد الذين ماتوا في ذلك الشهر من تأثير الرعب والحزن المفرط والقلق الشديد والفقر بعد العزّ لا يقل عن اربعة عشر الفاً . ومقدار الذي سلب ونهب من المال لا يقل عن ثلاثة ملايين جنيه او يزيد

تأمل رعاك الله في هذه الامور واطلب إلى الله ان يخلص الارض من الظالمين

فصل

في ما تمَّ بعد المذابح

﴿ الاضطراب العام ﴾

كانت النتيجة الاولى من هذه المذابح الوحشيَّة والفظائع الهائلة ان المسلمين في جميع انحاء الشام جعلوا يفكرون في قتل جميع النصارى واستئصالهم والاستئثار بالبلاد واملاكها ولكن الظروف منعت من اتمام هٰذَا القصد في اماكن عدة منها حلب حيث جاد المسيحيون بالاموال الوافرة رشوة للاتراك ومن كان يعاونهم عَلَى الشر . ومنها القدس الشريف حيث كثرت الاحزاب بين المسلمين ولم يمكن لهم الاتفاق عَلَى تعيين يوم الشر . ومنها عكا حيث كان الحاكم التركي يوزع السلاح والذخائر عَلَى المسلمين وعيَّن يوم المجزرة فوفدت في ذلك اليوم عَلَى مينا المدينة بارجة هولانديَّة ردَّت هؤُلاء الانذال عن قصدهم ومثل هٰذَا يقال في بقيَّة المدن ٱلَّتِي لم يكثر فيها الذبح والسلب

﴿ حضور النجدات ﴾

ولم تزد مدة هذه الاهوال الهائلة عن شهرٍ هو شهر يونيو

(حزيران) الاسود من سنة المصائب ولولا ان تصل القوات العسكريَّة من اوربا بناء عَلَى طلب القناصل لكان الشرّ اعظم كثيرًا ولكن الله لطف بعبادهِ ووصلت بوارج بعض الدول في آخر شهر يونيو المذكور فزارت اكثر مدن الشام وارهبت الذين كانوا يستعدون للفتك بالنصارى وكان امير البحر الانكليزي مارتن وامير البحر الافرنسي جهن من الابطال واصحاب الحزم القيا المراسي في مينا بيروت ومنعا استمرار المجازر الوحشيَّة بكل واسطة ممكنة ريثما وصل الجيش الافرنسي. وكانت دول اوربا قد تخابرت في امر سوريَّة ومصائبها واقرَّت عَلَى ارسال جيشٍ اوربي لاعادة الامن ومنع المذابح في بلاد الشام ولما كانت فرنسا يومئذٍ في اوج عزها فقد كلفتها اوربا بالنيابة عنها بهذه المهمة على شرط ان تخرج الجنود الافرنسيَّة المظفرة من البلاد حال استتباب الامن ورجوع المياه إلَى مجاريها فتعهدت الدولة الافرنسيَّة بذلك وضربت موعدًا للجلاء وارسلت سبعة آلاف مقاتل تحت قيادة الجنرال بوفور داوتبول وصل مدينة بيروت في السادس عشر من شهر اغسطس (آب) سنة ١٨٦٠

✻ مؤتمر باريز ✻

واما ارسال هذه الجنود الافرنسيَّة والتدابير الاخرى ٱلَّتِي قامت بها اوروبا في ذلك الحين فكان بمقتضى قرارٍ من مؤتمر دولي اجتمع في باريز في اليوم الثالث من شهر اغسطس سنة ١٨٦٠ وكان اعضاؤُهُ معتمدي دولة بريطانيا العظمى وفرانسا والنمسا وبروسيا وروسيا وتركيا.

وقرَّ رأي هٰذَا المؤتمر على قرارين اولها يتعلق بكيفيَّة تداخل دول اوربا في امور الشام وكيفيَّة ارسال الاساطيل والجيوش اليها وقد ذكرنا ذلك . والثاني تعهد من وكلاء الدول مآلهُ ان دولهم لا تحاول اكتساب شيء من الارض ٱلَّتِي تزورها عساكرها او بوارجها وانها لا تعمل على زيادة نفوذها ولا نوال امتياز لمتاجرها ولا اخذ حق من الحقوق ليس لغيرها من دول اوربا في تلك البلاد . واضافوا على هٰذَا التعهد عبارة فحواها انهم يرون ان معاهدة باريز (سنة ١٨٥٦) ٱلَّتِي تقضي بمساواة الطوائف العثمانيَّة والعدل في الاحكام وبقيَّة ما وعد السلطان باجرائهِ لم تتم وهي تلح على الباب العالي باعطاء الاوامر المشددة واتخاذ الطرق الفعالة لتنفيذ هذه التعهدات . وكان في ذيل هذه المعاهدة بند هذه ترجمتهُ

❋ سياسة الدولة التركيَّة ❋

« ان معتمد الباب العالي يذكر عهود الوزراء النائبين عن الدول العظمى الموافقة عَلَى هذه المعاهدة ويتعهد بابلاغها إِلَى بلاط ملكهِ وبالاشارة إِلَى ان الباب العالي قد استعمل قوتهُ في انفاذ الرغبات المسطرة في هذه المعاهدة وانهُ سوف يظل عَلَى استعمال قوتهِ لهذا الغرض »

ولم يسمع الناس بقول هراء اكثر من هٰذَا يقول فيهِ وكلاء الدول العظمى ان الباب العالي اتى ما في طاقتهِ لاجراء العدالة والاصلاح وانهُ يثق باستمرارهِ عَلَى هذه الخطة في حين ان الارض برمتها تعلم اليوم كما كانت تعلم في سنة ١٨٦٠ ان المذابح والاهوال ما تمت الَّا بأمر

الباب العالي وثبت ذلك للدول الافرنجيَّة رسميًّا من تقارير قناصلهم المتواصلة وقد باح نجيب باشا يومًا بهذا السرّ وكان واليًا على سورية من بعد ارجاع السلطة التركيَّة اليها في سنة ١٨٤٠ اذ قال لاحد عمال الدولة الانكليزيَّة ان «الدولة العليَّة لا تقدر على حفظ سيادتها في سوريَّة الَّا اذا ابادت الطوائف النصرانيَّة» وقد مرَّ ذكر الكتاب الذي وقع في يد احد القناصل وكان من احمد باشا والي دمشق إلى السرعسكر في بيروت يقول لهُ فيهِ بصريح العبارة ان لا تتعبوا سركم في اخماد الهياج الحالي والدفاع عن النصارى فان القيام عليهم وقتلهم بأمر الباب العالي . ولو يترك الاتراك على رأيهم لما ابقوا على نصراني ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك ولم يزل بعض مشايخ الدروز احياء يقولون ان الاوامر الرسميَّة صدرت اليهم من دولة الاتراك بالقيام على النصارى وقتلهم او تساعد الحكومة النصارى على قتل الدروز وكان الحكام يوبخونهم على كل تقصير يبدو منهم او على كل رحمة تظهر من بعض رجالهم حتى ان النساء اللاتي لم يمسسهنَّ الدروز بشرٍ لم يخلصنَ من اوباش الاتراك الظالمين ولم يزل الذين شهدوا تلك الاهوال من منذ ٣٥ عامًا ناقمين على الاتراك لا على الدروز . هذا الذي كان ينويهِ الوحشان الظالمان خورشيد باشا والي بيروت واحمد باشا والي دمشق ولولا صعوبة الامر لقتلا كل نصراني في البلاد ولكن الله لم يسمح بكل هذه الاهوال

ومن اغرب حكايات هذه الرواية الهائلة ان الحكومة التركيَّة حاولت منع الخبر عن الذين سلموا من المذابح والاضرار بهم على قدر

طاقتها وارادت ان تخفي كل حقيقة عن العيون من بعد ان علمت ان دول اوروبا سترسل رجالها إلَى بلاد الشام وتحقق الفظائع ألَّتِي ذكرنا بعضها. وكان من امر خورشيد باشا انهُ جمع الذين سلموا من النصارى او الذين امكن لهُ استدعائهم في شهر يوليو من سنة ١٨٦٠ او بعد المذابح بأيام قليلة وجمع بهم بعض مشايخ الدروز و تظاهر بحب الرعيَّة والميل إلَى السلام فاضطرهم إلَى المصالحة على هٰذَا الشرط الغريب وهو « ان يمحي من الاذهان ذكر الذي فات من اولهِ إلَى آخرهِ وينسى الماضي بكل حوادثهِ. وانهُ قد تمَّ الاتفاق وتقرَّر بعد الاتكال على الله تعالى ان يعقد الصلح بين الطائفتين (النصارى والدروز) على الشرط الذي مرَّ ذكرهُ وعلى شرط ان كل الذي حدث في سوريَّة ولبنان من اول الامر إلَى يوم الصلح لا يوجب حقًّا ولا يجوز ان تقام بسببهِ دعوى ولا ان تبدى مطالبة من اي نوع كانت لا في الحال ولا في الاستقبال ويسري هٰذَا الاتفاق على الطرفين » فكأَنَّ القصد الوحيد من هٰذَا الصلح كان ان ينسى النصارى الذي حلَّ بهم ويعدلوا عن المطالبة بحقوقهم وان الذي حرق بيتهُ لا يشتكي مصابهُ والذي سرق مالهُ ووقعت اليد على املاكهِ لا يراجع السارق في امرها ولا يطلب استرجاعها والذي مات احبابهُ واقاربهُ واصبح وحيدًا بلا عضد ولا سند لا يحق لهُ المطالبة بدم اهلهِ. هٰذَا هو العدل التركي فانعم بهِ من عدلٍ واكرم بهِ من انصاف. ولولا ان الدول النصرانيَّة تداخلت تداخلاً قانونيًّا وتضطر الدولة التركيَّة إلَى التعويض عما فات واعطاء رعاياها بدل بعض الشيء مما فقد من قبضتهم لانتهى الامر بسكوت النصارى عن كل ما حلَّ بهم والسلام

﴿ قرار الامم الاوربيَّة ﴾

ولما انتهى خبر هذه الاحوال ٱلَّتي تشيّب الاطفال إِلَى الديار الاوروبيَّة هاجت الامم المتمدنة وماجت ودارت سوق الاضطراب وراجت وضجت الناس من هول هذه الفظائع ٱلَّتي ترتعد لها الفرائص وتقشعرُّ منها الابدان فقامت على حكوماتها تطلب اليها التعجيل في اسعاف الذين اوقعهم سوء حظهم في مخالب الغادرين والظالمين وكانت الدولة الافرنسيَّة في مقدمة الدول ٱلَّتي تطلب التعجيل في مقاصة المفسدين واعادة الامن إِلَى ربوع الشام البهيَّة ٱلَّتي عمت فيها الاهوال وانتابتها البليَّة ولسوء الحظ كانت وزارة انكلترا تخشى عاقبة ما تريدهُ فرانسا من ارسال جيش افرنسي إِلَى الشام فلم تسلم بالامر الَّا بعد ان اضطرها الرأي العام إِلَى الاذعان والعمل على خلاص الذين سلموا من مسيحيي الشام بكل واسطةٍ ممكنة ولما تمَّ الاتفاق على ذلك ارسلت الهيئة الآتية لمقاصة الجانين والتعويض على المصابين واعادة الامن والراحة إِلَى بلاد السوريين وهذه هي الهيئة المذكورة : —

﴿ ١ ﴾ فؤَاد باشا كان الصدر الاعظم وانتدب بمهمة فوق العادة واعطي قوةً مطلقةً ليفعل في بلاد الشام ما اراد باسم السلطان عبد المجيد على شرط ان ينهي المصاب بالتي هي احسن. وفد على بيروت في السابع عشر من شهر يوليو سنة ١٨٦٠ وكان القصد من تعجيلهِ في السفر العمل على اخفاء الحقائق وعرقلة المساعي الحميدة مما تراهُ في ما يجيء

﴿ ٢ ﴾ قوَّة عسكريَّة افرنسيَّة من ستة آلاف مقاتل

برأسها الجنرال بوفور داوتبول وصلت بيروت في السادس عشر من شهر اغسطس اي بعد وصول فؤاد باشا بشهر وكان القصد منها عمل الذي لم يمكن الاركان إلى عساكر الاتراك بعمله من المحافظة على الارواح ومنع الاعتداء والاقتصاص من المجرمين

﴿ ٣ ﴾ مؤتمر دولي من وكلاء الدول العظمى صاحبة الشأن والنفوذ وهي بريطانيا العظمى وفرانسا وبروسيا وروسيا والنمسا عقد اجتماعهُ الاول في مدينة بيروت في الخامس من شهر اكتوبر سنة ١٨٦٠ وكان القصد منهُ النظر في الذي حدث والذي يجب حدوثهُ وتقرير الامور الواجب عملها في الحال والاستقبال وسوف نتتبع اعمال هٰذَا المؤتمر بالتفصيل الذي يسمح بهِ المقام ونبين كيفيَّة سعيهِ وما نتج عنهُ

هذه هي طرق المعالجة الَّتي ارتأتها دول اوروبا وكان المظنون انها تعود بالفائدة المطلوبة . وكان القاتل الغادر الخائن الوحش الضاري والنذل الجبان خورشيد باشا الذي تمت اهوال لبنان وبيروت والسواحل بأمرهِ وعلى يدهِ يضحك مسروراً من نتيجة دسائسهِ واصحاب العقل والانصاف من المسلمين والنصارى يظنون ان عزلهُ واعدامهُ يكونان اولى اعمال فؤاد باشا لان هٰذَا الوزير جاء مفوضاً تفويضاً مطلقاً في كل امرٍ وامر باعدام كثيرين غير هٰذَا الطاغية ولكن خورشيد باشا ظلَّ في وظيفتهِ وكان خورشيد باشا جباراً عنياً . وشعر الاميرال مارتن قائد الاسطول الانكليزي الذي كان راسياً في بيروت يومئذٍ بازاء الاسطول الافرنسي ان بقاء هٰذَا الجاني الخائن في وظيفتهِ وفي

قيد الحياة لايخلو من قصد سيءٍ و يعود بأوخم العواقب فجعل يفكر في طريقةٍ لعزلهِ وصدف يومئذٍ ان هٰذا الوحش ارسل من قبل فؤاد باشا إِلَى اللاذقيَّة في مهمة فظن ٌّ امير البحر مارتن انهُ لن يعود منها الاَّ محمولاً على آلةٍ حدباء كانت أولى بهِ من كل بشري مات من يوم قامت لبني آدم قائمة ولكن الظن خاب وعاد الرجل فلم يعد الاميرال يطيق على هٰذا الخداع المنكر صبرًا وكتب في الحال إِلَى فؤاد باشا كتابًا رسميًا نرى ان ننقلهُ هنا مترجمًا ترجمةً حرفيَّةً لان كلامهُ يشفي العليل ويروي الغليل ويدل على شيءٍ من الحزم والشهامة تفرح القلب في وسط هذه المصائب السوداء الَّتِي عددناها وهٰذا نص الكتاب

« لقد اصاب العالم المتمدن ضررٌ عظيمٌ من جرَّاء الفعال الوحشيَّة الَّتِي وقعت عَلَى سكان سوريَّة من المسيحيين وكان عمال الدولة التركيَّة يشاركون عمدًا في هذه الفظائع بسماحهم للعساكر وللمسلمين من الاهالي ان يساعدوا الدروز فيها وان يشاركوهم بعد انتصارهم عَلَى المسيحيين في قتل الرجال وفي ارتكاب افظع المنكرات مع النساء والبنات والاطفال. وليس يمكن للعالم المسيحي ان يطيق صبرًا عَلَى هذه الفظائع ولا يجوز لهُ ان يسكت عنها ويتأخر عن مجازاة الذين ارتكبوها ومن الواضح ان اوربا لا تكتفي بأمرٍ الاَّ اذا كان يمنع تكرار مثل هذه الفظائع منعًا تامًا

« ثم ان الدولة التركيَّة تفقد كل ما لها من الاعتبار اذا هي لم تفِ العدالة حقها من نفسها وبدون ان تجبر عَلَى مثل هٰذا العدل والارجح ان السلطة تنزع من يدها اذا ظهر منها تقصيرٌ في هٰذا الامر

الواجب . فاذا كان من نيتها اجتناب مداخلة الدول وجب عليها ان تجاهر في الحال مع غيرها من الحكومات المتمدنة بنفورها من هذه الفعال المعيبة ٱلَّتِي حصلت في سوريَّة وان تقرن القول بالعمل فتنصف الذين يقاسون الاهوال انصافًا تامًّا وتعاقب الموظفين الذين اشتركوا في الفظائع عقابًا ظاهرًا للعيان وعَلَى قدر جريمتهم . واما مجازاة بعض الاصاغر فأمرٌ يوجب الهزء والازدراء ولا ينتج عنهُ الامتناع عن العود إِلَى مثل هذه الجرائم الفظيعة في المستقبل

« وعلى ذلك فمن الواجب ان يعاقب في الحال اعظم الموظفين الذين اسقطوا منزلة وظائفهم السامية بالاشتراك في هذه الفظائع او العلم بها والسكوت عن البلايا ٱلَّتِي انتابت المسيحيين من سكان سوريَّة . وبلغني ان خورشيد باشا سيظل عَلَى السيادة في ولايتهِ فعسى ان لا يكون في النيَّة ابقاؤُهُ على السيادة ٱلَّتِي جلب عليها هٰذَا العار بفعلهِ ولما كان النظر في اعمال القسوة الهائلة ٱلَّتِي يظن انهُ اشترك فيها عن نفسٍ طيبة مما يوجب الاهتمام وكنت انا مسؤُولاً مع غيري الآن عن المحافظة على ارواح المسيحيين في هذه البلاد اعترضت هٰذَا اعتراضًا على بقاء خورشيد باشا رئيسًا في منصب تتوقف عليهِ سلامة الالوف ٱلَّتِي اظهر لها سعادتهُ كل هٰذَا الكره وهٰذَا التراخي عن وقايتها »

الامضا مارتن

هٰذَا هو نص الكتاب الذي ارسلهُ امير البحر الباسل الى الوزير التركي المحاول . ولكن عباراتهِ القويَّة لم تبقِ لفؤَاد باشا مجالاً في الروغ فبادر في حال وصولهِ إِلَى عزل خورشيد باشا ووضعهِ في السجن

وفعل مثل ذلك في كاتم اسرارهِ واثنين آخرين من اعوانهِ الاتراك وكان لهذا الصنيع تاثيرٌ حميدٌ للغاية نتج عنهُ فتور الهمم الامَّارة بالسوء وقعود الوحوش عن السعي وراء قتل الباقين من النصارى

وذهب فؤَاد باشا من بيروت إِلَى دمشق فوصلها في التاسع والعشرين من شهر يوليو سنة ١٨٦٠ وقوبل فيها كما يقابل السلطان وهناك شرع في التحقيق ومجازاة بعض الوحوش الخائنين في الحال فقتل الوالي احمد باشا بلا امهال . ويرجح العارفون ان سبب السرعة في قتلهِ هو ان الرجل عمل بأَمر فؤَاد باشا نفسهِ ورغبة السلطان بعينهِ في قتل الابرياء فعاجلهُ فؤَاد باشا برصاصةٍ قتلتهُ قبل ان يبوح بالامر ويفشي هٰذَا السرّ . وكان الشاهد عليهِ مدة التحقيق بالاشتراك مع الجانين وتحريضهم على القتل اناسٌ من المسلمين وفي مقدمتهم موظف تركي اسمهُ صالح بك زكي وهو الذي حاول ان يخلص النصارى من الذبح وكان قائدًا لنفر من الجند فجاءهُ الامر بما أَثناهُ عن عزمهِ . واعدم في دمشق ايضًا ذلك الوحش الضاري لا رحم الله لهُ ذكرًا نريد بهِ النذل الخائن عثمان بك الذي كان في حاصبيا يوم مذبحتها . واعدم معهُ ايضًا ثلثة من ضباطهِ ومائة وسبعة عشر جنديًّا من وحوش الاتراك الذين ثبت اشتراكهم في المذابح وكان اكثرهم من الباشبزق وأُعدم ستة وخمسون رجلاً من مسلمي دمشق ونفي حوالي اربعمائة منهم إِلَى الولايات القاصية . وفرضت الحكومة التركيَّة على المسلمين في دمشق مالاً مقدارهُ ٢٠٠٠٠٠ ليرا وهٰذَا لا يبلغ عشر الذي نهبوهُ من النصارى ولكن هٰذَا القليل لم يجمع ايضًا والذي جمع منهُ لم يصل

إلى اصحابهِ فقد زادت خسائر النصارى في دمشق وحدها عن مليوني ليرا في ذلك الشهر الاسود غير قيمة الستة آلاف نفس ٱلتي ذهبت ضحيَّة التعصب والفساد

وعاد فؤاد باشا إلى بيروت في ١٢ سبتمبر سنة ١٨٦٠ وارسل يطلب بعض مشايخ الدروز ويتهددهم بالعقاب اذا هم امتنعوا عن الحضور فأطاع هٰذا الامر ١٤ منهم ورفضهُ ٣٣ واوقع فؤاد باشا العقاب على الجميع بلا محاكمة فعزلهم من مناصبهم وجردهم من كل شرف ورتبة ثم شكلت محكمة مخصوصة لمحاكمة بعض المجرمين وحوكم فيها طاهر باشا وخورشيد باشا وثلاثة غيرهما من الاتراك وسبعة من مشايخ الدروز فحكمت على الدروز منهم بالاعدام وعلى الاتراك بالسجن المؤبد وحكم مثل هٰذا على عبد السلام بك وهو الوحش التركي الذي كان قائد العساكر في دير القمر يوم جرت مذبحتها ومع ان القتل ثبت بلا عناء على الجميع فقد عفت مكارم السلطان التركي عن الدروز وابدلت حكم الاعدام بالسجن واغرب من هٰذا ان هذه الاحكام ظلت حبرًا على ورق ولم ينفذ واحد منها فليذكر هٰذا الذين يصدقون ان في دولة الاتراك خيرًا

ثم تظاهر فؤاد باشا بحب مجازاة الدروز عن بكرة ابيهم فجمع اعيان النصارى واساقفتهم وقال لهم ان اهل الارض طرًّا عرفوا بفظائع الدروز والمذابح ٱلتي حصلت وانهُ سيقتل كل مشترك في تلك المذابح وطلب اليهم ان يساعدوهُ على معرفة المجرمين فأجابهُ الاساقفة ان وظائفهم تمنعهم من التداخل في مسائل القتل وسفك الدماء ولكنهم

قبلوا بتعيين نوّاب من الشعب عنهم يفيدون دولتهُ الفائدة المطلوبة فرضي فوّاد باشا بذلك ولما اجتمع هؤلاء النوّاب في حضرتهِ اظهر لهم تأثرًا زائدًا واسفًا كثيرًا عَلَى الذي اصابهم ووعدهم مرارًا وتكرارًا بأخذ الثار والاقتصاص من المجرمين الفجار ثم رجاهم ان يكتبوا لهُ كشفًا باسماء الدروز الذين ظهر من فعالهم التطرّف في القسوة الوحشيَّة وثبت انهم قتلوا الابرياء بأيديهم ثم اوضح لهم ان الامر سرّي وشدد عليهم بحفظهِ في صدورهم حتى انهُ جاء بالكتاب المقدس واضطرّ هؤلاء النوّاب ان يقسموا عليهِ بحضور اساقفتهم انهم يبقون السرّ مكتومًا ولا يعلمون احدًا بالذي دار بينهم وبينهُ ففعلوا ذلك

وظلّ هؤلاء النوّاب شهرًا كاملاً يفتكرون ويبحثون حتى وضعوا تقريرًا مسهبًا وضمنوهُ كشفًا بأسماء اربعة آلاف وستمائة درزيٍ وثلثمائة وستين مسلمًا ومتواليًا من الذين اشتركوا في المذابح وقدموهُ إلَى فوّاد باشا بناء عَلَى طلبهِ ولم يمضِ على تقديمهِ زمانٌ طويل حتى شاع بين الناس ان النصارى واساقفتهم قدموا طلبًا باعدام ٤٦٠٠ درزي والحوا على فوّاد باشا بقتلهم . ومن المؤكد ان النوّاب الذين قدموا الكشف لم يبوحوا بأمرهِ بسبب القسم أَلَّتِي ذكرناها وبعلة انهم كانوا يخافون من الدروز اذا هم اعلنوا ذلك ثم انهم لم يطلبوا شنقًا ولا اعدامًا في تقريرهم ولكنهم قدَّموا اسماء المجرمين عَلَى حسب طلب الوزير التركي فوصول الخبر بهذا الكشف إلَى الناس لم يكن الاَّ من فوّاد باشا نفسهُ وقصد بذلك غايةً فاز بتحقيقها ذلك انهُ لما بلغ خبر هٰذَا الكشف بلاد اوربا نفر الناس من النصارى واساقفتهم ولاموهم

كل اللوم عَلَى تطرفهم في حب الانتقام وانقلب الرأي عليهم في بلدان كثيرة و بنوعٍ اخص في بلاد الانكليز حتى ان بعض فئات الافرنج صارت تدافع عن الدروز وتتهم النصارى بالدناءة والرداءة ودليلها عَلَى ذلك طلب الاساقفة والرهبان ان يعدم معظم رجال الدروز كما تقدم. وهٰذَا هو الذي طلبهُ فؤاد باشا من سياستهِ وقد اتى الاتراك مثل هٰذَا الصنيع بعد مذابح سنة ١٨٤٥ كما تقدم في هٰذَا الكتاب . ولما علم الاساقفة واعيان النصارى بما كان لهذا التقرير من التأثير في اوربا احتجوا واعترضوا واوضحوا للعالم أجمع انهم ما كتبوا الكشف الّا بناء على طلب فؤاد باشا وذكروا فيهِ اسماء الذين افرطوا في التوحش حسب تعليماتهِ وما ذكروا فيهِ غير الذين حرّضوا على المذابح والذين رأسوا عصابات القاتلين والذين قتلوا الابرياء بيدهم ومعلوم ان هٰذَا يشمل كل وجيهٍ او مسموع الكلمة في طائفة الدروز. وعاد فؤاد باشا فاجتمع بهؤلاء النوّاب ووبخهم على افشاء السرّ وهم لم يأتوا ذلك ورجاهم ان يحوروا هٰذَا الكشف ويقللوا الاسماء ففعلوا باشارتهِ وكتبوا ١٢٠٠ اسم في كشفٍ جديد وظنّ الناس ان هؤلاء سوف يعدمون لامحالة وقوي هٰذَا الظن فيهم لما امر فؤاد باشا بضبط نحو الف وخمسمائة درزي من كل القرى ولكن الحكومة افرجت عن ثمانمائة شقي من هؤلاء القتلة في الحال وكان الذين اخلت سبيلهم اشهر الذين اشتهروا في ارتكاب الفظائع فبدأ النصارى يرون ان تظاهر فؤاد باشا بحبهم وحب الانتقام لهم من اعدائهم مثل بقيّة ظواهر السياسة التركيّة حتى انهُ لما دعاهم هٰذَا الوزير الى الذهاب معهُ الى المختارة لمساعدتهِ على معاقبة

القاتلين امتنعوا عن تلبية الطلب فأرسل اليهم فؤاد باشا واحداً يفهمهم ان القصد من ذهابهِ الى المختارة وهي عاصمة الدروز في لبنان هو ان يعقد فيها مجلساً مخصوصاً يحاكم فيهِ القاتلين ويأمر باعدامهم وكان يريد منهم ان يقفوا في المجلس بمثابة الشهود والمحلفين حتى يساعدوهُ على معرفة المجرمين فلم يذهب من النصارى غير ثمانية اطاعوا الامر بعد الالحاح الشديد ورأى الباقون مما مرَّ ان القصد الاستهزاء بالعدل وتضليل العقول لغايةٍ لم تخفَ عليهم . ولما وصل الباشا ومَنْ معهُ الى المختارة طلب الى الثمانية الذين ذكرناهم ان يعملوا لهُ كشفاً بثلثمائة شقي من اشقياء الدروز حتى يقتص منهم في الحال فقالوا لهُ انهم لا يعرفون بعض الانحاء ألَّتِي حصلت المذابح فيها ولا يقدرون على تخصيص هٰذَا العدد القليل من بين عشرة آلاف قاتل او اكثر الاَّ اذا عادوا الى بيروت وغيرها وسألوا العارفين فيها عما يريد . قال اذاً ابعثوا وراء من تريدون من الناس الى هنا في الحال وسلوهم عما تريدون لان وقتي قصير لا يسمح لي بمثل هٰذَا التأخير قالوا ان هٰذَا لا يجدي نفعاً لان الناس لا يأتون كلهم سيما وان الاحزان والاهوال تمنع من ركوبهم هٰذَا المركب الخشن الآن فأجابهم بما معناهُ انهم قوم لا يعقلون وانهم يؤخرون سير العدالة بمثل هذه الامور وحذرهم من عاقبة الاهمال في تلبية طلبهِ (وهو يعلم ان التلبية غير ممكنة لهم) وقال انهُ من بعد ذلك اليوم لا يقبل شكوى ولا يعاقب مجرماً وعلى ذلك عاد هؤلاء النوَّاب وقد رأوا ان الحكومة التركيَّة لاتنوي مد يد السوء الى الدروز

وفي الاسبوع الذي عقب هذه الحوادث أُخلي سبيل خمسمئة

درزي من الذين كانوا في سجون الحكومة فصار مجموع الذين افرج عنهم من الالف والخمسمئة حوالي الف وثلاثمائة شقي ونفي نحو مئتين إلَى طرابلس الغرب حيث صدرت التعليمات بالاحسان اليهم والتلطف معهم وعاد هؤلاء المتغيبين الى قراهم على نفقة الحكومة حالما غفلت عين اوربا عن مراقبة الاتراك وحكومتهم

ولطالما عثر بعض النصارى بالذين قتلوا اقاربهم من الدروز في خلال تلك الاعمال والمخابرات واخطروا الحكومة بوجودهِ فلم تقبض عليهِ حتى ان بعض النصارى كانوا يقبضون عَلَى امثال هؤلاء و يأتون بهم إلَى دار الحكومة فتصرف المشكل بالافراج عن الدرزي وعَلَى ذلك انقضى الامر ولم يقتل من الذين فتكوا بالالوف غير سبعة او ثمانية غير معدودين واما بقيَّة القاتلين فدافعت عنهم الحكومة التركيَّة ما استطاعت وخلصتهم من العقاب بالاساليب ألَّتِي ذكرناها. وكانت المحكمة ألَّتِي شكلت في المختارة لمحاكمة القاتلين اكبر مثال عَلَى الظلم واوضح دليل عَلَى ان الاتراك كانوا يهزأُون بالعدالة في كل اجراءاتها فقد تقدمت من بين الناس امرأَةٌ واتهمت درزيًّا انهُ قتل زوجها واتت بالادلة والشهود عَلَى ذلك وكان القاتل يتحدث بين اخوانهِ في قتل ذلك الرجل و يفرح بالذي اتاهُ فلما وقفت المرأَة امام المحكمة بدأ اعضاؤُها العادلون يسأَلونها السؤَالات الباردة من مثل قولهم كيف قتل زوجكِ. قالت ضربهُ فلان برصاصة من بندقيتهِ قالوا وهل كانت البندقيَّة ذات طلق واحد او متعددة الطلقات . وفي اي ناحية من جسمهِ اصابتهُ الرصاصة أفي صدرهِ أم في رجلهِ. وهل ظلت الرصاصة

في جسمهِ أو خرجت منهُ . وهل وقع ساعة موتهِ عَلَى ظهرهِ او عَلَى صدرهِ . فضاقت صدور النصارى من هذه الامور ولم يبقَ عندهم ريبٌ في ان الحكومة التركيَّة تنوي خلاص الذين قتلوا اقاربهم وعدلوا عن الالتجاء إلَى رحمتها وقطعوا كل املٍ في عدالتها

الاحتلال الفرنساوي

ووصلت الجنود الافرنسيَّة الباسلة مدينة بيروت في اليوم السادس عشر من شهر اغسطس سنة ١٨٦٠ وكان افراد هٰذا الجيش الصغير — وعددهُ ستة آلاف رجلٍ — ينشدون الاناشيد الحماسيَّة بلغتهم الافرنسيَّة ويتوعدون الدروز بالجزاء العادل ويسرُّون لانهم جاؤُوا للاقتصاص من الذين ذبحوا الابرياء وفتكوا بالمساكين فكان لوصولهم رنة عظيمة وتأثيرٌ كبير وفرحت القلوب فرحًا لا يوصف في يوم قدومهم المبارك وطارت الاخبار الى سائر الانحاء ان هٰذا الجيش المحتل قد جاء معهُ بالآلات الجازرة (الجلوتين) لقطع رقاب القاتلين وعسكروا عقيب وصولهم في اطراف مدينة بيروت حيث ظلوا حوالي شهرٍ في « الحرش » المعروف

ثم اتفق الجنرال بوفور مع فؤَاد باشا عَلَى ان يتقدم الجيش الافرنسي والجيش التركي لمقاصة الدروز فذهب فؤَاد باشا ببعض الجنود التركيَّة إلَى آخر لبنان من جهة الشرق حتى يقطع عَلَى الدروز طرق الفرار من وجه العدالة إلَى حوران وتقدم الجيش الافرنسي من جهة البحر فصار الدروز بين جيشين وظنَّ البعض ان خلاصهم

ـتحيل . وكان النصارى يتبعون العساكر الافرنسيَّة افواجاً ويدعون لها بالنصر حتى ان بعضهم حملتهم الغيرة عَلَى قتل بعض الدروز في مدة وجود هٰذَا الجيش عَلَى مقربةٍ منهم وكان الجنرال بوفور يقاص كل نصراني وكل عسكري من رجالهِ يمدُّ إِلَى الدروز يد الاذى . والتقى جيش الدولة الافرنسيَّة بجيش الاتراك في بلدة جب جنين في البقاع بعد ايام من خروج الفرنسويين من بيروت وكان الجنرال بوفور يظن ان الدروز صاروا في قبضة يدهِ وان القاتلين منهم سوف يقتلون في الحال فجاءَ اليهِ فؤاد باشا واعلمهُ ان الجانين من الدروز تمكنوا من الفرار إِلَى حوران مع كل ما اظهر وجيشهُ من الاهتمام لحصرهم في مواضعهم واظهر الاسف من ذلك ففطن الجنرال الى ان في الامر حيلة واظهر غيظهُ لفؤاد باشا بالكلام الثقيل على هذه الخيانة ورأى ان القصد من الحملة لم يتمَّ وان دسائس الاتراك جعلت قدومهُ بلا فائدة فاظهر حدة كبيرة وكان على وشك ان يأمر رجالهُ بالغارة على قرى الدروز ولكنهُ امتنع عن ذلك خوف ان يؤخذ البريء بجريرة الاثيم ولما كانت الاوامر التي أُعطيت اليهِ من دولتهِ تقضي عليهِ بالانقياد الى فؤاد باشا اضطرَّ الى سماع قولهِ وكان فؤاد يريد منهُ الرجوع الى بيروت ففعل ذلك بعد ان عسكر رجالهُ زماناً في بعض القرى اللبنانيَّة لا عمل لهم غير مساعدة النصارى عَلَى بناء البيوت التي حرقت مدة الحرب والتطلع الى غير هذا وقد شهد الناس أجمع يومئذٍ بالتأدب لهذه الجنود الباسلة التي كانت تود لو تسمح لها الظروف باظهار ما عندها من البسالة في القتال ولكن دسائس الاتراك وحيلهم غلبت

تدابير الجنرال بوفور فعاد بجيشهِ الى بيروت كانما هو عائد من القتال مكسورًا ولوائح الاسف من ضياع المقصود بادية علي الوجوه

وكانت دولة الاتراك ودولة الانكليز تود أن لا يطول هٰذا الاحتلال الافرنسي لبلاد الشام فاتتا كل الطرق اللازمة لتجيل يوم الجلاء وقيل ان الجنرال بوفور رُشي بمال طائل حتى يساعد الاتراك عَلَى اخراج عساكرهِ من بلادهم وكان مدة وجودهِ في بيروت بعد عودهِ من لبنان قاعدًا ورجالهُ مدة سبعة اشهر بلا عمل ولا امر يهم تنفيذهُ ولطالما اشتكى اليهِ النصارى مدة وجودهِ من ظلم الاتراك في الامور الكثيرة فلم يقدر عَلَى التداخل حتى ان بعض رعاع المسلمين كانوا يعتدون عَلَى جنودهِ الباسلة و يضربون كل من يقع في ايديهم ضربًا مبرحًا فلم يقدر عَلَى ردعهم واخيرًا في ٥ يونيو من سنة ١٨٦١ اي بعد المذابح بعام واحد وكان ذلك اليوم اشدَّ سوادًا من الليل في عيون النصارى والعساكر الافرنسيَّة الباسلة اذ صدر اليها الامر بالجلاء عن بلاد الشام فعملت بالامر والرجال يتحسرون عَلَى رجوعهم بعد القعود الطويل علي غير فائدة وعلى انهم لم ينفذوا احكام العدالة في مجرم واحدٍ من مجرمي الدروز وفرح المسلمون والدروز بهذا الجلاء فرحًا لا يوصف . وكثرت من بعد ذلك الاشاعة بان الجنرال بوفور اعطي ٧٥ الف ليرا عثمانيَّة حتى يسهل امر هٰذا الجلاء وهكذا انتهى احتلال الجيش الافرنسي لبلاد الشام ولم يفد في شيء وفلت الدروز من الجزاء العادل بمساعدة الاتراك الذين حرضوهم على تلك الفعال

فصل

مؤتمر بيروت من ٥ اكتوبر سنة ١٨٦٠

وكانت الدولة الافرنسيَّة ترى من اول الامر ان يعقد في سوريَّة مؤتمر دولي للنظر في الاحوال التي ذكرناها وتحقيقها وتقديم الآراء اللازمة عما يجب فعلهُ من بعدها لاجتناب حدوثها في المستقبل ووافقتها الدولة الانكليزيَّة على هٰذا الرأي ثم عرض الامر على بقيَّة الدول وعلى دولة الاتراك فقبلنَ بهِ وتعين اعضاؤهُ كما يأتي :

وكيل تركيا « ورئيس المؤتمر »	فؤاد باشا
« انكلترا	اللورد دوفرن
« فرنسا	الموسيو بكلار
« روسيا	« ڤيكوف
« النمسا	« وكبكر
« بروسيا	« رهفوس

وكان امهر هؤلاء الوكلاء الكرام فؤاد باشا التركي لانهُ كان يلعب ببقيَّة الرجال كما يلعب الهرّ بالفار وسوف تعلم ذلك مما يجيء . واشتهر اللورد دوفرن منهم بالذكاء واستقامة الرأي وهو الى هٰذا اليوم من اعظم اكابر الانكليز ينوب عن بلادهِ في عاصمة الجمهوريَّة الافرنسيَّة واجتمع هٰذا المؤتمر في بيروت لاول وهلة في ٥ اكتوبر سنة ١٨٦٠

فقرَّر ان ينظر في اسباب المذابح الاخيرة والمسؤول عنها وان يرتإي مجازاة الذين اشتركوا فيها والتعويض عما خسرهُ النصارى بسببها وتعيين مقدار التعويض وتقرير نظام لجبل لبنان يحكم بموجبهِ في مستقبل الايام حتى لا تعود المذابح التي تقدم ذكرها . وجلس المؤتمر ٢٥ جلسة في مدة خمسة اشهر وفضَّ في ٥ مارس سنة ١٨٦١

واهتمَّ هٰذَا المؤتمر في اول الامر بالتعويض الذي كان النصارى في حاجةٍ كبرى اليهِ فقد يعسر على القلم بيان حال اولئك المساكين وما صاروا اليهِ من الذل الهائل والفقر الكثير وكانت الارامل يتجمعنَ من سائر القرى والاطفال الذين بين ايديهنَّ يصرخون من ألم الجوع والعري والرجال يتحسرون و يتنهدون على النسيء لحق بهم من الذل والذي اصابهم من فقد الاحبة والاموال وظهرت على وجوه الكثيرين منهم هيئة الموت والالم الذي لا يطاق . كل هٰذَا والمسلمون يزيدون عن الدروز غلظةً في الشماتة والتعيير والفرح بمصائب هؤلاء المساكين في حين ان الاموال الوافرة كانت ترد على المصابين من جماعة المحسنين في اوروبا واميركا وتشكلت اللجان الكثيرة للصدقات فاعطي المعوزون الغذاء والكساء والغطاء و بعض المال واشترك في هٰذَا الاحسان اكثر الامم الاوربيَّة وكان في مقدمتها الامة الانكليزيَّة والامة الافرنسيَّة والامة الاميركيَّة . وجاء بعض الاحسان من السلطان ايضاً فوزع مثل غيرهِ على المعوزين ودفع اللورد دوفرن وكيل انكلترا يومئذ في مؤتمر بيروت خمسة آلاف جنيه من مالهِ الخاص لمساعدة هؤلاء الحزانى واتى المؤتمر كل ما يقدر عليهِ للاشتراك مع الذين حزنوا لمصاب

هؤلاء المنكودي الحظ فقدّر ان مجموع خسائر النصارى لا يقل عن ثلاثة ملايين جنيه وانتقل الى مدينة دمشق بهيئتهِ الكاملة لينظر في امر تلك المدينة وبعد البحث والتروّي قرر اعضاؤُهُ ان خسائر دمشق لا تقل عن مليون ونصف من الليرات العثمانيَّة ولكن فؤاد باشا اتى كل دهائهِ وذكائهِ حتى انزل هٰذَا القدر إِلَى اقل من النصف فرضي المؤتمر بتقدير الخسارة بسبعمائة الف ليرا وقرَّر أَن يجمع هٰذَا المال من مسلمي تلك الناحية ويعطى إِلَى المسيحيين كلٌّ على قدر خسارتهِ. وارتأَى فؤَاد باشا ان يجمع قسم من هٰذَا المال من طائفة الدروز فلم يوافقهُ المؤتمر على رأْيهِ

ومن اغرب امور هٰذَا المؤتمر ان فؤَاد باشا اعلن بقيَّة الاعضاء في الجلسة الخامسة عشرة ان الباب العالي قد اقرَّ على ان تنظر مسائل التعويض برمتها في الاستانة ويعفى المؤتمر من النظر فيها فذهل بعض الوكلاء لهذه الحكاية وصمت الآخرون ولكن الغريب في الامر انهم لم يعترضوا على هذا القرار وسلموا بهِ في الحال مع ان حقوقهم كانت تخوّل لهم المثابرة على النظر بانفسهم في امور التعويض. ونتج عن انتقال هذا الامر الخطير إِلَى يد الاتراك ما يعرفهُ كل عارفٍ في الارض فان الباب العالي اعلن بعد الامهال الطويل انهُ لا يقدر على دفع اكثر من ٣٥٠ الف ليرا لاهل دمشق وان هذا المال يعطى اليهم اقساطًا يقبضونها كل ستة اشهر على مدة ثلاث سنين ومعلوم ان التعويض مع مثل هٰذَا التأْخير وفي يد اناس يأْكلونهُ ولا يعطونهُ إِلَى اصحابهِ مثل مأْموري الاتراك لا يعد تعويضًا ولكنهُ يعد ظلمًا تركيًا

وقد حصل من بعد هذا القرار ان الدولة التركيَّة اعطت بعض الاساقفة والوجهاء مالاً قليلاً فأعطوها الشهادات بوصول حقهم اليهم وبانهُ لم يبقَ عليها شيءٌ من اوجه العدالة وبان النصارى يدعون لها بدوام النصر عَلَى هذا الاحسان الكثير والعدل الوافر وانقضى الامر بمثل هذه الاكاذيب فلم يقبض بعض المصابين شيئاً وقبض بعضهم معشار ما لهُ وقبض المأمورون بعض ما للذين لم يجسروا عَلَى المطالبة ولم يبلغ مجموع الذي دُفع عشر الذي خسرهُ الاهالي من المال في سنة الاهوال. واما الذي اصاب الارامل والايتام من اهل حاصبيا وراشيا ودير القمر فحدث عنهُ ولا حرج فقد ذبلت نفوس هؤلاء المساكين من الهم ولم تعطهم الحكومة التركيَّة شيئاً من التعويض الاَّ اليسير ولولا ان يتداركهم اولو الاحسان من الافرنج للحقوا بالذين قتلوا في تلك المجازر الوحشيَّة

وكان من اهم اعمال مؤتمر بيروت النظر في جنايات الدروز والمسلمين من مراقبة محاكمتهم واعدامهم فاجتهد فؤاد باشا في اول الامر ان ينزع هذا الحق من يد المؤتمر كما نزع حق النظر في امر التعويضات فهاج لذلك اللورد دوفرن وقال انهُ اذا حاولت الحكومة التركيَّة منع المؤتمر واعضائهِ من النظر في سير المحاكمات وتوقيع العقوبات ذهب بنفسهِ إِلَى المحكمة واجاز للحرَّاس منعهُ من الدخول بالقوة حتى يثبت ذلك عَلَى عمال الدولة التركيَّة ويعرف كيف يجازيهم بعد ذلك ووافقهُ بقيَّة الاعضاء فخاف فؤاد باشا وعدل عن رأيهِ ولكنهُ صمم النيَّة عَلَى عرقلة مساعي المندوبين ونجح في ذلك فطلب اليهم ان يبدوا

رأيهم في كيفيَّة المجازاة وصاركل واحد منهم يبدي رأياً فكان وكيل دولة النمسا يرى ان الاعدام لا يجوز مطلقاً بدعوى ان الذي يقتل خصمهُ في الحرب لا يستحق الاعدام . وكان قنصل روسيا يريد امراً غير هذا وقنصل فرنسا يطلب اعدام وجهاء الدروز واكابرهم وفي جملتهم سعيد بك جنبلاط فعارضهُ وكيل انكلترا في امر هذا العميد ولم يوافق عَلَى قتلهِ ولكنهُ رضي باعدام الآخرين وهكذا وقع المؤتمر في شرك الاتراك وكثر الاختلاف بين اعضائهِ

ومضت الايام والاشهر والمؤتمر يبحث في المسائل وفؤَاد باشا يؤَخر نتيجة اعمالهِ بكل واسطة ممكنة فيوماً يلقي عليهِ المسائل المعضلة ويوماً يتقرَّب من وكيل عَلَى وكيل آخر ويوماً يطلب منهُ الامهال في بعض الامور ريثما يتمُّ التحقيق ويوماً يسافر إلَى دمشق او سواها بدعوى ان الاحوال تدعو إلَى ذلك فيؤَخر المؤتمر عن اتمام اشغالهِ حتى ضاقت صدور الناس من هذا التأخير وحذر المؤتمر فؤَاد باشا من عاقبتهِ فجمع اساقفة النصارى واعيانهم عَلَى ما تقدم وامرهم بتحرير الكشف الذي ذكرناهُ وظلَّ اشهراً يحاول الوكلاء بهذا الكشف ويعدهم بتحضيرهِ وتنقيحهِ ومجازاة الذين يذكرون فيهِ حتى اذا شاع بين الناس ما مرَّ عن رغبة الاساقفة ووجهاء النصارى في اعدام ٤٦٠٠ درزي انقلبت الافكار عَلَى النصارى وبدأَ البعض من اعضاء المؤتمر يدافعون عن الدروز ويرتأُون تشكيل محكمة مخصوصة تدور في المدن والجبال لمحاكمة النصارى والدروز معاً من الذين اشتركوا في الحرب الاخيرة

وكان فؤاد باشا في خلال هذه المدة يحاكم بعض دروز بيروت والمختارة على ما تقدم من اساليب الدهاء والتمويه وكلما سألهُ وكلاء الدول ان يعجل في التحقيق ويسرع في معاقبة الجانين يقدم لهم رأياً جديداً وعذراً يوجب التأخير حتى فرغ الصبر عن آخرهِ ولم يعد في امكان الوزير التركي ان يزيد في التأخير فأمر باعدام ٣٥ رجلاً من أشهر اشقياء الدروز وهكذا انتهى الامر ولم يقتل من هؤلاء القتلة الغادرين غير هذا العدد الذي لا يذكر

ثم عاد المؤتمر إلى التحقيق والنظر في ما يجب اتخاذهُ من الاعمال لمنع حدوث مثل هذه المذابح في لبنان وكثر اختلافهم في هذا الامر ايضاً ولكنهم قرروا مبدئياً ان يكون حاكم لبنان المطلق مسيحياً من غير اهلهِ ومن رعايا الدولة التركية ويكون الثاني في الجبل بعدهُ من الدروز وان يستقل لبنان في شؤونهِ الداخلية تحت سيادة الباب العالي وانتهت جلسات هذا المؤتمر في ٢ مارس سنة ١٨٦١ فرفع تقريرهُ إلى الاستانة للباب العالي وسفراء الدول وهناك تخابرت الدول في الامر فقررت بعد الامعان قبول المبدإ الذي اوضحناهُ

وسنت نظاماً لجبل لبنان رأينا ان ننقل صورتهُ

هنا وبمثل هذا انتهت حوادث

سنة ١٨٦٠

السوداء

ترجمة نظام جبل لبنان

لما كان الاجل المضروب مدة ثلاث سنين للنظام الذي وُضع وللقرار الذي تقدم صدوره بخصوص ادارة جبل لبنان تحصيلاً لاسباب رفاهة وأمن الرعيَّة التابعين دولتي العليَّة القاطنين والمستوطنين الجبل المذكور وكان من المقرَّر انهُ عند انقضاء المدة المعينة يعاد التذاكر في مقتضى الحال وقد انقضت الآن اجري التعديل والتنقيح في بعض المواد الواردة في لائحة هٰذَا النظام وعند عرضها عَلَى جناب سلطنتي الاشرف والاستئذان فيها تعلق شرف صدور ارادتي السنيَّة الشاهانيَّة باجراء مقتضاها عَلَى هٰذَا الوجه وبموجبها لزم اعلان النظام المذكور عَلَى المنوال الآتي بيانهُ

﴿ المادة الاولى ﴾ يتولى ادارة جبل لبنان متصرف مسيحي تنصبهُ الدولة العليَّة ويكون مرجعهُ الباب العالي رأساً وهو محتمل العزل بمعنى انهُ لا يستمر في منصبهِ ما دام حيًّا . ويكون عَلَى عهدتهِ القيام بجميع خطط الادارة الاجرائيَّة متوفراً عَلَى حفظ الراحة والنظام في انحاء الجبل كلها وان يحصل منها التكاليف. وبحسب الرخصة ٱلَّتي من لدن الحضرة الشاهانيَّة ينصب تحت عهدتهِ مأموري الادارة المحليَّة ويقلد الحكام القضاء ويعقد المجلس الكبير ويتولى رئاستهُ . وينفذ الاعلامات القانونيَّة الصادرة من المحاكم الخارجة عن القيود ٱلَّتي ستذكر في المادة الثامنة

﴿ المادة الثانية ﴾ ينبغي ان يكون للجبل كلهُ مجلس ادارة كبير مؤلفًا من اثني عشر عضوًا اثنين مارونيين ينوبان عن مديريَّة[١] كسروان . وثلثة من مديريَّة جزين احدهم ماروني والثاني درزي والثالث مسلم واربعة من مديريَّة المتن احدهم من الموارنة والثاني من الروم والثالث من الدروز والرابع من المتاولة . وعضو واحد درزي من مديريَّة الشوف وآخر من الروم ينوب عن مديريَّة الكورة . وآخر من الروم الكاثوليك عن مديريَّة زحلة . ومجلس الادارة هٰذا يكون مأمورًا بتوزيع التكاليف والبحث في ادارة واردات ومصاريف الجبل و ببيان آرائهِ من وجه المشورة فيما يعرضهُ عليهِ المتصرف من المسائل

﴿ المادة الثالثة ﴾ ينبغي ان ينقسم جبل لبنان إِلَى سبعة قضاوات الاوَّل يشتمل عَلَى الكورة مع الجهة التحتيَّة والاراضي المجاورة الآهلة باقوام عَلَى مذهب الروم الَّا ان قصبة القلمون اَلَّتِي عَلَى ساحل البحر ومعظم سكانها من اهل الاسلام هي مستثناة من ذلك . والثاني يشتمل من شمالي لبنان عَلَى جبة بشري والزاوية و بلاد البترون . والثالث يشمل من الشمال المذكور بلاد جبيل وجبة المنيطرة والفتوح وكسروان الاصلي حتى نهر الكلب . والرابع يشتمل عَلَى زحلة وضواحيها . والخامس يشمل المتن مع ساحل النصارى واراضي القاطع وصليما . والسادس يبتدئ من جنوبي طريق الشام حتى جزين . والسابع يشمل جزين

(١) في بداية تأسيس المتصرفية اللبنانية كانت المديرية بمعنى القائمقامية وكان قضاءا كسروان والبترون مديرية واحدة ولهذا ورد في هذا النظام لفظة مديرية عوض لفظة قائمقامية المستعملة الآن

واقليم التفاح . وفي كلٍّ من هذه القضاوات السبعة المارّ ذكرها ينبغي للمتصرف ان ينصب مأمور ادارة منتخباً من ابناء المذهب الغالبين هناك عدداً في النفوس أو اهميَّة في الاملاك والاراضي الجارية بتصرفهم

✱ المادة الرابعة ✱ يجب ان تنقسم القضاوات إلَى نواحٍ عَلَى نمطٍ قريب المشاكلة لما ذكر من اقسام القضاوات فيلي كل ناحية مامور ينصبهُ المتصرف بناءً على انهاء القضا . وان يكون في كل قرية شيخ ينصبهُ المتصرف بانتخاب اهلها

✱ المادة الخامسة ✱ قد تقرَّر امر المساواة بين الجميع في شمول احكام القانون ونسخ والغاء كل الامتيازات العائدة لاعيان البلاد خصوصاً ذوي المقاطعات

✱ المادة السادسة ✱ يكون في الجبل ثلث محاكم ذات درجة اولى يقوم كلٌّ منها بحاكم ووكيل ينصبها المتصرف ومعها ستة وكلاء دعاوي رسميين ينتخبهم الطوائف . ويكون في مركز ادارة الحكومة مجلس محاكمة كبير يتألف بستة حكام ينتخبهم المتصرف ويعينهم من الطوائف الست وهي المسلمون السنيون والمتاولة والموارنة والدروز والروم والروم الكاثوليك ويلحق بذلك ستة من وكلاء الدعاوي الرسميين لكل طائفة وكيل معين . واذا وقع دعوى لاحد المتمذهبين بمذهب البروتستنت أو اليهود اضيف إلَى المجلس حاكم ووكيل دعاوي رسمي من اهل كلا المذهبين علاوةً على الاثني عشر عضواً المارّ ذكرهم امَّا رئاسة هذه المحكمة فيتولاها مامور مخصوص ينصبهُ المتصرف . وان اقتضت حاجات البلاد مزيداً فللمتصرفين ان

يضاعفوا عدد المحاكم ذات الدرجة الاولى . واجراءً للحكومة مجراها المتسق ينبغي لهم ان يعينوا منذ الآن الاماكن الحريَّة بان تكون فيها هذه المحاكم

﴿ المادة السابعة ﴾ ان لمشايخ القرى الذين يقومون بوظيفة حاكم الصلح ان يحكموا في الدعاوى ألَّتي لا يتجاوز قدرها مئتي قرش حكماً غير مستأنف واما الدعاوي المتجاوز قدرها مئتي قرش فترى في مجالس المحاكمة ذات الدرجة الاولى عَلَى انهُ لو عرض امورٌ مختلطة وهي الدعاوى الواقعة بين اثنين مختلفي المذهب وابى ايهما كان قضاء حاكم الصلح فيها لكونهِ عَلَى مذهب المدعى عليهِ فتحال وان قلَّ قدرها إِلَى محاكم الدرجة الاولى . ثم ان جميع الدعاوى ولو وجب فصلها بحسب ماهيتها بغالبيَّة آراء الاعضاء الَّا ان للمدعي والمدعى عليهِ المتحدي المذهب ان يردوا الحاكم لاختلاف مذهبهِ غير ان الحكام المردودين من هٰذا الوجه لابدَّ من حضورهم للمحاكمة

﴿ المادة الثامنة ﴾ تقتضي المحاكمة في الدعاوي الجزائيَّة ان تكون عَلَى ثلثة وجوه وهي ان يرى دعوى القباحة شيوخ القرى المتقلدون خطة حاكم وان الجنحة والجرائم تراها المحاكم ذات الدرجة الاولى. وان الجنايات تجري محاكمتها في مجلس المحاكمة الكبير. واعلامات الحكم الواجب صدورها من هٰذا المجلس لا يمكن وضعها موضع التنفيذ ما لم تكمل المعاملات والمراسم الجارية بها في سائر الممالك المحروسة الشاهانيَّة

﴿ المادة التاسعة ﴾ ينبغي ان يرى في مجلس تجارة بيروت

كل الدعاوي التجاريَّة حتى ان الدعاوى العادية الواقعة بين واحدٍ من ذوي التابعيَّة الاجنبيَّة او احد الداخلين في حماية اجنبيَّة وبين آخر من اهل الجبل ترَى في المجلس المذكور. عَلَى ان المنازعات البادية بين اللبنانيين والاجنبيين متى تأتى فصلها بمعرفة محكمين عن تراضٍ من المتنازعين فيجب والحالة هذه عَلَى مأموري لبنان المحليين وقناصل الدول المتحابة الفخيمة ان ينفذوا اعلام المحكمين . وان تعذر تراضي الخصمين عَلَى التحكيم في الدعوى واحيلت إِلَى محكمة بيروت فتجب تأدية المصاريف عَلَى الخاسر دعواهُ بحسب التعريفة الَّتِي وضعها متصرف جبل لبنان وقناصل الدول جملةً واتفاقًا وقد جرى عليها التصديق من جانب الباب العالي . ومن المقرَّر انهُ يجب في الصك الحاوي تراضي المتنازعين عَلَى اتخاذ محكمين ان ينظماهُ ويمضياهُ وفقًا لاصولهِ وان يسجلاهُ في بيروت وفي مجلس المحاكمة الكبير بلبنان

﴿ المادة العاشرة ﴾ ان الحكام ينصبهم المتصرفون بخلاف اعضاء مجلس الادارة فانهم ينتخبون بمعرفة مشايخ القرى كما ان انتخاب الشيخ يكون بمعرفة اهل القرية. ثم ان اعضاء مجلس الادارة يجدَّد انتخاب ثلثهم كل سنتين ويجوز تكرير انتخاب من انقضت عضويتهم

﴿ المادة الحادية عشرة ﴾ يجب ان يكون الحكام باجمعهم موظفين وان اقدم احدهم عَلَى ارتكاب «الرشوة» او تبين بالتحقيق انهُ آتٍ ما لا يليق بصفة مأموريتهِ فهو مستحق للعزل بل مستوجب ايضًا للتأديب على قدر قباحتهِ

﴿ المادة الثانية عشرة ﴾ يجب في مجالس القضاء على الاطلاق ان تكون المرافعة علنية وان يعهد بضبط الدعوى إلى كاتب مخصوص وما عدا ذلك فحيث ان هذا الكاتب يكون مأمورًا باتخاذ سجل لقيود الصكوك المختصة بفراغ وانتقال « بيع » الاموال الثابتة « العقار» فلا تكون هذه الصكوك معمولاً بها ما لم تقيد بحسب اصولها في السجل المذكور

﴿ المادة الثالثة عشرة ﴾ ان المتهمين من اهل جبل لبنان بارتكاب الجرائم في غير الوية فمرجع الدعوى عليهم هو اللواء الواقع فيهِ الجرم . وكذا مرتكبو الجرم من اهالي سائر الالوية داخل نطاق جبل لبنان ينبغي ان تجري محاكمتهم والحكم عليهم بدعاوى جرائمهم في جبل لبنان. وبناء على ذلك فان المجترمين في جبل لبنان سواء كانوا من اهاليهِ الوطنيين او من نزلائهِ المعدودين من اهل ديار اخرى اذا فرّوا إلى لواء آخر فكما ان على ضابطهِ ان يمسكهم بمقتضى الاشعار الوارد من قبل ادارة جبل لبنان ويسلمهم اليها كذلك يلزم ادارة الجبل ان تلقي القبض على الفارين اليهِ من المجرمين في احد الالوية لبنانيين كانوا او غير لبنانيين وتدفعهم إلى اللواء المذكور بموجب اشعار ضابطهِ ومأمورو الادارة الذين يتسامحون في اجراء الاوامر الصادرة باسترجاع امثال هؤلاء المتهمين إلى المحاكم المنوطة بها دعاويهم او الذين يجيزون تأخيرات لايمكن اثبات ابتنائها على اسباب شرعية فتجري عليهم المجازاة بمقتضى قانون الجزاء كسائر الذين يوارون ويخفون امثال هؤلاء المتهمين عن الحكومة. والحاصل ان العلاقات اللازم اجراؤها

بين ادارة جبل لبنان والالوية المجاورة لها تكون كالمواصلات الجارية والمتخذة دستورًا للعمل بين باقي السناجق في ممالك الدولة العليَّة

❊ المادة الرابعة عشرة ❊ ان سبيل المتصرف إلى اقرار حفظ الراحة وانفاذ القوانين في الازمنة العاديَّة انما يكون بمعرفة فرقة ضبطيَّة مجموعة من الاهالين بحسبان سبعة انفار تخمينًا على كل الف من النفوس. ويجب سخ سكك الحوالية وابطال نزول الضبطيَّة على البيوت والاعتياض عن ذلك باسباب اكراهيَّة كاستياق المحكوم عليهِ إلى السجن. فبناء على ذلك يمنع مامورو الضبطيَّة بقيد التأديبات الشديدة ان يصادروا اهل البلاد بشيء من الاجرة نقدًا كان أو عينًا. ويجعل للضبطيَّة ملبس رسمي أو أزياء مميزة لهم في خدمتهم. وان تبقى طرقات بيروت والشام وصيداء وطرابلس تحت محافظة العساكر الشاهانيَّة إلى ان يصدق المتصرف على ان جند الضبطيَّة صاروا اكفاء لاتمام جميع الوظائف المحمولة عليهم في الازمنة العادية. وهذا العسكر يكون لدى المتصرف وبادارتهِ وللمتصرف ان يطلب من الحكومة العسكريَّة بسوريَّة الامداد بالجنود المنظمة في الاحوال غير العادية ان دعت الضرورة بعد أن يستشير مجلس الادارة الكبير. ويلزم الضابط المعين بالذات لرئاسة هذا العسكر ان ينظر مع المتصرف في تقرير التدابير الواجب اتخاذها وهو « اي الضابط الموما اليهِ » وان كان مختارًا ومستقلاً بامور العسكر المحضة كاجراء الحركات والنظامات الجنديَّة الَّا أن عليهِ مدَّة وجودهِ في الجبل أن يلزم معيَّة المتصرف ويجري العمل تحت عهدتهِ وفي حال اعلان المتصرف لرئيس العسكر وافادتهِ رسميًا ان قد زال

السبب الذي من اجلهِ ورد العسكر إلَى الجبل يجب عليهِ اخراجهُ منهُ

☀ المادة الخامسة عشرة ☀ ان الدولة العليَّة تحافظ على حقها المعلوم بتحصيل ويركو الجبل المعين الآن ثلثة آلاف وخمسمئة كيس وذلك على يد المتصرف على انهُ يجوز ابلاغ هٰذَا القدر إلَى سبعة آلاف كيس عند الامكان بحيث ان المال المتحصل يخصص باديءَ بدء لادارة الجبل ونفقات منافعهِ العموميَّة فان فضل منهُ شيءٌ رُدَّ الفاضل إلَى الخزينة وان اقتضت شدة الضرورة إلَى تحسين مجرى الادارة مزيدًا على التكاليف المعينة فيرجع في تسوية المزيد إلَى مصاريف الخزينة الجليلة امَّا واردات البكاليك اي حاصلات الاملاك الهمايونيَّة فحيث انها ليست بداخلة ضمن الويركو فينبغي اذخارها في صندوق الجبل لحساب الخزينة الجليلة على ان السلطنة السنيَّة لا تقوم باداء مصاريف المنشآت العموميَّة وسائر النفقات غير العادية ما لم يتقدم قبولها لها وتصديقها عليها

☀ المادة السادسة عشرة ☀ يجب تعجيل الشروع في احصاء نفوس اهل الجبل محلاً محلاً وملةً ملةً ومسح جميع الاراضي المزدرعة ونظم خريطة مساحتها

☀ المادة السابعة عشرة ☀ كل الدعاوي الكائنة بين افراد رهبان الاديرة وخوارنة الكنائس يكون فيها المظنون بهِ أو المتهم تابعين للحكومة الرهبانيَّة الَّا ان تطلب الاسقفيَّات احالة ذلك إلَى مجلس الدعاوي العادية

☀ المادة الثامنة عشرة ☀ يمتنع في عموم اماكن الرهبان مطلقًا

اجارة للاجئين اليها ممن تطلبهم وتتعقبهم الحكومة رهبانًا كانوا أو من عوام الناس «اه»

ان الثماني عشرة مادة المسرودة آنفًا هي النظامات الاساسيَّة لجبل لبنان يجب اتخاذها دستورًا للعمل إلى ما شاء الله تعالى. ومن مقتضى ارادتي القاطعة السلطانيَّة ان يتوفر الجميع على كمال الاعتناء والدقة في اجرائها وتنفيذها حرفًا فحرفًا والحذر كل الحذر من مخالفتها . وائذانًا بذلك صدر فرماني هذا العالي الشأن . وقد كتب في اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الآخر لسنة احدى وثمانين ومائتين والف «اه»

وقد عاد هذا النظام بالفائدة المطلوبة عَلَى جبل لبنان فانتظمت احوالهُ وترقت شؤُونهُ وسارت ادارتهُ سير الاصلاح والتقدم في حين ان الولايات الاخرى من بلاد الشام ٱلَّتِي لم يشملها هذا النظام ظلت عَلَى ما هي عليهِ الآن من الاختلال في الآراء وسوء الحال . ولكن هذا لم يفدِ الذين أُصيبوا بفقد الاهل وضياع المال ولم تزل آثار تلك الفظائع والاهوال باقية إِلَى الآن في المدن والقرى ٱلَّتِي دمرها الاتراك والدروز في السنة السوداء من مثل دير القمر وراشيًا وحاصبيًا ودمشق وغيرها. وقد تشتت اهالي المدن ٱلَّتِي ذكرناها في جهات شتى واستوطن بعضهم المدن البحريَّة من بلاد الشام ورحل بعضهم إِلَى القطر المصري وبعضهم إِلَى أُوروبا واكثرهم الآن من نخبة المعروفين بين وجهاء الشام وادبائها

جعل الله الذي ذكرناهُ خاتمة مصائب الشام واحزانها وألهم حكومتها الاقدام عَلَى تعميم العدل والاصلاح فيها انهُ السميع المجيب

فصل

في بعض ايضاحات عن جبل لبنان

جبل لبنان سلسلة جبال وهضاب تمتد من منتهى السلسلة الغربيَّة شمالاً حيث مديريَّة الهرمل الى اقصاها جنوبًا حيث جبل الريحان وتتصل حدودهُ بشطوط البحر المتوسط غربًا على محاذاتهِ طولاً ما عدا بعض المدن الكبيرة كطرابلس وبيروت وصيدا فانها منفصلة عنهُ سياسةً . ويحدهُ من الجهة الشرقيَّة سهل البقاع المشهور

ومجموع النفوس المكلفة فيهِ (اي التي تدفع الاموال الاميريَّة) ٩٩٨٣٤ نفسًا واذا أضفنا إلى كل فردٍ اربعة كان عدد السكان التابعين لمتصرفيَّة لبنان نحو خمسمئة الف نسمة وربما زادوا على هذا العدد

وقد تغير حال هذا الجبل ونظامهُ بعد حادثة سنة ١٨٦٠ ونال امتيازًا لم ينلهُ مكان آخر سواهُ وذلك واضح من الفرمان المدرج آنفًا الصادر في ١٤ ربيع الآخر سنة ١٢٨١ للهجرة

واما المتصرفون الذين تولوا الحكم فيهِ منذ سنة ١٨٦١ إلى الآن فخمسة اولهم داود باشا ابتدأت مأموريتهُ في ١٠ حزيران (يونيو) سنة ١٨٦١ وبقي متصرفًا ٦ سنين و١١ شهرًا وتلاهُ فرانقو باشا في ١٤ حزيران (يونيو) سنة ١٨٦٨ فتوفي بعد اربع سنين وسبعة اشهر وعين بعدهُ دولتلو رستم باشا (سفير الدولة العثمانيَّة الآن في لندن)

في ٩ مارس (اذار) سنة ١٨٧٣ وبقي متصرفاً عشر سنين وشهرين. وخلفهُ واصه باشا في سنة ١٨٨٣ وتوفي في سنة ١٨٩٢ فخلفهُ دولتلو نعوم باشا المتصرف الحالي

ويشتمل هٰذَا الجبل عَلَى سبعة اقضية في كلٍّ منها عدة نواحٍ . وفي كل قضاء قائم مقام وفي كل ناحية مدير والمديرون يخابرون القائمقاميَّة والقائمقاميَّة تخابر المتصرفيَّة والمتصرفية تخابر الباب العالي . فقضاء الشوف يتضمن اثنتي عشرة ناحية منها ناحية الدوفين وهي تحتوي عَلَى اثنتين وعشرين قرية . وناحية الغرب الاقصى وتحتوي على تسع قرى . وناحية اقليم الخروب وتحتوي على ٥٦ قرية. وناحية العرقوب الاعلى وتحتوي على ٨ قرى . وناحية العرقوب الجنوبي وفيها ١٠ قرى والعرقوب الشمالي وفيها ١٤ قرية . وناحية الغرب الشمالي وفيها ١٧ قرية . وناحية الغرب الاعلى وفيها ٩ قرى والجرد الجنوبي وفيها ٢١ قرية والجرد الشمالي وفيها ١١ قرية والمناصف وفيها ١٨ قرية والشحّار وفيها ١٤ قرية. والجملة ٢٠٨ قرى وعدد النفوس الَّتِي تدفع الاموال الاميريَّة في هٰذَا القضاء ٢٣٩٨٣ نفساً وفيهِ ٧٧ مكتباً للتعليم و ١٧ جامعاً و ٣٠ كنيسة و١١٨ خلوة للدروز و٧٠٩ دكاكين و ١٥٧٣٩ بيتاً. وما برح هٰذَا القضاء اهم الاقضية في متصرفية جبل لبنان نظرًا إِلَى كونهِ محيطاً بمركز متصرفية الجبل وفيهِ السكان المختلفة الاديان والمشارب

وقضاء المتن فيهِ ٥٤ قرية تتعلق رأساً بمركز القضاء وناحية المتن الاعلى وفيها ٤٨ قرية وناحية بسكنتا ١٠ قرى وناحية القاطع ٣٨

قرية وناحية الشوير ٥ قرى . والساحل ٢٤ قرية والجملة ١٧٩ قرية .
وعدد النفوس المكلفة فيهِ ٢٣١٩٥ وفيهِ مئة مكتب ومكتبان و١٧٤
كنيسة و ٣١ خلوة وجامعان وستمئة دكان و ١٠٣٩٣ بيتاً

وقضاء جزين يشتمل على ١٤٩ قرية منها ٦١ قرية تتعلق ادارتها
رأساً بمركز القضاء . ومنهُ اقليم التفاح وفيهِ ٣٤ قرية وجبل الريحان
وفيهِ ١٢ قرية . وعدد النفوس المكلفة فيهِ ٥٤٣٢ وفيهِ ٣٥ مكتباً
و ٨ جوامع و٤٣ كنيسة و ١١٦ دكاناً و ٢٩٩٠ بيتاً

وقضاء الكورة فيهِ ١٠ قرى تتعلق رأساً بمركزهِ و ١٢ قرية في
ناحية الكورة الشمالية و١٦ قرية في ناحية الكورة الوسطى و١٢ قرية
في ناحية القويطع . وعدد النفوس المكلفة فيهِ ٥٩٩٧ وفيهِ ١٥ مكتباً
و٦ جوامع و٧٩ كنيسة و ٢٨٠١ بيت و ٨٦ دكاناً

وقضاء زحلة مركزهُ مدينة زحلة ويلحق بها عين المزرعة وعين
الدوق وعدد النفوس المكلفة فيهِ ٤١٤٦ وكنائسهُ ١٤ ومكاتبهُ ١٥
ودكاكينهُ ٤٠٠ وبيوتهُ ٢٠٠٠

واما دير القمر فمخابرتها مع مركز المتصرفية رأساً ويلحق بها سبع
قرى وعدد النفوس المكلفة فيها ١٣٥٩ وفيها ٧ مكاتب وجامع و ١٠
كنائس وخلوتان و٢٩٤ دكاناً و ٩٩٣ بيتاً

وقضاء كسروان فيهِ قريتان تتعلقان رأساً بمركزهِ وناحية جبيل
وفيها مدينة جبيل و ٧٣ قرية تابعة لها وناحية المنيطرة وفيها ٣٢ قرية
وجبيل العليا وفيها ٢٤ قرية وناحية غسطا وفيها ١٩ قرية وناحية الزوق
١٠ قرى وناحية جرود كسروان ١١ قرية وناحية الفتوح ٤٨ قرية

وناحية جونية ٦ قرى . و يتعلق بهذا القضاء رأساً قرية شمسطار ألّتي لها مأمور خاص . فعدد القرى ٢٢٦ وعدد النفوس المكلفة فيهِ ١٩٨٤٠ وفيهِ ٣٥ مكتباً و ١١ جامعاً و ١٥٥ كنيسة و ٨٥٠ دكاناً و ١٠٠١٠ بيوت

وقضاء البترون فيهِ سبع نواحٍ وهي ناحية حصرون وتحتوي على ٧ قرى وفيهِ اسكلة البترون و يلحقها ٤٣ قرية وناحية قناة وفيها ١٧ قرية وناحية اهدن ٢٢ قرية وناحية بشرّي ١٠ قرى وناحية الزاوية ٢٤ قرية وناحية تنورين ٢٦ قرية وناحية الهرمل في اقصى لبنان عند منبع العاصي . وعدد النفوس المكلفة فيهِ ١٥٨٨٥ وفيهِ ٤٤ مكتباً و ٥ جوامع و ١٨٣ كنيسة و ٣٦٤ دكاناً . ومجموع قراهُ ١٤٩ قرية و بيوتهِ ٧٨٠٧ بيوت

اما دخل حكومة الجبل فبقدر خرجها وهو يبلغ نحو ٣٧ الفاً و ٥٠٠ ليرة عثمانية توزَّع رواتب على المامورين و ١٧ الفاً و ٥٠٠ ليرة عثمانية توزَّع على العساكر . وكانت رواتب العساكر فيما سلف تاتيهم من الباب العالي اسعافاً للجبل فبطل ذلك الآن وصاروا يقتصدون من رواتب المأمورين و يعطون العساكر فتخلص الباب العالي من دفع الاسعاف وبقي الحال على ما كان عليهِ فلم يزد الدخل ولم ينقص الخرج حسب روابط الجبل القانونية . ومعلوم انهُ لا يصيب الرجل المكلف في لبنان اكثر من ١٥ غرشاً في السنة يدفعها إلى الحكومة . اما ما يدفعونهُ عن العقارات فيكاد لا يذكر . ونعني بالمكلف الذي لا ينقص عمرهُ عن ١٥ سنة ولا يزيد عن سبعين . واما مسلمو لبنان فمعفون من ذلك الرسم

وعسكر الجبل وحكامهُ من اهلهِ ولذا ترى نظامهُ احسن نظام لرفقهِ بحال الاهالين والسكان

اما المحاكم في لبنان ففي كل قضاء محكمة ابتدائية مؤلفة من رئيس وعضوين « قاضيين » وكتبة على قدر الحاجة ينصبهم جميعاً متصرّف الجبل ويعزلهم متى شاء. وهذه المحاكم مأمورة ان تحكم بالدعاوي الحقوقية على ان ما كان منها دون الالفين والخمسمائة قرش فحكمها فيهِ لا يستأنف بل يميز في محكمة التمييز بالاستانة العلية وما كان فوق ذلك اي فوق الالفين و٥٠٠ قرش فحكمها فيهِ يقبل الاستئناف في ديوان الاستئناف الآتي ذكرهُ ويقبل التمييز ايضاً. واما في دعاوي الجزاء فتحكم بالقبائح (والقباحة هي ألتي تعرف في مصر بالمخالفة) وهي التي لا تتجاوز الحبس لاجلها اسبوعاً واحداً والجزاء النقدي مئة قرش حكماً لا يقبل الاستئناف بل التمييز. وفي دعاوي الجنح يكون حكمها قابلاً للاستئناف والتمييز . وليس لهذه المحاكم ان تنظر في الدعاوي الجنائيَّة بل عليها اتمام تحقيقاتها الاوَّليَّة ورفع اوراقها إلَى الهيئة الاتهاميَّة التي سيأتي ذكرها . وهذه التحقيقات يتولاها المستنطق المعروف في مصر بقاضي التحقيق وهو احد اعضاء هذه المحاكم مع وكيل معاون المدعي العمومي وهو باشكاتب احدى هذه المحاكم . اما وظيفة المستنطق فهي. اولاً تحقيق ما يقع في القضاء من الجرائم الجنائيَّة ورفع اوراقها بعد اتمام التحقيق إلَى الهيئة الاتهاميَّة . ثانياً تحقيق ما يحال عليهِ من دعاوى الجنح ألتي قد تكون غامضة فيحققها ويخرج قراراً اما بالمحاكمة او بعدمها على ان قراراتهِ خاضعة لرئيس المحكمة الذي لهُ الحق بان يغير فيها وان

يأمر باعادة التحقيق ثانيةً . اما وكيل معاون المدعي فمأمور باجراء التعقيبات العدليَّة في دعاوى الجنايات و باقامة دعاوى الجنح باسم الحقوق العموميَّة في المحاكم وكل حكم تصدرهُ المحكمة في دعاوى الجنح لا يعتبر اذا لم يكن وكيل المعاون حاضرًا عند تفهيمهِ

وفي مركز المتصرفية ديوان يسمى ديوان الاستئناف يقسم إلى دائرتين حقوقيَّة وجزائيَّة . وكلٌّ منهما يقوم برئيس وستة اعضاء يعينهم المتصرّف ايضًا فدائرة الحقوق تنظر بوجه الاستئناف في ما يرفع اليها من الاحكام القابلة للاستئناف الَّتي تصدر من المحاكم الابتدائيَّة وهي تقوم في ذلك بوظيفة الهيئة الاتهاميَّة في الدعاوي الجنائيَّة أعني ان الدعاوي الجنائيَّة لا تحال على دائرة الجزاء بعد ان تتمّ تحقيقاتها الاوَّليَّة في القضاء ما لم يدقق فيها اولاً في دائرة الحقوق باعتبار كونها هيئة اتهاميَّة فاذا رأت هذه الهيئة بعد مطالعة الاوراق ان الادلة التي أُتي بها لاثبات ان المظنون مرتكب للجناية المنسوبة اليهِ انما هي ادلة يصح الاعتماد عليها أمرت بسوقهِ إلى دائرة الجزاء ليحاكم فيها وان لم يكن ثمة دليل او كان ولكن غير بالغٍ حد الكفاء اطلقت سراح المظنون بهِ وقرّرت انهُ ما من محل لاجراء المحاكمة . واما الهيئات الاتهاميَّة في سائر الولايات العثمانيَّة فليست دوائر الحقوق بل دوائر الجزاء في محكمة اللواء الذي يكون مركز الولاية

اما دائرة الجزاء فتنظر استئنافًا في احكام المحاكم الابتدائيَّة المتعلقة بدعاوى الجنحة وتنظر بداءةً في الدعاوى الجنائيَّة على ان ما تصدرهُ من الاحكام فيها يميز رأسًا ورسميًا بلا طلب بمعنى ان الحكم

في دعاوى الجنايات لايمكن وضعهُ في موضع الاجراء ما لم يميز ويثبت من محكمة التمييز بخلاف سائر الاحكام حقوقيَّة كانت ام جزائيَّة فان تمييزها وعدمهُ منوطان باختيار اصحابها

اما الرسوم التي يضطرُّ المتداعون إلى تأديتها في محاكم لبنان فهي عبارة عن غرش واحد في المئة يؤدَّى ربعها عند فتح الدعوى وثلاثة ارباعها عند اعطاء الحكم وهذه الرسوم تسمى «خرج اعلام» واخص القوانين المعوَّل عليها في دعاوى الحقوق الكتاب المسمى «مجلة الاحكام العدليَّة» وهو مأخوذ عن الكتب الفقهيَّة الاسلاميَّة ولكنهُ يمتاز عنها باختصارهِ وبجزمهِ في المسائل المفتى بها وبسهولة عبارتهِ فهو من هذه الجهة مضارعٌ للكتب الافرنجيَّة ألَّتي بمعناهُ . وقد علق عليهِ الشرَّاح عدة شروح اقتبسوها من الكتب الفقهيَّة وسهلوا بعضها وتركوا البعض الآخر معقدًا

واما في دعاوى الجزاء فالمعوَّل عليهِ في المجازاة «قانون الجزاء الهمايوني» واما «قانون اصول المحاكمات الجزائيَّة» فيبحث فيهِ عن كيفيَّة النظر في دعاوى الجزاء وعن وظائف المستنطقين والمدعين العموميين إلَى غير ذلك وهٰذَا الكتاب مترجم حرفيًا عن القانون الفرنسوي . وقد صادف القوم ويصادفون في تطبيق المعاملات عليهِ صعوبات جمة . انتهى .

هٰذَا ما عنَّ لنا تدوينهُ في هٰذَا الكتاب والحمد لله اولاً وآخرًا وباطنًا وظاهرًا

فهرست

كتاب حسر اللثام

عن

نكبات الشام

وجه

وجه

